في التاريخ الأيوبي والمملوكي

تأليف

الدكتور أحمد مختار العبادي

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الناشر

مؤسسة شباب الجامعة

ت ٤٨٣٩٤٧٢ - الاسكندرية

AL-ESHAA
طبع بمطابع
مكتبة
و
مطبعة
الإشعاع
طباعة ونشر
وتوزيع الكتب
الجامعية
معمورة البلد - بحري ت: ٥٦٠٠٤٧٩
إسكندرية

في التاريخ الأيوبي والمملوكي

تأليف
الدكتور أحمد مختار العبادي
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الأستاذ الدكتور
السيد عبد العزيز غنيم

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
ت ٤٨٣٩٤٧٢ - الإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا كتاب فى تاريخ الأيوبين والمماليك فى مصر والشام ، حاولت من خلاله أن أبرز أهمية الدور السياسى والحربى والحضارى للفارس المملوك فى المجتمع الإسلامى، ومدى تأثيره فى مجريات الأحداث الدولية والأقليمية فى العصر الوسيط .

وقد اقتضى ذلك الرجوع إلى معرفة أصل استخدام المماليك فى المجتمع الاسلامى و الأنظمة التربوية العسكرية الاسلامية التى اتبعت فى أعداده وتكوينه على مر العصور الاسلامية منذ عهد السامانيين والغزنويين والخوارزميين والسلاجقة ثم الأيوبيين الذين يرجع اليهم الفضل فى انتقال تلك النظم إلى مصر حيث بقيت عدة قرون زمن دولة المماليك التى تبلورت فيها خلاصة هذه الأنظمة ، وحصيلة هذه التجارب المملوكية السابقة التى سادت بلاد ما وراء النهر وافغانستان والهند وخراسان والعراق شرقا وبلاد المغرب والأندلس غربا . وقد عبر القلقشندى عن هذه الظاهرة بقوله :

« ودأبت سلطنة المماليك فى مصر على أن تنقل من كل مملكة سبقتها أحسن ما فيها، فسلكت سبيله ،ونسجت على منواله ، حتى تهذبت وترتبت أحسن ترتيب ، وفاقت سائر الممالك» (صبح الأعشى جـ٤ ص٦)

وكل هذا يوضح أسباب الانتصارات التي حققها هولاء المماليك

فى الحروب الجهادية التى خاضوهافى جبهات متعددة فى وقت واحد ضد الصليبين غربا، والمغول شرقا ، والأرمن شمالا ، والنوبيين جنوبا ،هذا إلى جانب الاصلاحات الادارية والانجازات الاقتصادية والمنشأت المعمارية التى جعلتها من أبرز دول العالم قوة وازدهارا.

ولقد سبق لى أن نشرت فى هذا الصدد كتابا بعنوان « قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام » انتهيت فيه عند عصر السلطان الظاهر بيبرس، ولكننى أثرت فى هذا الكتاب أن أواصل تاريخ هذه الدولة المملوكية الأولى، وهى المعروفة بدولة المماليك البحرية ،حتى نهايتها أى إلى نهاية عصر بنى قلاوون وقيام دولة المماليك الثانية وهى المعروفة بالبرجية أو الجراكسة على يد السلطان الظاهر برقوق .

والله ولى التوفيق .

الاسكندرية ١٩٩٢/١١/١٧ **المؤلف**

إهـــــداء

« إلى ذكرى أستاذى المرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة

أهدى هذا الجهد المتواضع أعترافاً بفضله »

الفصل الأول

المماليك الأتراك والصقالبة في المجتمع الاسلامي

هذا الموضوع يتناول دراسة دور المماليك فى تاريخ كل من الدولة الأيوبية ، ودولة المماليك الأولى فى مصر والشام .والدراسة التاريخية لمثل هذا الموضوع تحتاج الى النظرة الشاملة التى تستوعب التيارات والحركات منذ نشأتها الى وقت تضجها وتأثيرها فى مجريات الحوادث . وهذا يقتضى منا معالجة أصل استخدام المماليك فى المجتمع الاسلامى عامة ثم تتبع نمو نفوذ هم ومراحل تطورهم ومدى مشاركتهم فى أعمال الحرب والجهاد لاسيما فى عصر الأيوبين والمماليك الذى هو موضوع دراستنا والمملوك عبد يباع ويشترى غير أن التسمية اقتصرت فى معظم الدول الاسلامية على فئة من الرقيق الأبيض يشتريهم الحكام من أسواق النخاسة البيضاء لتكوين فوق عسكرية خاصة فى أيام السلم واضافتها الى الجيش العام أيام الحرب ثم صار المملوك الأداة الحربية الوحيدة فى بعض الدول مثل دولة المماليك فى مصر والشام .

والمماليك الأتراك والصقالبة أشهر أنواع الرقيق الأبيض فى المجتمع الاسلامى وقد انتشر استخدام الأتراك فى دول المشرق الأسلامى بحكم قربها واتصالها بموطنهم الأصلى فى أواسط آسيا . أما الرقيق من الصقالبة فقد أنتشر فى الغرب الاسلامى ، وكان طريقه الرئيسى هو الطريق الذى يبتدئ من شرق المانيا الى ايطاليا وفرنسا ومنها الى الأندلس وجزيرة صقلية و المغرب . والمقصود بالصقالبة فى الكتب العربية سكان البلاد المختلفة من بلغاريا العظمى التى امتدت أرضها من بحر قزوين الى البحر الأدرياتى .

ولتسهيل دراسة هذا الموضع رأينا أن نخصص الكلام فيما يلى عن

كل فريق على حده .

المماليك الأتراك فى المشرق الأسلامى

لاشك أن الأرقاء من الأتراك أقدم عهدا بالدولة الأسلامية من الرقيق الصقلبى أذ وصل المسلمون شرقا الى بلاد تركستان وما وراء نهرى سيحون وجيحون وفتحوها على يد القائد العربى قتيبة بن مسلم أواخر القرن الأول الهجرى أى القرن السابع الميلادى . وعندئذ صار للرقيق التركى مكانه ممتازة فى المجتمع الاسلامى ؛ لوفائهم وشجاعتهم وتمام قاماتهم وحسن صورهم وظرافة شمائلهم ؛ وجاء أغلب أولئك الأرقاء عن طريق الأسر فى الحروب أو عن طريق الشراء فى أيام السلم وكثر أستخدامهم غلمانا وحرسا قبل أن يعرف المسلمون شيئا عن الصقالبة وبلادهم .

ولم تلبث أقاليم ما وراء النهر (أى نهر جيحون) مثل خوارزم ، والشاش(طشقند) وأشروسنة وفرغانة ، وسمرقند ، وبخارى أن صارت مراكز هامة لتجارة الرقيق التركى بعد اعداده وتربيته تربية عسكرية اسلامية ثم تصديرة الى أنحاء العالم الاسلامى .

ولقد جرت العادة أن ولاةهذه الأقاليم ، كانوا يرسلون بعض هذا الرقيق على شكل هدايا الى الخليفة أو الوزير حتى صار انقطاع ذلك النوع من الهديا علامة من علامات الثورة أو العصيان فى الأقاليم .

وتشير المراجع الى أن هؤلاء الأتراك الذين جاءوا الى المجتمع الاسلامى الأول عن طريق الحرب أو الشراء لم يعاملوا معاملة سائر الرقيق بالخدمة فى الأعمال الحقيرة مثل كنس الدار وسياسة الدواب وما أشبه ذلك ، بل كانوا يتولون مناصب الحكم والقيادة فى الدولة ، وقد يؤيد ذلك

قول المؤرخ ابن حسول (ت٤٥٠هـ) فى كتابه « تفضيل الأتراك على سائر الأجناد » ولا يرضى التركى اذا خرج من وثاقة الا بزعامة جيش أو التوسم بحجابة أو الرياسة على فرقة كما أنه لا يرضى الا بأن يساويه سيده فى مطعمه ومشربه وملبسه ومركبة ، ولا يسف فى خدمة الى ما يسف اليه سواه من الحاصلين فى الرق والمجلوبين بالسبى ككنس الدار وسياسة الدواب وما أشبه ذلك[1].

هذا ويبدو أن أستخدام المماليك الأتراك فى الوظائف الكبرى فى الدولة يرجع الى بداية العصر العباسى الأول فيروى الكندى فى كتابه الولاة والقضاة أن الخليفة ابا جعفر المنصور قد ولى على امارة مصر مملوكه التركى يحيى بن داود الخرسى (١٦٢ ـ ١٦٤ هـ) ووصفة وصفا يعبر عن ذلك الولاء الذى يربط المملوك باستاذة ، اذا قال فيه « هو رجل يخافنى ولا يخاف الله » هذا ويذكر الطبرى أنه فى عهد هارون الرشيد عمرت مدينة طوسوس على يد ابى سليم فرج الخادم التركى كذلك استخدم المأمون عددا من المماليك الأتراك فى حرسه نذكر منهم طولون الذى أرسله اليه حاكم مدينة بخارى ضمن هدايا الرقيق التركى سنه٢٠٠ هـ وتدرج طولون فى الرقى حتى صار قائدا للحرس الخلافى العباسى وهو والد أحمد ابن طولون مؤسس الدولة الطولونية فى مصر والشام .

ثم جاء الخليفة المعتصم وكانت أمه تركية فتوسع فى أستخدام المماليك الأتراك كجنود فى الجيش حتى بلغ عددهم بضعة عشر الفا وبنى لهم عاصمة جديدة فى شمال بغداد وهى مدينة سر من رأى أو سامراء . وهكذا نجد المعتصم ليس أول من شكل فرقا عسكرية من الأتراك ، وأنما هو أول من توسع فى أستخدامهم فى الدولة الاسلامية .

---

(١) عباس العزاوى : المجلة التركية الجزء الرابع عدد ١٤ ، انقرة ١٩٤٠ .

وكان من الطبيعى أن يزداد نفوذ هؤلاء الأتراك بعد أن صاروا عنصرا هاماً فى المجتمع والجيش الاسلامى فلما ضعف نفوذ الخلافة العباسية فى الأقاليم وجنح عمال الأطراف الى الاستقلال بولاياتهم ، صار هذا العنصر التركى هو عماد تلك الحركات الاستقلالية ، مثال ذلك عمرو بن الليث الصفار مؤسس الدولة الصفاوية بخراسان الذى دأب على شراء المماليك الصغار من الترك وجعل منهم فرقة لحرسة ، كما عكف على أهداء الكثيرين منهم لقادتة دون أن يقطع رواتبهم من خزانتة كى يطالعوه سراً بأخبار هؤلاء القواد .

ولما قامت الدولة السامانية على أنقاض الدولة الصفارية سنه ٢٩٠هـ (٩٠٣م) وأتخذت مدينة بخارى عاصمة لها ، حرص ملوكها ، رغم أصلهم الفارسى على جلب المماليك الأتراك ، وإهتموا بتربيتهم وأعدادهم اهتماماً كبيراً حتى صار معظم جيوشهم منهم . ،وقد أعطانا الوزير السلجوقى نظام الملك الطوسى (ت٤٨٥هـ) فى كتابة « سياسة نامه»[١] وصفا دقيقا لهذا النظام التربوى الذى وضعه السامانيون لمماليكهم ، ومن ذلك قولة :

ان مماليك السامانيين يرقون تدريجيا بناء على خدماتهم وشجاعتهم وليس اعتمادا على المحسوبية أو الجاه فالمملوك عند شرائة يخدم عاما على قدمية ، فيسير مرتديا قياء من القطن يسمى زندناجى [٢] بجوار سيده الممتطى صهوة جواده ولا يسمح للملوك فى عامة الأول من الخدمة أن يركب الخيل اطلاقا والا عوقب أشد العقاب فأذا ما أتم عامة الأول أخبر

(١) الكتاب باللغة الفارسية وقد ترجمةشيفر Schefer الى الفرنسية .

(٢)زند حى نسبة الى بلدة زندانة Zandanah شمالى بخارى ، واشتهرت بالملابس القطنيه التى نسبت اليها .

عريف الدار حاجب يحجب بذلك فيقدم الحاجب للمملوك حصانا تركيا بعنان دون سرج ثم يمنح المملوك فى العام الخامس من خدمتة سرجا ونجاما وسروالا من القطن المخطوط بالحرير وبعض الأسلحة التى يحلقها فى سرج فرسة وفى العام السادس يمنح المملوك ملابس أفخر من ملابسة السابقة وفى العام السابع يمنح خباء ذا طنب واحد وستة عشر وتدا كما يمنح ثلاثة من الرقيق ليقوموا بخدمته وعندئذ يستحق المملوك لقب عريف الدار ،ويضع على رأسة طاقية من الجوخ الأسود الموشاة بالفضه كما يرتدى قباء حريريا يسمى كنجويا [١] ثم يأخذ المملوك فى الرقى عاما بعد عام وتزداد حاشيتة تدريجيا الى أن يصل مرتبة صاحب الخيل ثم حاجب الحجاب ولا يأخذ المملوك لقب أمير ولا يتولى عملا كبيرا مثل القيام على و لاية من الولايات أو فرقة من الفرق العسكرية الا بعد أن ينضج ، وسن النضوج فى العادة هو سن الخامسة والثلاثين [٢] . ففى هذا السن عهد الى المملوك السامانى البتكين حكم ولاية خراسان فذهب اليها فى نحو الألفين والسبعمائة من مماليكه الأتراك وفيهم مملوكه سبكتكين والد السلطان محمود الغزنوى ويقال ان سبكتكين أشترى من تركستان وأنه حضر ذات يوم بين يدى البتكين مع حاجبة فى عدد من المماليك بسبب

---

(١) كنجويا نسبة الى مدينة كنجة فى اقليم شيروان على ساحل بحر قزوين غربا (فى جمهورية أذربيجان) وأشتهرت بصناعة الأقمشة الحريرية .

(٢) يشرح الحسن بد عبدالله فى كتابة : آثار الأول فى ترتيب الدول ،ص١٦٦ أهمية ذلك الترتيب فى تنشئة المماليك فى الدولة السامانية فى قولة « ويجب على الملك ألا يعجل على المماليك الصغار باشراكهم فى الملك وتدبهم للأمور الجسام ، بل على التدريج فأن الغالب على هممهم القصور وربما بهرتهم الولايات الجسيمة فدهشوا ، وربما غرتهم فبطروا فيجب الاحتياط والتأنى فى ذلك لصغر سنهم وقله تجربتهم » .

وفاة عريف من عرفاء الدار ، وضرورة تعيين خلف له فى تلك الوظيفة وملحقاتها من ميراث وحاشية . فوقع اختيار البتكين على سبكتكين وتعجب الحاجب من قرار الأمير وأخبره أن المختار غلام حديث الشراء ولم يخدم عاما واحداً بعد ، على حين جرت العادة المتبعة أن تكون الخدمة سبع سنوات قبل الولاية على وظيفة من الوظائف ، ويقال كذلك أن البتكين ندم فى قرارة نفسة على التسرع فى ذلك الأختيارالخارق للنظام المتبع فى تربيه المماليك ، وأنه التمس لنفسة العذر على هذا التجاوز بأن الغلام أصيل عريق النسب [١] .

ثم شاءت الأقدار أن تطوح بالبكين والى خراسان من قبل السامانين الى غزنة [٢] سنه ٣٥١ هـ (٩٦٢م) فى قلب جبال سليمان شمالى الهند حيث أقام بفضل مماليكة الأتراك دولة مستقلة لا شأن لها بالسامانيين الا من ناحية التبعية الأسمية وهى الدولة الغزنوية ، وتوفى البتكين سنه ٣٥٢ هـ (٩٦٣) وآلت الأمور فى تلك الدولة بعد سنوات قليلة الى زوج ابنته ومملوكةسبكتكين (٣٦٦ ـ ٣٨٧ هـ = ٩٧٦ـ٩٩٧م) والذى يعتبر المؤسس الحقيقى للدولة الغزنوية أو السبكتكينية [٣] وبلغت تلك

---

(١) يقال أن سبكتكين كان من ولد كسرى يزد جرد الثالث آخر ملوك الفرس الساسانيين ، وأن أهله لجأوا بعد موت يزد جرد الى تركستان ثم استقروا فى سجستان واتحدوا هناك مع الترك .

راجع (Schefer : Siaset Nameh P . 140 -141

(٢) غزنة مدينة وولاية فى طرف خراسان فى أفغانستان وهى الحد بين خراسان والهند و يلفظها الخاصة غزنين وتسمى أيضا غزنيه Chazni أنظر .

(٣) راجع (Lane Poole : Medieval India Under Mohammedan Rule P.65)

الدوله أوجها حتى الغى السلطان محمود الغزنوى بن سبكتكين (٣٨٨ ـ ٤٢١هـ = ٩٨٨ ـ ١٠٣٠م) اسم السامانيين من الخطبة فى مملكته وخطب للخليفة العباسى القادر بالله الذى أنعم عليه بلقب يمين الدولة وأمين الملة كما غزا بلاد الهند اثنتى عشرة مرة وجعل اقليم البنجاب ولاية اسلامية قاعدتها لاهور.ثم اضحلت الدولة الغزنوية بعد وفاة محمود الغزنوى سنة٤٢١هـ بسبب ظهور السلاجقة بزعامة طغرلبك واستلائهم على معظم ممتلكات الغزنويين فاقتصرت الدوله الغزنوية على بعض الولايات الهندية الشمالية حول مدينة لاهور على أن موضع الاهتمام هنا من تاريخ الغزنويين هو أنهم اعتمدوا على المماليك الأتراك فى الجيش والأدارة وشئون الحكم على غرار ما فعل السامانيون ، وأن التتاش Altuntash مملوك سبكتكين نفسة هو بدوره مؤسس الدولة الخوارزمية سنه ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) [1] واتبعت الدولة الخوارزمية سنة أسلافها من حيث الاعتماد الكلى على المماليك الأتراك فى جميع شئون الدولة .

وفى سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦م) استولى الغوريون بزعامة شهاب الدين الغورى على لاهور فأنقضت بذلك الدولة الغزنوية ، وتنسب الدولة الغورية (٥٤٣ـ٦١٣هـ= ١١٤٨ـ١٢١٥م) الى مكان نشأتها جبال الغور وهى ولاية بين هراة وغزنة فى أفغانستان واستطاع الغوريون أن يوسعوا مملكتهم حتى ملكوا ما كان بملكه الغزنويون من بلاد أفغانستان والهند الشمالية فالدولة الغورية هى ثانى دولة اسلامية هندية بعد الدولة الغزنوية غير أن سلاطين هذه الدولة الغورية لم يقيموا فى الهند دائما ، وأنما كانوا يقيمون فى مدينة غزنة عاصمة ملكهم وصاروا يحكمون الهند عن طريق

---

(١) حمل التتاش لقب خوارزمشاة واستمر حكم هذه الدولة فى أسرته بعد مماته سنه ٤٣٢ هـ (١٠٤٠م) راجع (Ency. Of IslamArt .Altuntash).

مماليكهم :الأتراك . وقد أكثر السلطان محمد الغورى من شراء المماليك وعتنى بتربيتهم واعدادهم لمهمه الغزووالجهاد ويؤثر عنه أنه كان كلما .قنة أحد عن ضرورة الحاجة الى ابن ذكر بحافظ على ملك أسرته من بعده أجابة بأن لدية الوفا من الأبناء ألا وهم مماليكه الأتراك [١] وقد أرتفع بعض هؤلاء الماليك الى مناصب الحكم والقيادة نذكر منهم : تاج الدين يلدز الذى حكم كرمان وناصر الدين كوباشا فى السند وقطب الدين أيبك فى دلهى وهو أقوى الجميع نفوذا [٢] .

وأستطاع محمد الغورى بفضل جهود مماليكة وعلى رأسهم أيبك أن يملك جميع البلاد التى فى شمال جبال فندهياس vindhyas بالهند حتى مصب نهر الكنج ، فيعمها الاسلام وتتحول معابدها الهندوسية الى مساجد ويدفع راجاتها الجزية صاغرين .

وكان قطب الدين أيبك رجلا مسلما متمسكا بشروط الأسلام ويظهر ذلك بوضوح فى عدائه الشديد لنظام الطبقات الذى كان سائدا فى الهند ومعاملته للناس على اختلاف طبقاتهم على أساس المساواة التى بنص عليها الأسلام وينسب لأيبك فى دلهى مسجد عظيم اسماه « قوة اسلام» وهو ذو منارة أرتفاعها ٢٥٠ قدما وهى تعد أطول منارة فى العالم ولا تزال قائمة الى اليوم وتعرف بأسم قطب منار وتمتاز بنقوشها وزخارفها ذات الطابع العربى والهندى [٣] .

(Wolseley Haig : The Cambridge History Of India Vol.III (١) p.1-37

(٢) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر جـ٣ ص ٢٧ .

(٣) انظر ك H . Dodwell : History Of India I P . 25 ويقال إن السلطان التتمش مملوك أيبك وزوج ابنتة وخليفته على عرش دلهى هو الذى بنى هذه المنارة عام ١٢٣١ ـ١٢٣٢م تكريما لولى الله قطب الدين الكمكى الذى أقام فى غزنة والملتان ثم استقر أخيرا فى دلهى حتى وفاته سنه ١٢٣٥م . راجع (رحلة ابن بطوطة جـ٢ ص ٩

وفى مارس ١٢٠٦م(٦٠٣هـ) أغتيل السلطان محمد الغورى على ضفاف السند بيد أحد غلاة الاسماعيلية ، وبموتة اختفت غزنة والغور من التاريخ وظهرت مدينة دلهى (١) كعاصمة اسلامية لدولة سلاطين المماليك فى الهند .

ولم يعش أيبك بعد موت سيده سوى بضع سنوات اذا انتهى حكمه كسلطان على هندستان فى نوفمبر سنه ١٢١٠م (٦٠٨هـ) وذلك على أثر سقوطة من على ظهر جوادة أثناء لعبة الكرة أو البولو ـ جوكان ـ فتوفى على الأثر (٢) وسادت الفوضى بعد موت أيبك مدة من الزمان تولى فيها الملك ابن غير كفؤ يدعى أرام شاه وانتهى الأمر بأن خلعه أحد مماليك ابيه البارزين وزوج أبنته شمس الدين التتمش بمساعدة بقية الأمراء وأستأثر بعرش دلهى لنفسة عام ١٢١٦م.

ويعتبر التتمش المؤسس الحقيقى لدولة سلاطين المماليك الذى لم يعش أيبك مدة كافية ليدعم أركانها فينسب الى هذا السلطان تأسيس مجلس من كبار أمراء المماليك عرف بأسم « الاربعين » وكان الغرض منه هو تدعيم سلطان المماليك فى الهند ومن حسنات التتمش أنه اشتد فى رد المظالم وأنصاف المظلومين فيؤثر عنه أنه أمر أن يلبس كل مظلوم ثوبا

---

(١) تسمى أيضا دهلى ودلى (القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٦٨ ـ ٦٩) وتقع فى قلب سهول نهر الكينج فى مكان أهلته الطبيعة ليكون عاصمة للهند الشمالية ومن يستعرض تاريخ الهند العام يجد أن مدينة دلهى كانت مسرحا لوقائع حربية حاسمة لأهمية موقعها الاستراتيجى وقد زارها الرحالة الطنجى ابن بطوطة فى القرن الثامن الهجرى (١٤م) ووصفها بقوله : وهى المدينة العظيمة الشأن الضخمة الجامعة بين الحسن والحصانة وعليها السور الذى لا يعلم له فى بلاد الدنيا نظير ، وهى أعظم مدن الهند بل مدن الاسلام كلها بالشرق (رحلة ابن بطوطة جـ ٢ ص ١٦) .

(٢) انظر Ency. Of Isfam art : Aibeg

. سبوغا وأهل الهند جميعا يلبسون البياض ، فكان اذا قعد للناس أو ركب .رأى أحدا عليه ثوب مصبوغ نظر فى قضيته وأنصفة ممن ظلمة [1] .

ويمتاز عصر هذا السلطان أيضا بظهور المغول وزعيمهم جنكيزخان لذى هدد العالم الأسيوى بأجمعه . وأول نذير على اقتراب هذا الخطر من الهند هو فرار يلدز حاكم غزنه بجيوشه الى داخل الهند أمام ضغط الجيوش الخوارزمية المنهزمة بدورها من الجيوش المغولية .

أخذت هذه القوى الثلاث تنحدر جنوبا بسرعة عنيفة عابرة سلاسل الجبال الشمالية الى داخل الهند غير أن هذة العاصفة سرعان ما زالت بنفس السرعة العظيمة التى جاءت بها اذ من حسن حظ الهند أن المغول اتجهت أبصارهم نحو الغرب فتراجعوا منسحبين عن الهند أما الجيوش الخوازمية وقائدهم جلال الدين منكبرتى آخر شاهات خوارزم فأنهم انسحبوا الى فارس بعد أن فشلوا فى تأسيس امارة لهم فى البنجاب .

خرج التتمش من هذه المحنة أقوى مما كان اذا أحدقت القوات المغولية والخوارزمية بقوات منافسيه فى الشمال أمثال يلدز وكوباشا وصار من السهل عليه بعد ذلك أن يستعيد جميع ممتلكات أستاذه أيبك فى شمال الهند وأن يتخلص من منافسيه [2] .

وبلغ فوز التتمش أقصى مداه حينما أعترف به خليفة بغداد المستنصر بالله العباسي ، سلطانا على الهند ، وبعث له بالتقليد والخلع والالوية والبنود في أوائل سنة ١٢٢٩م (٦٢٦هـ) ، فأصبح التتمش

---

(١) رحلة ابن بطولة جـ٢ ص٢١ .

(٢) قتل يلدز حاكم غزنة سنة ١٢١٦م وغرق كوباشا حاكم السند أثناء فراره سنة ١٢٢٨م (أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر جـ ٣ ص ١٢٢ - ١٢٣) وكذلك :
F. Pareja : Islamologia I p. 254.

بذلك أول ملك فى الهند تسلم مثل هذا التقليد . ومنذ ذلك التاريخ ضرب السلطان التتمش نقودا فضية نقش عليها اسم الخيفة العباس بجوار اسمه . ويعتبر هذا العمل شيئ جديدا علي نظام العملة الهندية ، إذ كان الحكام المسلمون قبل ذلك يضربون نقودا معدنية صغيرة علي غرار النقود الوطنية ، تنقش عليها أشكال مألوفة لدي الهنود كثور سيفا [(1)] مثلا ، كما كانت أسماء الفاتحين تكتب بحروف هندية في غالب الأحيان . فالتتمش يعتبر أول من ضرب نقودا فضية عربية خالصة فى الهند .

وتوفي السلطان التتمش سنة ١٢٣٦م (٦٣٤هـ) ولم تكن هناك شخصية قوية صالحة للملك من بعده سوي شخصية ابنته رضية الدين . كانت هذه السلطانة علي حظ كبير من الذكاء ، حفظت القرآن الكريم، وألمت بالكثير من التعاليم الاسلامية ، ولهذا فضلها أبوها علي أخوتها الذكور لانغماسهم فى الملذات ونادي بها ولية لعهده . ولما آلت اليها السلطنة ، دلت علي مقدرة عظيمة وعقل وافر وسماها مؤرخو الهند باسم « ملكة دوران بلقيس جهان » ، أي فتنة العالم [(2)] .

جلست رضية الدين علي عرش دلهى أربع سنوات تقريبا (٦٣٤ - ٦٣٨ هـ = ١٢٣٦ - ١٢٤٠ م) وقد بذلت جهدها لتظهر بمظهر الرجال ، فارتدت أزياءهم ، وخرجت أمام الناس سافرة تقود جيشها علي ظهر فيلها . وعلي الرغم من الجهود العظيمة التي بذلتها هذه الملكة فى ادارة شئون الدولة ، فقد اصطدمت فى النهاية بمجلس امراء المماليك أو جماعة الأربعين ، الذين كانوا قد استأثروا بالنفوذ والثروة خصوصا بعد

---

(١) سيفا Siva اسم اله الهندوس وينسبون اليه أعمال الخراب والتدمير

(٢) أنظر Blochet: Histoire des Sultans Malouks Mmlouks vol. I. p. 375

موت التتمش وتقاسموا المملكة ووظائفها فيما بينهم بعد أن قضوا على جميع الأحرار فى مختلف الوظائف .

وأنف هؤلاء المماليك من رؤية امرأة على العرش ولا سيما بعد أن قربت اليها رجلا فارسيا يدعي جمالد الدين ياقوت ويشغل وظيفة قائد الفرسان ، فقاموا بثورة حاولت السلطانة رضية الدين قمعها بشجاعة ولكنها هزمت وانتهى الأمر بقتلها فى ١٣ أكتوبر سنة ١٢٤٠م [(١)] .

وفى هذا الوقت ظهر المغول فى اقليم السند من جديد ، واستولوا على مدينة لاهور فى ديسمبر سنة ١٢٣١م وذبحوا سكانها ، وفر حاكمها قراقوش إلى دلهى ، فأصبح الموقف يستدعى ظهور شخصية قوية تقبض على زمام الحكم بيد من حديد ، وهذا مما ساعد على ظهور الأمير بلبان أو بلبن أحد مماليك التتمش ، فاعتلى عرش السلطنة بعد أن تخلص من السلطان القائم فيها من أبناء سيده وتلقب بغياث الدين .

وتضيف الروايات المعاصرة أن بلبان كان ينحدر من أصل عريق ، وأن تحمسه للجهاد ضد المغول هو الذى جعله يرحل من تركستان منذ حداثته تاركا أهله وأصحابه . ثم حدث أن سرق وبيع في الهند ، فاشتراه السلطان التتمش . وتزيد الرواية أن السلطان المذكور رفض شراء بلبان فى بادىء الأمر لدمامته وقصر قامته ، فصاح بلبان : « ياخوند عالم » (أي يا سيد العالم) « لمن تشتري هؤلاء المماليك الآخرين ؟ فأجابه السلطان ضاحكا « اشتهريهم لنفسى» فرد عليه بلبان : « اذا فأشترنى لله

---

(١) راجع : Wolseley Haig : Cambridge History of India III p. 60.

ويلاحظ أن موقف هذه السلطانة يشبه تماما موقف السلطانة شجر الدر التي حكمت مصربعدها بعشر سنوات سنة ١٢٥٠م والتي أثار حكمها استياء الرأي العام الاسلامى ، وانتهى أمرها بالقتل أيضا، راجع : (المقريزى السلوك جـ ١ص ٣٦٨)

عز وجل ، فأجابة السلطان الى طلبة ثم سرعان ما ظهرت مواهبة فصار يتدرج فى الرقى حتى أندمج فى جماعة الأربعين مملوكا[1] .

اشتهر بلبان بشخصية عسكرية صارمة عادلة وأول عمل اهتم به هو الحد من طغيان جماعة المماليك الأربعين ، فأعمل فيهم سياسة العنف والتفرقة حتى قضى على نفوذهم وسطوتهم . كذلك ضرب على أيدى المجرمين وقطاع الطرق الذين انتهزوا فرصة الأضطرابات الأخيرة وانبثوا فى المسالك والطرقات بين دلهى والبنغال (بنجلادش) بعيثون فسادا وتخريبا فأزال بلبان الغابات التى كانت وكرا لتلك العصابات وشيد مكانها القلاع وأبراج المراقبة وبذلك استتب الأمن وعاد الأتصال بين دلهى والبنغال لفترة طويلة من الزمان .

كذلك عنى بلبان باقامة ادارة للمخابرات فى جميع المدن المختلفة ويشرف عليها مخبرون من قبله يعرفون بأصحاب الأخبار أو ملوك البريد .

وكان تعيين هؤلاء الاشخاص يتم تحت إشراف السلطان نفسة وبناء على اختيارة الشخصى وذلك نظرا لأهمية الأعمال التى يقومون بها فى كافة أرجاء الدولة اذ عن طريق تقاريرهم كان السلطان يلم بأحوال كل مدينة وسياسة أولى الأمر فيها ولهذا السبب حرص بلبان على جعل سلطتهم مستقلة عن سلطة الولاة المحليين وخاضعة لسلطانه المباشر ويروى المؤرخون كيف أن بلبان أمر باعدام أحد هؤلاء المخبرين لأنه تستر على

---

(١) ابن بطوطه : رحلته المعروفة بتحفة النظار جـ ٢ ص ٢٣ .

حادث هام وقع فى المدينة المكلف بأخبارها دون أن يخطره بذلك [1] .

وتجلت مواهب بلبان فى انتصاره على قوات المغول التى اقتحمت اقليم السند عام ٦٧٨هـ (١٢٧٩م) فاستحق بذلك لقب « الغ خان» أى الأمير القوى وترجع انتصارات بلبان على المغول الى الاستعدادات العظيمة التى قام بها السلطان لدفع ذلك الخطر الداهم أذ أعد مخازن هائله للطعام بحيث يبقى الزرع بها مدة طويلة دون أن يفسد ، ويقول ابن بطوطه فى هذا الصدد : وقد شاهدت الأرز يخرج من بعض تلك المخازن ولونه قد اسود ولكن طعمه طيب وكل ذلك من اختزا ن السلطان بلبن منذ تسعين سنه » هذا وقد اهتم بلبان بتحصين الثغور الهندية وتجنيد قبائلها تحت قيادة ابن عمه شيرخان سنقر كما أعد جيشا قويا سريعا لصد أى هجوم خاطف يقوم به المغول فجأة ـ وذلك على حد قوله ـ حتى لا تتعرض مدينة دلهى لمصير بغداد التعس [2] .

وفقد بلبان ابنه الأكبر الشهيد محمد خان فى واقعة ضد المغول فى اقليم الملتان ،ذلك فى ٩ مارس سنه ١٢٨٥م(٦٨٤هـ) فحزن عليه حزنا شديدا ومات بعده بسنتين [3] .

---

(١) راجع (Walseley Haig: Dp. cit. III p. 74. (
وكذلك (رحلة ابن بطوطة جـ ٢ ص ٢ - ٣) حيث يتكلم ابن بطوطة عن مهمة اصحاب الأخبار خصوصا إذا قدم غريب على الهند « وإذا كتب المخبرون إلى السلطان بخبر من يصل إلى بلاده . . عرفوه أنه ورد رجل صورته كذا ولباسه كذا وكتبوا عدد أصحابه وغلمانه وخدامه ودوابه وترتيب حاله في حركته وسكونه وجميع تصرفاته لا يغادرون من ذلك كله شيئا » ويضيف ابن بطوطة في نفس المعنى (ص ٩) « وفي مدينة ملتان قدم علينا ملك البريد واسمه دهنان وهو سمرقندى الأصل وهو الذى يكتب للسلطان بأخبار تلك المدينة وما حدث بها ومن يصل إليها » .

(٢) راجع : Wolseley Haig: Op. cit. III p. 76

(٣) راجع : Wolseley Haig: Op. cit. III p. 82

يعتبر السلطان بلبان من أولئك الاشخاص الذين لا يتركون وراءهم خلفاء أقوياء ، إذ أن صرامته وقسوته حالت دون ظهور شخصيات قوية بعده، فقد قضى على جماعة المماليك الأربعين ونفى كثيرا من ذوى النفود والجاه من الحكام أو العلماء (نذكر منهم شاعره أمير خسرو) . وكانت كل آماله مركزة فى شخص ابنه الاكبر الذى مات فى عهده . ولهذا اضطربت شئون المملكة بعد مماته مما أتاح الفرصة لقيام أسرة جديدة هى أسرة الخالجية [١] التى استولت على عرش دلهى سنة ١٢٩٠م (٦٨٩هـ) تحت زعامة جلال الدين فيروز شاه ، وبذلك تنتهى دولة المماليك الاتراك فى الهند .

الصقالبة في الغرب الاسلامي :

لم يقتصر التوسع فى استخدام المماليك على الدول التى قامت فى الجزء الشرقي من الدولة العباسية ، بل تعداده إلى جميع الدول الاسلامية الأخري بما فى ذلك المغرب والأندلس . وإذا كثرت أنواع المماليك الأتراك على عهد الصفاريين والسامانيين والغزنويين والغوريين بالمشرق ، فقد أضاف الأمويون بالأندلس نوعا جديدا من المماليك وهم الصقالبة الذين كان طريقهم الرئيسى يبتدىء من شرق المانيا إلى ايطاليا وفرنسا ومنها إلى اسبانيا الاسلامية أو الاندلس عن طريق نهر الرون وقطالونيا حتى ثغر بجانة Pechina على الساحل الشرقى الاسبانى بجوار المرية .

وكلمة صقلب Esclave فرنسية قديمة ومعناها عبد أو رقيق وهى التسمية التي أطلقها الجغرافيون العرب في العصور الوسطى على الشعوب

---

(١) أسرة أخلجية نسبة إلى بلدة خالج بأفغانستان وقيل أنها تركية الأصل ثم نزحت إلى أفغانستان حيث أخذت عن أهلها عاداتهم وطرقهم .

السلافية عامة ، لأن بعض الجرمان دأبوا على سبى تلك الشعوب السلافية وبيع رجالها ونسائها إلى عرب اسبانيا ، ولذا أطلق العرب عليهم اسم الصقالبة . ثم توسع العرب فى استعمال هذا الاسم فاطلقوه على أرقائهم الذين جلبوهم من أية أمة مسيحية . يذكر الرحالة ابن حوقل الذى زار اسبانيا فى القرن الرابع الهجرى أن الصقالبة كانوا يجلبون أيضا من ساحل البحر الأسود ومن لمباردیا وكلابريا فى ايطاليا ، ومن قطالونيا وجليقية (غاليسيا) في شمال اسبانيا ، وذلك فيما يبدو نتيجة لغارات القراصنة من المغاربة والأندلسيين على الشواطئ الأوربية للبحر المتوسط .

وجاء أغلب الصقالبة أطفالا إلى الأندلس حيث ربوا تربية اسلامية ودربوا على أعمال القصر والحرس والجيش واستطاع عدد كبير منهم أن يحتل مكانة عالية في المجتمع القرطبى ، فصار منهم الأدباء والشعراء وأصحاب المكتبات الكبيرة ، كما استطاع بعضهم أن يصل إلى مناصب الرئاسة في الدولة .

هذا ومن المعروف أن الأمويين في الأندلس استخدموا مماليكهم من الصقالبة فى الادارة والجيش للحد من نفوذ الاستقراطية العربية فى الحكم وأضعاف سيطرة الجند من العرب والبربر ، ومثال ذلك تقليد عبد الرحمن الناصر لمملوكة « نجدة » الصقلبى قيادة الحملة الموجهة ضد راميرو الثانى ملك ليون وحلفائه أصحاب مملكة نبرة ، وهى الحملة التي انتهت بهزيمة المسلمين فى وقعة شمنقة Simancas عام ٣٢٧هـ / ٩٣٩م . ويقال إن سبب تلك الهزيمة هو تغير نفوس العرب لتقديم الصقالبة عليهم إذ أقسموا أن يتركوا الصقالبة وحدهم عند نشوب المعركة فأدى ذلك إلى الهزيمة وقتل القائد نجدة الصقلبى ، وفرار عبد الرحمن الثالث بأقل من خمسين فارساً بعد أن نجا بأعجوبة .

وفى عهد الخليفة الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الثالث ، قام الصقالبة بدور مشابه لدورهم على عهد والده من حيث النفوذ والعظمة . وعند وفاته ظن الصقالبة أنهم أصبحوا سادة الموقف . يذكر ابن عذارى أن جيش قرطبة كان معظمه من الصقالبة وأن قيادته كانت فى يد اثنين من كبار الصقالبة وهما فائق وجؤذر الحكمى (نسبه إلى الحكم المستنصر) . وقد حاول فائق وجؤذر اخفاء خبر موت الحكم الثانى ليحولا دون المناداة بوريثه للملك، هشام ، لأنه طفل صغير ، وحاولا ترشيح شاب كامل الرجولة اسمه المغيرة من أحفاد عبد الرحمن الثالث ولكنهما وجدا من يقاومهما فى أشخاص الوزراء أمثال جعفر المصحفى ، والمنصور بن أبى عامر . وقد استطاع هذا الأخير أن يدبر اغتيال المغيرة مرشح الحزب الصقلبى ، وبذلك خلا الجو لهشام بن الحكم المستنصر الذى لقب بهشام المؤيد . واستطاع المنصور بن أبى عامر بعد ذلك أن يشتت شمل هؤلاء الصقالبة من القصر الخلافى وأن يولى صقالبة غيرهم من مماليكه عرفوا باسم المماليك أو الفتيان العامرية . وقد وصف ابن بسام فى كتابه الذخيرة أحد هؤلاء الفتيان وصفا طريفا بقوله « وكان لابن أبى عامر فتى يسمى فاتنا أوحد لا نظير له فى علم كلام العرب وكل ما يتعلق بالأدب ، ناظر صاعد اللغوى بين يديه فظهر عليه وبكته حتى أسكته فازداد المنصور به عجبا » . ويصف ابن الأبار أن أحد الصقالبة واسمه حبيب الصقلبى ألف زمن الخليفة هشام المؤيد كتابا تعصب فيه لقومه وعنوانه « الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة » . وهذا الكتاب مفقود للأسف وقد ذكر ابن بسام فى ذخيرته أنه أطلع على هذا الكتاب وأنه يحتوى على جملة من أشعار الصقالبة ونوادر أخبارهم .

وإلى جانب هذا الامتياز الأدبى اختص الصقالبة بألوان من الألحان والرقصات التى نسبت اليهم فقيل اللحن الصقلبى ورقص الصقالبة . وقد اعطانا المؤرخ المعاصر أبو بكر الطرطوشى وصفا جميلا لهذه الرقصات يذكرنا بالرقص الاسبانى فى وقتنا الحاضر إذ يقول : « ثم جعلوا لكل لحن منها اسما مخترعا ، فقالوا اللحن الصقلبى . فاذا قرأوا قوله تعالى ﴿ وإذا قيل أن وعد الله حق ﴾ ، يرقصون فى هذه الآية كرقص الصقالبة بأرجلها وفيها الخلاخيل (أو الجلاجيل) ويصفقون بأيديهم على ايقاع الأرجل ، ويرخفون الأصوات بما يشبه تصفيق الأيدى ورقص الأرجل ، كل ذلك على نغمات متوازنة » (١).

على أن هذا الامتياز الأدبى والفنى لم يمنع من أن الصقالبة أثناء احتضار الخلافة الأموية بالأندلس لعبوا دورا سيئا بوجه عام فشاركوا فى المؤامرات التى قامت فى قرطبة وسائر البلاد ، فأحيانا نراهم منتصرين وأحيانا أخرى منهزمين ولكنهم كانوا يظهرون روح الأقدام والطموح والاستبداد وتزعمهم خيران العامرى رئيس حزب الصقالبة فى العاصمة قرطبة ومن هذا الحزب تكونت الدويلات الصقلبية فى شرق الأندلس : فى طرطوشة ، وألمرية ، ومرسية ، ودانية ، وبلنسية فى عصر ملوك الطوائف فى القرن الخامس الهجرى (١١م) .

وكانت هذه الدويلات تجمعها رابطة تحالف وتسمى بالدولة العامرية الصقلبية لأن أصحابها من مماليك العامريين أى المنصور ابن أبى عامر وأبنائه . وقد أمتد سلطان هؤلاء الصقالبة على الشاطئ الشرقى الأندلسى الممتد من نهر ابرو شمالا حتى ثغر ألمرية جنوبا والجزائر الشرقية (البليار) شرقا .

---

(١) أبوبكر الطرطوشى : كتاب الحوادث والبدع ص ٧٨ (تونس ١٩٥٩)

ومن أشهر هؤلاء الصقالبة صاحب مدينة دانية مجاهد العامرى الصقلبى الذى استطاع أن يستولى على جزر البليار وعلى جزيرة سردانية التى اتخذها رأس جسر ليهاجم منها الأماكن التى تليها وهى السواحل الايطالية . وقد استطاع غزو مدينة لونى وأتخذها قاعدة حربية لمهاجمة ما حولها من المناطق الساحلية الايطالية . وتقع هذه المدينة بين بيزا وجنوة وقد امتازت بمركزها التجارى الهام فى هذه المنطقة . وهكذا استطاع مجاهد العامرى أن يسيطر على القسم الغربى من حوض البحر المتوسط وأن يستعيد نفوذ الأندلسيين فى هذه المناطق .

على أن استخدام الصقالبة لم يقتصر على الأندلس بل انتقل إلى المغرب العربى حيث شاع استخدامهم بين ملوكه وحكامه منذ القرن الثالث حتى القرن الخامس الهجرى . وكانت الأندلس بحكم الجوار مركزا لانتقال هذا الرقيق إلى دول المغرب الأقصى بصفة خاصة ، بينما كانت جزيرة صقلية الاسلامية مركزا لانتشاره فى دول المغرب الأدنى .

وحينما يحدثنا البكرى عن مملكة نكور أو دولة بنى صالح التى قامت بمنطقة الريف فى الشمال للمغرب الأقصى [1] ، يشير إلى اعتماد هذه الدولة على المماليك الصقالبة ، وأنه قد بلغ من كثرتهم أن صارت

(١) نكور مدينة مندرسة فى شمال شرق المملكة المغربية وكان من أعمالها ثغر المزمة الذى حرفه الاسبان إلى الوثيماس Alhucemas ثم عربه المسلمون إلى الحسيمة الحالية التى تسمى أيضا سان خورخو San Jurjo وهى خاضعة للنفوذ الاسبانى . وكانت مملكة نكور دولة عربية سنية مالكية لعبت دورا كبيرا فى نشر الاسلام واللغة العربية بين برابر الريف من غمارة وصنهاجة ، كما أنها قاومت تيار الخوارج والشيعة ولقيت من وراء ذلك عناء كبيرا خفف من حدته تأييد الأمويين فى الأندلس لها . وعاشت هذه الدولة عصورا طويلة إلى أن اكتسحها المرابطون وخربوها سنة ٤٧٣ هـ فلم تعمر بعد .

لهم قلعة خاصة بجوار العاصمة تكور تعرف بقلعة الصقالبة أو قرية الصقالبة . وقد اشتد نفوذ هؤلاء الصقالبة فى عهد الملك الصالح بن سعيد لدرجة أنهم بعد وفاته (٢٦٢ هـ / ٨٧٥ م) حاولوا فرض مطالبهم على ولده سعيد بن صالح ، فدخلوا عليه يوما وسألوه العتق ، فقال لهم : « أنتم جندنا وعبيدنا ، وأنتم كالأحرار ، لاتدخلون فى المواريث ، ولا تجرى عليكم المقاسم ، فما طلبكم للعتق ؟ » فألحوا عليه فى ذلك ، فأبى ، فناله منهم جفاء وغلظة ، وقدموا أخاه عبيد الله ، وعمه الرضا المكنى بأبى على ، وزحفوا بهما إلى القصر ، فحاربهم سعيد من أعلى القصر بالفتيان والنساء حتى انهزموا ، وقامت عليهم العامة فأخرجوهم إلى قرية فوق المدينة تعرف بقرية الصقالبة ، فتحصنوا بها سبعة أيام ، ثم ظفر بهم سعيد بعد حرب شديدة [١] . وفى المغرب الأدنى اعتمد الأغالبة (١٨٤ - ٢٩٦ هـ = ٨٠٠ - ٩٠٩م) على الصقالبة كذلك ، خصوصا بعد أن غزوا جزيرة صقلية سنة ٢١٣هـ (٨٢٧م) بقيادة قاضى القيروان أسد بن الفرات ، وامتدت غارات أساطيلهم إلى سواحل دالماسيا ، وإلى كلابريا ولمبارديا فى جنوب ايطاليا .

ويبدو أن جزيرة صقلية قد صارت بعد ذلك محطة للسبى القادم من تلك البلاد إذ يشير ابن حوقل إلى حارة للصقالبة هناك ، ويصفها كمدينة عامرة بنواحى مدينة بلرم Palermo على الساحل الشمالى لجزيرة صقلية .[٢]

---

(١) البكرى : كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ٩٣ - ٩٤ .
(٢) راجع : ميشيل أمارى : المكتبة الصقلية ، ص ١٢٠ .

ولعل أبلغ دليل على كثرة استخدام الصقالبة فى الدولة الأغلبية ، ما رواه ابن الخطيب في وصف رحيل آخر ملوك الأغالبة زيادة الله الثالث إلى مصر عند سقوط دولته على يد الفاطميين ، يقول : « وأخذ فى رفع الأموال ونفيس الخلع ، واصطفاء الجوهر واختيار السلاح . . . ثم انتخب من عبيده الصقالبة ألف خادم ، وجعل على وسط كل واحد منهم ألف دينار »[1] .

ثم قامت الدولة الفاطمية على أنقاض دولة الأغالبة فى المغرب ، وورثت عنها أساطيلها وقواعدها البحرية سواء فى المغرب أو فى جزيرة صقلية ، كما سارت على نفس سياستها فى اتخاذ المماليك من الصقالبة وغيرهم إلى جانب اعتمادها على قوة أهل البلاد من المغاربة . وعلى هذا الأساس افترض المستشرق التشيكوسلوفاكى هربرك Herberk أن القائد الفاطمى المشهور جوهر الصقلى كان صقلبيا من سبايا سواحل دالماسيا وليس صقليا ، واستند فى ذلك إلى رواية ليون الافريقى (الحسن الوزان) وبعض الوثائق اللاتينية[2] . هذا إلى جانب أن صقلية كانت فى ذلك الوقت جزيرة اسلامية ، وأهلها أهل ذمة لا يخضعون للرق ، وأن كان من المرجح – أن صح قول هربرك – أن يكون جوهر قد استقر فى صقلية – بعد أسره – فترة من الوقت قبل ذهابه إلى المغرب ، ولهذا نسب إلى صقلية رغم كونه صقلبيا .

(١) ابن الخطيب : أعمال الاعلام – القسم الثالث الخاص – بالمغرب – ص ٤٣ نشر أحمد مختار العبادى وابراهيم الكتانى (الدار البيضاء ١٩٦٤) .

(٢) من محاضرة القاها عن « صقالبة الفاطميين » فى سنة ١٩٦١ بكلية الآداب بجامعة الرباط حيث كنت أعمل وقتئذ استاذا بها .

ومهما يكن من شيء ، فالأمر الذى لاشك فيه هو أن العنصر الصقلبى كان فى عداد العناصر المملوكية البارزة التى اعتمدت عليها الدولة الفاطمية [1] سواء خلال قيامها فى المغرب كما ذكرنا آنفا ، أو بعد انتقالها إلى مصر والشام ، كما هو مبين فى الباب التالى الخاص بمماليك مصر .

* * *

(١) من أمثلة اهتمام الفاطميين بالصقالبة أنه يؤثر عن الخليفة الفاطمى المعز لدين الله أنه كان يجيد لغتهم إلى جانب لغات أخرى .

الفصل الثانى

المماليك فى مصر

منذ الدولة الطولونية حتي بداية الدولة الأيوبية

(٢٤٥ - ٥٦٤ هـ = ٨٦٨ - ١١٩٣م)

توسعت مصر فى استخدام المماليك ، قبل قيام دولتهم بها بوقت طويل . ولعل المسئول الأول عن ذلك هو الخليفة المعتصم وامعانه فى الميل إلى استخدام الترك ، إذ يروى الكندى أن المعتصم كتب إلى واليه التركى على مصر واسمه كيدر أو نصر بن عبد الله يأمره باسقاط العرب من ديوان الجيش وقطع أعطياتهم منه [١] . فلما قطع كيدر الأعطيات خرج يحيى ابن الوزير الجروى فى جمع من لخم وجذام وقال : « هذا أمر لا نقوم فى أفضل منه لأنه منعنا حقنا وفيئنا » ، واجتمع اليه نحو من خمسمائة رجل ، فتوجه اليهم مظفر بن كيدر وحاربهم عند بحيرة تنيس ، وفرقهم بعد أن أسر يحيى بن الوزير ، ومنذئذ صار جند مصر وولاتها من المماليك الأتراك أو ذراريهم [٢] ، كما صار منهم جند الولايات الأخرى وولاتها ، ومن أولئك أحمد بن طولون .

مماليك الدولة الطولونية :

وكان طولون مملوكا تركيا ممن أرسلهم حاكم بخارى نوح بن أسد السامانى فى جملة من الرقيق والهدايا للخليفة المأمون وهو بمرو سنة

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١٩٣ .

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ص ١٥٢ .

٢٠٠هـ (٨١٥م) . وتدرج طولون فى حياة المماليك بالمجتمع العباسى حتى صار رئيس الحرس الخليفى ، وتمكن من تربية ابنه - أو متبناه - أحمد تربية عسكرية اسلامية أهلته لأن يصبح حاكما على مصر سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨م) [1] . وطبيعى أن يعتمد ابن طولون على المماليك من أبناء جنسه التركى فى ولايته ، غير أنه طمع إلى شيء من الاستقلال بمصر ، ولذا أهتم فيما أهتم بالجيش على وجه خاص [2] ، ولم يقنع هو وابنه خمارويه بعده بالمماليك الاتراك فحسب ، بل جعل بجيشه فرقا من العرب الأحرار ، فضلا عن فرق من الرقيق الأسود والديلم والروم ، ويجمع المؤرخون العرب على ضخامة ذلك الجيش إلى درجة اضطرت أحمد بن طولون إلى بناء ثكنات لهم وهى القطائع . والروايات العربية تقدر ذلك الجيش تقديرات لا تبدو بعيدة عن الحقيقة ، فالمقريزى يروى فى خططه أن ابن طولون استكثر من مشترى المماليك الأتراك حتى بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك ، وبلغ مشترى العبيد الزنج أربعين ألفا ، كما أنه استكثر من العرب حتى بلغت عدتهم سبعة آلاف حر مرتزق .[3]
أما ابن اياس فانه يقتبس من ابن واصف شاه ويقول بأن مماليك ابن طولون من الديالمة فقط بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك .[4]

---

(١) الواقع أن بعض الولاة فى مصر وفى غيرها كانوا من العرب فى تلك المرحلة التركية من التاريخ الاسلامى مثل عنبسة بن اسحاق وهو آخر من ولى مصر من العرب سنة ٢٤٢ هـ سنة ٨٥٦ م فى عهد الخليفة المتوكل . ومن بعده صارت مصر اقطاعا لطائفة من الولاة الاتراك تعاقبوا عليها دون أن يذهبوا اليها فى كثير من الأحيان ، ومن هذه الاحيان كان مجيء أحمد بن طولون ليتولى مصر بالنيابة عن بايكباك . راجع (الكندى : ص ٢٠٢ ، البلوى : سيرة أحمد بن طولون ص ٣٣ - ٤٣) .

(٢) أنظر : Zaki Hasan : Les Tulunides p. 165.

(٣) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ص ١٥٢ .

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ٣٧ والديلم القسم الجبلى من جيلان شمالى بحر قزوين

غير أنه يجب أن يكون واضحا أن كثيرا ممن دخل الجيوش الطولونية رقيقا ، قد تحرر فيما بعد ، وذلك ينطبق على الجند والقادة سواء ، إذ المعروف أن ابن طولون أعتق أعدادا كبيرة من جنده لينشىء منهم جيشا ممتازا . ولذا يرجح أنه لم يوجد فى الجيش الطولونى مماليك كثيرون فى أواخر أيام ابن طولون ، وأن عملية التحرر ظلت القاعدة فى أيام أسرته.[1]

مماليك الاخشيديين :

وسارت الدولة الاخشيدية على سنة أسلافها الطولونيين فى أتخاذ المماليك الاتراك حتى انه يقال إن مماليك محمد الأخشيد بلغ عددهم ثمانية ألاف مملوك .[2] ويبدو أن الجيش الاخشيدى اشتمل أيضا على عدد كبير من العبيد السود بدليل حلول أحدهم وهو كافور محل الاخشيد فى حكم مصر .

ثم انتهت الدولة الاخشيدية بقيام الدولة الفاطمية فى مصر (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ = ٩٦٨ - ١١٧١م) .

مماليك الدولة الفاطمية :

واذا كثرت أنواع المماليك على عهد الطولونيين والأخشيدين ، فقد أضاف الفاطميون بمصر عنصرا جديدا جاءوا به من المغرب وهو الصقالبة . ويبدو أن الخلافة الفاطمية أكثرت من المماليك الاتراك والصقالبة منذ قيام المعز أول الخلفاء فى مصر بدليل أختيار العزيز وهو الخليفة الثانى لكثير من هؤلاء وأولئك لمناصب الثقة والقيادة والولاية لأن

(١) راجع : Zaki Hasan: Les Tulunides p. 168.

(٢) أبو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى محاسن مصر والقاهرة ، جـ ٣ ص ٢٥٦ .

وصولهم الى تلك المناصب معناه أن العزيز الفاهم قوة فى الدولة بحيث صارت المناصب العليا لديهم أهدافا مشروعة . فولى مملوكه بنجوتكين التركى قيادة الجيش كما ولاه الشام ، وولى دنيا الصقلبى عكا ،وبشارة الاخشيدى طبرية ، ورباحا السيفى غزة، وبرجوان الصقلبى امارة القصر . وليس أدل على اكثار الفاطميين من الصقالبة من تسمية أحدد الشوارع الفاطمية فى القاهرة باسمهم ، وهو الشارع الذى امتد بين حارة زويلة وخان أبو طاقية . ولقد أثار تفضيل الفاطمين للترك والصقالبة عوامل الحسد والنضال بينهم وبين المغاربة ، ويظهر ذلك جليا أثناء عهد الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١هـ = ٩٩٦ - ١٠٣٠م) الذى استكثر من العبيد السود (السودان) للحد من نفوذ الفريقين . ثم قوى نفوذ الترك مرة أخرى فى عهد الخليفة الظاهربن الحاكم لميله الى الاتراك والمشارقة ، فصارت قيادة الجيوش فى يد أبى منصور أنوشتكين ، وهو مملوك تركى الأصل يعرف بالدزبرى [١] ، وقد ولاه الظاهر فيما بعد دمشق سنة ٤١٩هـ (١٠٢٨ م) ثم جاء الخليفة المستنصر الفاطمى فمال الى عنصر العبيد السود واستكثر من شرائهم لأن أمه كانت أمة سوداء ، وظل هذا العنصر منبع القوة فى الدولة الى آخر عهد الدولة الفاطمية .

ومن الأدلة التى تبرهن استنتاجا على كثرة المماليك من الأتراك والصقالبة والسود فى الدولة الفاطمية اهتمام الداعى « ثقة الامام علم الاسلام » بشأنهم فى احدى محاضراته التى القاها فى مجالس الحكمة ،

(١) نسبة الى قائد ديلمى يدعى تزبر بن أرنيم الذى اشتراه بدمشق سنة ٤٠٠ هـ .
راجع : (ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٤ ، ص ٢٥٢).

وافراده ، للكلام عنهم عبارة طويلة فى سياق محاضراته ، ونص هذه العبارة : « انتهينا فيما شرطنا ذكره من سنن الدين الى ذكرما أمربه من الرفق بالمماليك الذين كلفهم الله خدمتكم ووقاكم بكفايتهمم ، لأنهم بشر لم ينحتوا من الحجر ، ولم يخلقوا من الشجر . فللمملوك على مالكه سبع خصال وهى أن يقوم بكفايته من المطعم والمشرب وسترجيده من الملبس، وأن لا يحمله فوق طاقته ، ولا يكلفه من العمل أكثر من استطاعته ، ولا يضربه الا تأديبا ولا تعديا، ولا يلزمه ما لايحل ، ولا يمنعه من الصلاة فى أوقاتها . ويجب على المملوك لمالكه اثنتى عشرة خصلة وهى : أن يعتقد نصيحته ، ويظهر له شفقته ، ويحفظ ماله ، ويصون حريمه، ويؤدى له الأمانة ولايغشة ، ولايخونه ، ولايدخرعنه نفسه ، ولايكتمه صنعة يحسنها ، ويطيعه ولا يخالفه ، ولا يتصرف فى شئ من أمواله الا بأمره ، قال الله تعالى « وضرب الله مثلا عبدا مملوكا لايقدر على شئ ، ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو يشفق منه سراً وجهراً هل يستوون » . [1]

واهتم الفاطميون بتربية صغار مماليكهم ، وهم فى الواقع أول من وضع نظاما تربويا للمماليك فى مصر . فيروى المقريزى أن الاساطيل الفاطمية حملت إلى مصر كثيرا من أسرى الحروب ، وجرت العادة أن يحضر أولئك الاسرى إلى مكان يسمى المناخ [2] (جهة الاسماعلية

---

(١) المجلس المستنصرية ، المجلس الثانى والعشرون ، ص ١٠١ - ١٠٢ ، نشر وتحقيق الدكتور كامل حسين - سلسلة المخطوطات الفاطمية .

(٢) المناخ المكان الذى تناخ به الجمال ، وأطلق الفاطميون هذا الاسم على عدة من المخابز والمطاحن والمخازن المدنية ، والعسكرية التابعة للدولة . وأغلب الصناع فى هذه ، الأمكنة من أسرى الحرب من الفرنج وكانوا يقطنون بها . راجع (المقريزى : الخطط ، جـ ١ ص ٤٤٤) .

بالقاهرة اليوم) ، فتضاف الرجال إلى من فيه من الأسرى السابقين ، ويمضى بالنساء والأطفال إلى قصر الخليفة بعدما يعطى الوزير منهم طائفة ، ويفرق الباقى لخدمة المنازل ، ثم يدفع الصغار من الأسرى إلى الأستاذين ، فيربونهم ويعلمونهم الكتابة والرماية ويسمونهم « الترابى» وقد يرتقى أولئك الصبيان إلى رتب الأمراء .

وظلت تلك الطائفة موجودة أيام الدولتين الأيوبية والمملوكية ، ويلاحظ أن أصلها أشبه ما يكون بأصل بعض الانكشارية [1] فى الدولة العثمانية ، غير أن الترابى لم تلعب فى حوادث دول الفاطميين والأيوبين والمماليك بمصر دورا ظاهرا مثل الذى قامت به الانكشارية فى الدولة العثمانية ، لأنها لم تخصص مثل الانكشارية للحياة الحربية وميادين القتال بل ظلت طائفة حول البلاط يكون منهم الغلمان وخدام القصر .

وهناك « نظام تربوى آخر وضعه الفاطميون لتربية غلماتهم المعروفين بالصبيان الحجرية وهم فرقة من الشبان الذين سموا بهذا الأسم لأنهم عاشوا فى ثكنات تعرف بالحجر وموقعها بجوار القصر الخليفى بالقاهرة .وجاء ذكر تلك الطائفة فى دائرة المعارف الاسلامية على أنها طائفة من المماليك كونها الأفضل شاهنشاه [2]وزير

---

(١) الانكشارى Janissaries لفظ حوره الأوربيون من ينى تشرى Yeni Cheri أى الفرقة الجديدة فى اللغة التركية .وكان جنود هذه الفرقة يؤخذون أطفالا من العناصر المسيحية الخاضعة للدولة العثمانية (ضريبة الدم) ثم يربون تربية عسكرية اسلامية فى مدارس خاصة فيتحولون إلى الرعية العثمانية المسلمة مع بقائهم رقيقا للسلطان وتعتبر هذه الفرقة من المشاة ، من مستحدثات الحرب فى ذلك العصر فى الشرق والغرب ، ويرجع الفضل فى أنشائهاإلى السلطان العثمانى أورخان الأول سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٦ م) راجع :
Lybyer : The Government of the Ottoman Empire p.91.

(٢) هو الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى وهو من أصل أرمنى، إذ كان والده مملوكا أرمنيا لجمال الدولة بن عمار فعرف بالجمالى ثم ظل يترقى إلى أن صار حاكما على الشام=

الخليفة المستعلى سنة ٤٨٧ هـ كفرقة عسكرية تحت قيادة أمير يحمل لقب « الموفق » لتكون حرسا له ، وبلغ عدد تلك الفرقة ٣٠٠٠ مملوك[1] غير أن المرجع الذى استمدت منه دائرة المعارف الإسلامية هذا الوصف ، يقول إن الحجرية كانوا « يختارون من أولاد الأجناد »[2]، وإذا سلمنا جدلا أن أولئك الأجناد من المماليك الاتراك والصقالبة أو غيرهم مما أمتلأت به جيوش الدولة الفاطمية ، فإنه لايمكن تطبيق تلك التسمية على أبنائهم ، فأولئك لم يكونوا مماليك فى يوم من الأيام ، اذ أن المملوك فى المصطلح الرسمى المملوكى لابد وأن يكون قد مسه الرق أى مسته يد النخاس. ولعل دائرة المعارف الإسلامية تأثرت فى وصفها للحجرية الفاطميين بتكوين طائفة الغلمان الحجرية الذين استخدمهم الخليفة العباسى المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ - ٩٠١م)فى بغداد ، فهؤلاء كانوا فعلا من المماليك الذين اختارهم الخليفة من بين غيرهم من المماليك الذين يحسنون الركوب والرمى ، ويقيمون أيضا فى الحجر تحت مراعاة الخدم والاستاذين .[3]

وكيفما كان الأمر فانه يتضح مما تقدم أن الدولة الفاطمية استخدمت المماليك من مختلف الأصناف والألون ، واستطاع عدد منهم أن يصل إلى مناصب الولاية والقيادة بغض النظر عن أصلهم أو جنسيتهم .

=وقد استنجد به الخليفة الفاطمى المستنصر بالله للقضاء على فتن طوائف الجند بمصر ، فأضاف بذلك عنصرا جديدا فى الجيش والدولة وهو العنصر الأرمينى . وقد خلف الأفضل أباه بدر الجمالى فى منصب الوزارة (المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٨١) .

(١) راجع : Ency of Islam art. Huggrah

(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٤٣ .

(٣) متز الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة د .أبوريده ، ص ٢٤٢ .

مماليك السلاجقة وقيام الدولة الأيوبية:

ثم انتهت الدولة الفاطمية بقيام الدولة الأيوبية على يد الناصر صلاح الدين سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١م) . والدوة الأيوبية كما هو معروف كردية الأصل ، ولكنها جاءت عن طربق الدولة السلجوقية التركية ومماليكها ، ونقلت عنها الكثير من عاداتها وأنظمتها التركية المشرقية ، وطبقتها فى مصر والشام لأول مرة . ولهذا فإنه لا يمكن فهم تاريخ الدولة الأيوبية فهما جيدا إلاعلى ضوء دراسة تاريخ السلاجقة وأنظمتهم العسكرية .

ولقد اعتمدت الدولة السلجوقية منذ نشأتها الأولى على المماليك من الترك ، وورث هؤلاء سياستها ومراميها . والقاعدة العامة المعروفة عن السلاجقة فى ضوء تاريخهم ، هى أنهم اعتقدوا أنه لايمكن للفرس والعرب أن يخلصوا فى خدمة ساداتهم الاتراك ، وأنه من الأفضل الاعتماد على وفاء المماليك الاتراك الذين ربوا ونشأوا فى البلاط على مقربة من سلاطين السلاجقة وأمرائهم ،وصار هؤلاء المماليك يجلبون و هم صغار السن من بلاد القفجاق [١] ، ثم يربون تربية خاصة على أساس النظام التربوى المملوكى السامانى الذى وصفه الوزير نظام الملك الطوسى وزير آل سلجوق فى كتابه سياسة نامة أرشادا للحكام السلجوقين[٢]. ويضيف نظام الملك فى ذلك الصدد أنه « يجب ألا يثقل

(١) بلاد القفجاق أو القبجاق أو القبشاق أقليم يحوض نهر الفولجا بالجنوب الشرقى من الروسيا الحالية وشمال البحر الأسود والقوقاز ، وأهلها من الترك . وكانوا أهل حل وترحال على عادة أهل البدو وفى ضيق من العيش ، وبلادهم فرضة عظيمة للتجار ورقيق الترك . واجع (القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٥٨) .

(٢) أنظر ما سبق أن قلناه فى هذا الصدد بالفصل الأول .

على المماليك القائمين على الخدمة إلا إذا دعت الحاجة ، ولا ينبغي أن يكونوا عرضة للسهام فى كل حين ، ويجب أن يتعلموا كيف يجتمعون على الفور مثلما ينتشرون على الفور إذا صدر بأحدهما الأمر . وكذلك يجب أن يقال لهم مرة أخرى كيف ينبغي للشئ أن يكون حتى ينتهجوا اليه سبيلا . ولا حاجة إلى التكلف كل يوم بإصدار الأمر بمباشرة الخدمة لمن يكون من الغلمان : صاحب الماءوصاحب السلاح ، والساقى وأشباه ذلك ، ولمن يكون من الغلمان فى خدمة كبير الحجاب وكبير الأمراء بل يجب أن يؤمروا بأن يبرز للخدمة فى كل يوم من كل دار عدد معين ومن الخواص عدد معين كذلك حتى لا يكون فى ذلك مشقة [1]. ويكمل عماد الدين الاصفهانى [2] الذى عاش بدمشق زمن الملك العادل نور الدين زنكى ، تصوير مماليك السلاجقة فى عبارة موجزة حيث يقول : « وكان للسلطان مماليك صغار كأنهم أقمار ، وكان عليهم من الخصيان الخواص رقباء وعلى طوائفهم من جنسهم نقباء » . [3]

وكان نظام الملك أشد الناس تمسكا بما جاء فى كتابه ، اذا حاطه جيش كبير من الماليك عرفوا بالمماليك النظامية نسبة لاسمه ، فقوى بهم نفوذه « إلى حد كبير [4]» ، حتى إن السلطان ملكشاه السلجوقى كتب اليه فى ذات مرة كتابا يقول فيه : « إنك استوليت على ملكى وقسمت ممالكى على أولادك وأصهارك ومماليكك ، كأنك شريك فى الملك ، أتريد

(١) راجع : Schefer : Siaset Nameh par Nizam el MulkP.138

(٢) ولد بأصبهان سنة ٥١٩ هـ وقدم بغداد وولى واسط والبصرة ثم انتقال الى دمشق أيام سلطانها الملك نور الدين زنكى ، وعرفه الامير نجم الدين أيوب وابنه صلاح الدين وتوفى بدمشق سنة ٥٩٧ هـ

(٣) الأصفهانى : دولة آل سلجوق ص ١١٣ .

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين جـ ١ ص ٢٦ .

أن آمر برفع دواة الوزارة من بين يديك ؟ » . فرد عليه الوزير نظام الملك : « كأنك عرفت اليوم انى مساهمك وفى الدولة مقاسمك ، فاعلم أن دواتى مقرونة بتاجك متى رفعتها رفع ، ومتى سلبتها سلب » . فكأنما نطق بما به القدر سبق ، فلم يكن بين مقتل الوزير (٤٨٥ هـ) ووفاة السلطان غير شهر واحد [١]. وزاد نفوذ المماليك النظامية بعد موت السلطان ملكشاه إلى درجة مكنت لهم من عزل ابنه محمود وتولية ابنه الأخر بركيا روق [٢] .

ويقال إن نظام الملك أول من اقطع الاقطاعات للمماليك الأتراك ، فبعد أن كان عطاء الجندى يدفع نقدا ، صار بعطى اقطاعا [٣]، لأن تسليم الأرض إلى المقطعين يضمن عمارتها ، وعناية مقطعيها بأمرها ، وفى ذلك ما يحفظ للدولة السلجوقية قوتها وثروتها . ولذا سار سلاطين السلاجقة على ذلك النظام ، فمنحوا القلاع والمدن والولايات اقطاعا للقادة من مماليكهم وهم الدين سموا الأتابكة ، وذلك مقابل الخدمات العسكرية التى يؤدونها لهم وقت الحرب والأتابك لفظ تركى معناه « الأب الأمير» [٤]ومعناه المربى لابن السلطان ، ثم أصبح لقبا تشريفيا يمنح لكبار القواد بمعنى قائد الجيوش أو أبو الجيش ونائب السلطنة [٥]. و الوزير نظام الملك أول من لقب بلقب أتابك ، وقد منحه إياه السلطان ملكشاه

---

(١) صدر الدين أبو الحسن : أخبار الدولة السلجوقية ، نشر محمد اقبال بجامعة البنجاب، ص٦٩

(٢) الأصفهانى : دولة آل سلجوق ، ص ٧٦ .

(٣) صدر ادين أبو الحسن : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ٦٨ ، الإصفهانى : دولة آل سلجوق، ص ٥٥

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٨ ، كرد على : خطط الشام ، جـ ١ ص ١٧١ .

(٥)أنظر : Ency of Islam art Ataleg

(٦) القلقشندى : صبحى الاعشى جـ ٤ ص ١٨ .

وعلى هذا الأساس صار معظم آراضى فارس والجزيرة والشام ، مقسما إلى اقطاعات عسكرية يحكمها مماليك السلاجقة بتفويض من السلطان . وهؤلاء جعلوا لأنفسهم جيوشا من المماليك فى مختلف الولايات ، حتى إذا دعت الحاجة إلى حضورهم للخدمة فى الحرب، جاء الوالى السلجوقى بماليكه وعدته وسلاحة للمشاركة فى القتال، وكانت الطريقة المتبعة فى استدعاء تلك الفرق العسكرية هى اطلاق أسهم من معسكر إلى معسكر ، أو من قرية إلى قرية ، اشارة إلى التجمع والاستعداد للحرب ، حتى إذا انتهت الحرب عاد الولاة ومماليكهم إلى اقطاعاتهم ، وصار ذلك عادة فى فصل الشتاء على أن يعودوا فى الربيع إذا تطلب الأمر . (١) .

وعلى الرغم من غلبة الطابع العسكرى على الدولة السلجوقية وولاتها من المماليك فإن ذلك لم يمنعهم من تذوق الفن والأدب وتشجيع العلم والعلماء وبناء المدارس ، وسادت تلك الروح الأدبية بين الولاة السلاجقة حتى بعد اضمحلال الدولة السلجوقية .

وهكذا نرى مما تقدم أن السلاجقة فى إيام قوتهم اتخذوا أشخاصا من كبار مماليكهم أطلق عليهم الإتابكة ليكونوا مربين لأولادهم القصر ، ومنحوهم الاقطاعات الكبيرة مقابل قيامهم على شئون هؤلاء الأبناء وتأديتهم الخدمة الحربية وقت الحرب . ولكن سرعان ما صار هؤلاء الأتابكة أصحاب النفوذ الفعلى فى تلك الاقطاعات ، وانتهزوا ضعف الدولة السلجوقية وتفككها واستقلوا بولاياتهم شيئا فشيئا حتى اقتسموا المملكة السلجوقية بينهم ما عدا الفرع الرومى فى أسيا الصغرى فإنه

---

(١) راجع Lane Poole : SaladinP . 15 - 21

ظل فى حوزة السلاجقة أنفسهم حتى أتى العثمانيون إلى تلك البلاد فى أواخر القرن السابع الهجرى (١٣م) .

والدول الإتابكية كثيرة العدد ، وبيوتها شتى لاتنتهى إلى نسب واحد ، إلا أنها يجمعها صفة المملوكية والاتصال بالبيت السلجوقى والنظام الاقطاعى الاسلامى ، ومن المماليك السلاجقة الذين حكموا وصاروا ملوكا ، بنو أرتق نسبة لجدهم أرتق التركمانى أحد مماليك ملكشاه الذين حكموا حصن كيفا (٤٩٥ - ٦٢٩ هـ = ١١٠١ -١٢٣١م)، وماردين (٥٠٢ - ٨١١ هـ = ١١٠٨ - ١٤٠٨ م) . ثم هناك أتابكة دمشق (٤٩٧ - ٥٤٩هـ = ١١٠٣ - ١١٥٤م) وأول ملوكها طغتكين وأصله مملوك للملك تتش ابن ألب أو سلان أول سلاجقة الشام ثم صار لولده دقاق ثم صار ملك دمشق لطغتكين واستمر فى عقبه ٥٢ سنة . ثم هناك شاهات خوارزم ٤٧٠٠ - ٦٢٨ هـ = ١٠٧٧ - ١٢٣١م) وينتسبون إلى أنوشتكين وهو مملوك تركى لأحد أمراء السلاحقة ، عينه السلطان ملكشاه حاكما على خوارزم (خيوة) ، ورسخت أقدام هذا البيت واتسعت أملاكه ، وعلى أيدى أتسز ، وتكش ، وعلاء الدين انقضت دولة السلاجقة بخراسان وما اليها من بلاد الرى والجبل وما وراء النهر ويروى ابو شامة أن علاء الدين كان يمتلك عشرة آلاف مملوك مثل الملوك . وقد انتهت هذه الامبراطوية الخوارزمية فى عهد جلال الدين خوارزمشاه على أيدى المغول سنه ٦٢٨هـ (١٢٣١م) ومن فلولها كانت بعض البذور التى نبتت منها الدولة المماليكية الأولى فى مصر .

ومن مشاهير الأتابكة فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى الأمير

عماد الدين زنكى مؤسس أتابكية الموصل والشام وديار ربيعة ومضر ، وهو ابن قسيم الدولة آق سنقر الحاجب الذى بدأ حياته مملوكا للسلطان ملكشاه وعن طريق زنكى وابنة نور الدين كان ظهور صلاح الدين الأيوبى الذى تأثر بالنظم السجوقية ، وإليه يرجع الفضل فى انتقال تلك النظم الى مصر حيث بقيت عدة قرون زمن الأيوبيين والمماليك .

ومن أمثلة هذه المؤثرات نذكر استخدام الجاليش فى مقدمة الجيش والجاليش عبارة عن خصلة من الشعر كانت ترفع فى أعلى الراية أمام الجيش ثم صارت تطلق على مقدمة الجيش أو طلائعة [(١)] .. فهذه العادة جاء بها السلاجقة من المشرق ثم أنتقلت الى مصر على يد الأيوبين ومن الطريف أنها أنتقلت كذلك الى بلاد اللمغرب والأندلس مع فرقة الغز التى قادها المملوك قراقوش التقوى [(٢)] أيام صلاح الدين فابن الخطيب حينما يصف هجوما قام به الجيش المغربى فى عهد الدولة المرينية يقول فزحفت راياتهم على شأن غز المشارقة من المزمار والطبل وحمل جمة الشعر فى أعلا سنان الراية [(٣)] .

كذلك جلب السلاجقة مع العادات الفارسية والتركية الأخرى نظما جديدة فى البلاط والمواكب الرسمية لم تستعمل من قبل أيام الأمويين والعباسيين والفاطميين . مثال ذلك حمل الغاشية بين يدى السلطان فى المناسبات المختلفة كشعار للسلطنة والغاشية سرج من أديم مخروزة بالذهب حتى يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب يحملها

---

(١) يقول ابو شامة فى هذا المعنى (الروضتين جـ٢ ص٧٧) وفى موقعة حطين سنه ٥٨٣هـ تقدمت الجاليشة تحرق بنيران النصال أهل النار .

(٢) نسبة الى الأمير الأيوبى تقى الدين عمر بن أخى صلاح الدين .

(٣) راجع (ابن الخطيب : نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب ص ٣٢٩ ، نشر مختار العبادى) .

ركاب الدار بين يدى السلطان ويلفتها يمينا وشمالا وقد أنتقلت هذه العادة الى مصر والشام على يد صلاح الدين وخلفائة وأستمرت بعد ذلك فى أيام سلاطين المماليك . ويروى أبو عمرو النابلسى فى كتابه « تاريخ الفيوم » [1] نادرة تدل على قيمة الغاشية كرمز ملكى ، فيقول أن شيخا مصريا اسمة شهاب الدين الطوسى أمر ركاب داره بأن يرفع الغاشية على أطراف أصابعة كما يصنع بين يدى الملوك . فلما تحدث اليه البعض فى ذلك قال : « أنا ملك العلماء كما أن الملوك ملوك الرعايا » [2] .

كذلك استحدث السلاجقة نظام المدارس ، وهى منشآت علمية سنية لمحاربة المذهب الاسماعيلى الشيعى وتهيئة العقول لفكرة الجهاد ضد الصليبين ، وسار على هذه السياسة نور الدين محمود زنكى فى الشام ثم صلاح الدين الأيوبى فى مصر للقضاء على الدعوة الفاطمية . على أنه يلاحظ فى هذا الصدد أن مدينة الاسكندرية عرفت نظام المدارس السنية فى أواخر أيام الفاطميين وقبل مجئ صلاح الدين فأول مدرسة أنشئت فيها هى المدرسة الحافظية التى اسسها رضوان بن ولخشى وزير الخليفة الحافظ الفاطمى سنه ٥٣٣هـ وأسند التدريس فيها الى الفقية المالكى ابى الطاهر ابن عوف الذى سبق أن قرأ المذهب المالكى على زوج خالته أبى بكر الطرطوشى [3] .

---

(١) عثمان ابراهيم النابلسى (ت٦٥٦هـ) : كتاب لمع القوانين المضية فى دواوين الديار المصرية نشر فى مجلة: (Bulletin des Etudes Orientales Xvl 1958) (Damass(1961 وقد الف هذا الكتاب برسم خزانة السلطان الصالح نجم الدين ايوب

(٢) عثمان النابلسى : المرجع السابق ، وكذلك Becker: Le Ghashiya Comme embleme de La Royaute (Centenario della nascita di Michele Amari (palermo 1910) .

(٣) راجع (السبكى طبقات الشافعية جـ ٤ س ٤٣ ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ١ ص٨٧ (طبعة محى الدين الدين عبد الحميد) جمال الدين الشيال : أعلام الأسكندرية ص١٢٩) .

وبعد عشر سنوات أى فى سنة ٥٤٤ بنى العادل بن السلاروزير الخليفة الظافر الفاطمى مدرسة سنية أخرى بالأسكندرية وأسند التدريس بها الى الفقيه الشافعى أبى الطاهر أحمد السلفى [(١)] . غير أن انتشار المذهب السنى فى ذلك الوقت كان فى حدود ضيقة وقاصرا على مدينة الاسكندرية دونا عن بقية المدن المصرية وذللك بحكم وضعها الجغرافى واتصالها الشديد بالمغرب السنى ولهذا فأنه يمكن القول بأن الأيوبين هم الذين اهتموا فى الواقع ببناء المدارس فى أنحاء مصر الشام .

كذلك سار الأيوبيون على سنة السلاجقة وأتابكتهم بالإكثار من المماليك الأتراك وأستخدامهم فى الجيش ، غير أنه يلاحظ أن الأيوبين كانوا أكرادا أحرارا لم يمسسهم رق وقد نفى صاحب مرآه الزمان القول بأن شادى جد صلاح الدين بدأ حياته مملوكا لبهروز الخادم الدى ولاه السلطان مسعود غياث الدين محمد بن ملكشاه السلجوقى شحنة العراق اذ قال : ما كان شادى مملوكا قط ولا جرى على أحد من بنى أيوب رق ، وأنما شادى خدم بهروز فاستنابه بقطعة تكريت (٢) .

بعض المؤرخين قالوا بأن صلاح الدين من أسرة عربية الأصل نزلت عند الأكراد وأنه من ولد شادى بن مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين الذى كانت أمه كردية وقد فند ابن خلكان هذا الرأى قائلا بأن أصحاب هذه الرواية أراد التقرب من الأيوبين بعد أن صار الملك فى ايديهم ويضيف بأنه لم يعثر على جد لهذه الأسرة الأيوبية بعد شادى وهناك شبه

(١) ابن خلكان : نفس المرجع جـ١ ص٨٧ . السبكى : المرجع السابق ، جـ٤ ص ٤٢ .

(٢) راجع (ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج جـ٦ ص ٣ - ٤) حيث ترد هذه العبارة نقلا عن مرآه الزمان لسبط بن الجوزى) .

اجماع على أن الأيوبين أكراد من أذربيجان من قرية فى شمالها تسمى دوين جهة أرمينيا وقد اتصل شادى جد صلاح الدين بحاكم العراق السلجوقى واسمة بهروز الخادم فى عهد السلطان مسعود بن ملكشاه فاستنابة بقلعة تكريت وهى بلدة كردية وسكانها من الأكراد .

وخلف شادى فى حكم قلعة تكريتابنه نجم الدين أيوب الذى أتاحت له الظروف أن يؤدى خدمة للأميرعماد الدين زنكى صاحب الموصل وحلب فعينة هذاالأمير حاكما من قبله على بعلبك بعد الأستيلاء عليها ويقال آنه فى نفس الليلة التى غادر فيها نجم الدين أيوب قلعة تكريت ، ولد له يوسف صلاح الدين الأيوبى سنه ٥٣٢ هـ (١١٣٨م) ومنذ ذلك الوقت ازتبط الأيوبيون بأسرة عماد الدين زنكى ارتباطا وثيقا لدرجة انه بعد وفاته (١١٤٦م) كان نجم الدين أيوب واخوه اسد الدين شيركوه [١] من أكبر امراء ولده الملك العادل نور الدين زنكى صاحب حلب ودمشق .

وحينما عزم نور الدين على ارسال حمله الى مصر لتطويق مملكة بيت المقدس الصليبية من الجنوب ـ بعد فشل الفاطميين فى مقاومتها ـ اختار لقيادة هذه الحملة القائد الأيوبى اسد الدين شيركوه الذى صحب معه ابن اخية صلاح الدين .

وشعر الصليبيون بخطورة هذه الحركة فبادروا بالتدخل فى شئون مصر واحباط هذه الخطة وهنا حدث تسابق نحو الديار المصرية بين الصليبين بقيادة عمورى Amalric ملك بيت المقدس ، وبين جيوش نور الدين بقيادة شيركوه ثم حدثت معارك بين الفريقين انتهت باتفاقهما

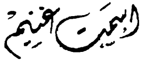
(١) كلمة شيركوه معناها أسد الغابة (المقريزى : السلوك جـ١ ق١ ص٤١ الحاشية) .

على الانسحاب سويا من مصر غير أن هذه الحملات لم تلبث أن عادت وتكررت من الجانبين ثلاث مرات ، وانتهى السباق بانتصار شيركوه وبقائه فى مصر كوزير للخليفة العاضد الفاطمى ، بينما أنسحب عمورى منهزما الى بيت المقدس .

وتجدر الاشارة هنا الى أن ذلك الجيش الذى قادة أسد الدين شيركوه الى مصر كان يتكون فى معظمة من المماليك والأمراء النورية[١] . مضافا اليهم فئة من المماليك الأسدية [٢] ، بلغت عدتهم عند وفاته الخمسمائة مملوك ولا حاجة هنا الى تكرار قصة تولية صلاح الدين الوزارة الفاطمية بعد عمه شيركوه ، وما كان للمماليك الأسدية من فضل فى ذلك سنة ٥٦٥هـ(١١٦٩م) .

ثم توفى الخليفة العاضد فى ١٠ المحرم سنه ٥٦٧هـ (١١٧١م) أى فى يوم عاشوراء وبموته زالت الدولة الفاطمية الشيعية فكانها انقضت فى اليوم الذى استشهد فيه الحسين .

الأستاذ الدكتور



---

(١) ، (٢) ابو شامه : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، جـ١ ، ص ١٥٥ ، ١٧٢ .

الفصل الثالث

الدولة الأيوبية ومماليكها

عصر صلاح الدين الأيوبي

(٥٦٤ - ٥٨٩هـ / ١١٦٩ - ١١٩٣م)

الاستعدادات التي قام بها لمحاربة الخطرالصليبي :

أخذ صلاح الدين يعمل على محو آثار الدولة الفاطمية بمختلف الوسائل الحربية والمدنية والثقافية ، فأزال جنود الفاطميين من العبيد السود والأرمن وغيرهم ، وأخذ فى تكوين جيش قوامة المماليك الأسدية القدماء ، وسائره من الأحرار الأكراد الذين دخلوا فى خدمته فضلا عن المماليك الأتراك الذين اشتراهم لنفسه وسماهم الصلاحية نسبة الى اسمة أو الناصرية نسبة الى اللقب (الناصر) الذى اضفاه عليه الخليفة الفاطمى حين ولاه الوزارة .

ومن الواضح والمعقول أن أولئك الصلاحية والأسدية صاروا الحرس الخاص لصلاح الدين كما صار العادلية الذين كونهم أخوه العادل فيما بعد بطانه خاصة لهذا الأمير الكبير .

وكان من حسن طالع صلاح الدين ان سيده الأعلى نور الدين محمود مات بعد ذلك بقليل (٥٦٩هـ/١١٧٤م) تاركا وراءه فى الحكم طفلا فى الحادية عشرة من عمره وهو الملك الصالح اسماعيل . كذلك مات فى نفس السنه عمورى ملك بيت المقدس تاركا وراءه ابنا عاجزا فى الحكم وهو بولدوين الأبرص (الرابع) وقد ترتب على ذلك أن دبت الانقسامات الداخلية فى كل من مملكتى نور الدين والصليبين .

ولقد كان فى مقدور صلاح الدين بفضل امكانياته الكثيرة فى مصر أن ينازل الصليبين مباشرة فى فلسطين ولكنة فضل أن يبدأ بتقوية جيوشه وأساطيله وتوحيد مملكة سيده نور الدين التى تفككت بين الأمراء الطامعين ولهذا قام صلاح الدين بسلسة من الأعمال والأستعدادات الحربية الداخلية التى نلخصها فى الخطوات التالية :

أولا : عمل على إحياء البحرية العربية كسلاح مضاد للعدوان الصليبى الذى أمتدت أخطارة وغاراته الى المدن الساحلية المصرية فأفرد للبحرية ديوانا خاصا للأنفاق عليها عرف باسم ديوان الاسطول وولى عليه سنه ٥٧٢هـ/١١٧٦م صديقا من أصدقائة لم تذكر المراجع عنه شيئا سوى أن صلاح الدين كتب الى جميع ولاة الأعمال المصرية والشامية بأمرهم بتنفيذ طلباته كلما وصلت اليهم من حيث جمع الرجال للخدمة فى الأسطول :« والقول قول صاحب الاسطول ، وأن لا يمنع من أخذ رجاله وما يحتاج اليه ». وفى سنه ٥٨٧هـ/١١٩١ عين صلاح الدين أخاه العادل رئيسا عاما لديوان الأسطول ثم عين العادل بدوره صفى الدين بن شاكر نائبا له فى ذلك الديوان ، ولقد تولى ديوان الاسطول الانفاق على دور الصناعات (الترسانات) المختلفة وأمدها بكل ما تحتاج اليه من أخشاب وآلات وقد خصص صلاح الدين لهذا الديوان أموالا ضخمة وهى متحصلات اقليم الفيوم ووادى النطرون وحراج السنط ومتحصل ديوان الزكاة وحصيلة بعض قرى البهنسا فى محافظة المنيا الحالية .

ثانيا : احتكر صلاح الدين حراج (غابات) اشجار السنط Acacia التى كانت تعرف بأسم الحراج السلطانية ، فمنع الناس من

التصرف فى أعوادها واعتبرها كأنها من المعادن ليس لأحد فيها ملك ولا اختصاص فهى لبيت المال وقد عملت بها أوراق مخلدة فى الديوان وشددت الحراسة عليها وعلى الرغم من أننا لا نستطيع تحديد مساحة هذه الحراج المصرية الا انه من المعروف أنها كانت توجد فى أماكن مبعثره فى جنوب الدلتا وصعيد مصر مثل الجيزة والأشمونين وأسيوط واخميم وقوص .

على أن صلاح الدين لم يكتف بالخشب المحلى فى مصر ، بل استعان أيضا فى بناء اسطوله بأخشاب الصنوبر التى تنبت فى جبال لبنان فضلاعن معدن الحديد الذى كان يستخرج من جبل بالقرب من بيروت كذلك عقد معاهدات تجارية لهذا الغرض مع الجمهوريات الايطالية حصل بمقتضاها على حاجتة من الحديد والخشب والشمع .

وكان يوجد بالاسكندرية ديوان اسمة المتجر السلطانى لشراء مختلف البضائع المستوردة من الخارج واللازمة للجيش والأسطول كالأخشاب والحديد والأقمشة الصوفية فكان المتجر السلطانى يشترى هذه المواد من التجار الأجانب بأموال الخمس المفروض عليهم .

ثالثاً : منع صلاح الدين الأهالى والتجار من التعامل مع البلاد المسيحية فى المواد الحربية وأصدر مرسوما فى هذا الصدد يقول فيه : « واقتضى مرسومنا الشريف أن لا يمكن أحد من نقل سلاح ولا عده حرب الى جهة البلاد الرومية . ومرسومنا للمقر الكريم أن يتقدم أمره العالى بأن لا يمكن من نقل سلاح ولاعدة الى جهة البلاد المذكورة والاحتراز على ذلك كل الاحتراز فيحيط علمه بذلك » .

رابعاً : اهتم صلاح الدين بتقوية أجهزة الدفاع والحراسة الساحلية كالرباطات والمحارس والمناور والمناظر الممتدة على طول سواحل مصر والشام

فحشد فيها الأجناد البطالين[1] والأيزاك [3] . والأبدال [2] ، والمنورين للمرابطة فيها وحراستها وقد أصدر مرسوما بهذا المعنى يقول فيه : إن مرسومنا الشريف اقتضى الاجتهاد فى حفظ السواحل والموانى والاهتمام بأمرها ، واقامة الايزاك والأبدال فى أوقاتها على العادة والزام أربابها بمواظبتها ، وكذلك المنورون بالديدبانات [4] والمناظر والمناور فى الأماكن المعروفة وتعهد أحوالها .

وكان على المنورين اذ ما كشفوا عدوا فى البحر مقبلا من بعيد أشعلوا النار على قمم المناور أو المنائر اذا كان الوقت ليلا ، أو أثاروا فيها الدخان ان كان الوقت نهارا هذا الى جانب استخدام الطبل والنفير لتحذير أهالى المدن المجاورة من غارة العدو وكثيرا ما استعمل المنورون اشارات نارية أو دخانية بطرق أو حركات معينة للأخبار عن حالة العدو أو عدده أو جنسيته أو غير ذلك وأن كانت المراجع للأسف لم تشرح لنا طريقة إرسال هذه الأشارات . وبهذه الطريقة التى تشبة صفارات الانذار فى وقتنا الحاضر كان من الممكن ابلاغ القاهرة عن وقوع غارة بحرية فى اقصى شمال الشام فى ليلة واحدة أو نهار واحد .

خامساً : وجه صلاح الدين عنايتة نحو حماية البحر الأحمر وتجارتة وحجاجه والأماكن المقدسة المطلة عليه من خطر المستعمر الصليبى الذى كان يحتل سواحل الشام وفلسطين واعتمد صلاح الدين فى تنفيذ تلك السياسة على اسطوله البحرى فعمل على تقوينه مستغلا فى بنائة

---

(١) البطالون من الأمراء والأجناد هم العاطلون من أعمال الدولة ووظائفها واقطاعاتها لأسباب ودوافع مختلفة .

(٢) الأيزاك: الحرس .

(٣) الأبدال : بمعنى البدل الذى يحل محل الحرس .

(٤) الديدبان : كلمة فارسية الأصل ومعناها المراقب أو الحارس .

أخشاب السنط التى كانت تنمو بكثرة فى وادى النيل وصحراء سيناء كما سبق أن ذكرنا وفى سنه ٥٦٦هـ/١١٧٠ استولى صلاح الدين على قلعة ايلة التى تقع على فوهة البحر الأحمر ومداخله وكانت هذه القلعة بأيدى الصليبين فهاجمها بأسطوله واستولى عليها وحصنها بالمجاهدين لأنها تقع فى ممر حجاج مصر . وبعد سنوات قليله من فتح أيله ، أرسل صلاح الدين حملة بقيادة أخية تورانشاه احتلت اليمن سنه ٥٦٦هـ/١٩٧٠ ثم بسط نفوذة على الحجاز وصار يدعى له على منابر مكة. ولا شك أن هذا التدخل المصرى فى البلاد المطلة على البحرالأحمر جنوبا وشمال كان الهدف من ورائه هو السيطرة على مداخل هذا البحر وحماية تجارتة وحجاجة من الخطر الصليبى المرابط فى سيناء وجنوب فلسطين .

سادساً : عمل صلاح الدين على تحصين الثغور المصرية المطلة على البحر الأبيض المتوسط مثل الاسكندرية ودمياط ورشيد فأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وحفر الخنادق حولها وحرص صلاح الدين على تفقد سير العمل فيها بنفسة فزار هذه الثغور عده مرات حتى تم العمل فيها .

سابعاً : حرص صلاح الدين على رفع أجور رجال الاسطول لتحسين حالهم ، فقرر بإن يكون دينار الأسطول $\frac{٣}{٤}$ الدينار العام بعد أن كان $\frac{٥}{٨}$ ذلك الدينار أى بزيادة عشرين فى المائة تقريبا كذلك استخدم الملاحين من المغاربة فى اساطيلة نظرا لاختصاصهم ومهارتهم فى هذا الجهاد البحرى وقد أشاد المؤرخون المعاصرون بشجاعتهم فى هذا الميدان زمن الأيوبيين والمماليك .

ثامناً : عمل صلاح الدين على بث روح الحرب والجهاد فى نفوس المسلمين وتهيئة عقولهم لهذا الواجب المقدس عن طريق المدارس العديدة التى أنشأها فى مصر والشام وقد حرص صلاح الدين على أن

يكون هو نفسه قدوة صالحة لهذا العمل فكان مجلسه لا يخلو من ذوى الفضل وأولى النباهة الذين كانوا يتجاذبون بحضرته أطراف الفوائد ولاسيما فضائل الجهاد وفرائض التأهب والاستعداد له وكان الرجل الذى يريد التقرب الى صلاح الدين يحثه على الجهاد أو يذكر له شيئا من أخبار الجهاد ولقد الف له كتب عديدة فى هذا الموضوع وكا وزراؤه وكتابه فى مقدمة الذين لبوا رغبته فيقول كاتبه العماد الاصفهانى : « وكنت قد جمعت له كتابا فى الجهاد بدمشق مدة مقامى فيها بجميع آدابه وأحكامه ، فقدمته بين يديه فأعجبه »، وكان يلازم مطالعته» وكذلك يقول وزيره القاضى الفاضل : « وأنا ممن جمع له فى الجهاد كتابا جمعت فيه آدابه وكل آية وردت فيه ، وكل حديث روى فيه وشرحت غريبها ، وكان رحمه الله كثيرا ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الأفضل » كذلك يذكر المؤرخ بهاء الدين بن شداد أنه الف أثناء مقامه بدمشق كتابا فى الجهاد وأحكامه و آدابه أعجب به صلاح الدين واحتفظ به عنده وكان هذا الكتاب من اسباب تعيينه كاتبا عنده وملازمته له حتى وفاته .

بعد هذه الاستعدادات الحربية الواسعة التى قام بها صلاح الدين والتى استغرقت سنوات طويلة من حكمة بدأ فى شن الهجوم على مراكز العدو لشل حركة امداداته ومواصلاته البحرية ففى البحر الأبيض المتوسط قام الاسطول المصرى فى الفترة التى بين سنتى (٥٧٥_٥٧٩هـ /١١٧٩ - ١١٨٣م) بعمليات ناجحة على مواقع العدو فى بيروت وعكا وجزيرة أرواد وكذلك على جزيرتى كريت وقبرص والسواحل الجنوبية لآسيا الصغرى . أما فى البحر الأحمر فيروى المؤرخون أنه فى سنه ٥٧٨هـ /١١٨٢م حاول الأمير الصليبى أرناط Renaud de Chatillon صاحب حصن الكرك (١) جنوبى فلسطين مهاجمة مكه والمدينة فبنى

---

(١) لعلها من الكلمة السريانية كرك Crac معناها الحصن ، لا تزال مدينة الكرك موجودة الى اليوم جنوبى البحرالميت فى شرق الأردن وتبعد عن عمان بحوالى ٢٥ كيلومترا وهناك رواية أخرى تفيد بأن الكرك أو القرق تعنى شجر الفلين باللاتينية Quercus

سفنا حربية حملها على جمال الأعراب المجاورين بكراء اتفق معهم عليه ، فلما بلغ ساحل البحر أكمل انشاءها ودفعها فى البحر ثم أوقف منها مركبين عند قلعة أيلة لمحاصرتها بينما سارت بقية السفن جنوبا نحو عيذاب فقتلوا وأسروا وأحرقوا فى البحر نحو ستة عشر مركبا ، وأخذوا بعيذاب مركبا قادما بالحجاج من جدة وقتلوا الجميع كما استولوا على مركبتين فيهما بضائع جاءت من اليمن واستولوا كذلك على أطعمة كثيرة من الساحل كانت معدة لارسالها الى الحرمين الشريفين وأحدثوا حوادث لم يسمع فى الاسلام بمثلها . . ثم مضوا الى الحجاز يريدون دخول مدينة الرسول (صلعم) واخراجه من الضريح المقدس ، وأشاعوا ذلك وأجروا ذكره على ألسنتهم فلما وصل الخبر الى مصر وبها الملك العادل نائبا عن أخية صلاح الدين ، أمر الحاجب حسام الدين لؤلؤ فعمر المراكب وساربها برا الى أيلة حيث أنزلها فى البحر هناك وشحنها بالرجال ذوى التجربة من أهل الدين والحمية مع أنجاد من المغاربة البحريين ، وسار الى أيلة فظفر بمركبى العدو عندها فحرقهما وأسر جنودهما ثم واصل سيره الى عيذاب حيث دلة أهلها على مراكب العدو فتبعها فوقع بها بعد أيام فأوقع بها وانتصر عليها وأطلق المأسورين من التجار ورد عليهم ما أخذ لهم ثم صعد الى البر وتتبع الهاربين من الفرنج وأسرهم بأسرهم وكان ذلك فى اشهر الحج فساق منهم أسيرين الى منى ونحرهما بها كما تنحر البدن وعاد الى القاهرة بالأسرى فى ذى الحجة سنه ٥٧٨هـ/١١٨٢ م فكتب السلطان الية يضرب رقابهم بحيث لا يبقى منهم عين تطرف ولا أحد يخبر طريق ذلك البحر أو يعرف » [(١)] .

(١) راجع (ابو شامة : كتبا الروضتين جـ٢ ص ٣٥ -٣٧) ويقدر عدد الأسرى بنحو مائة وسبعين أسيرا .

وللشاعر ابى الحسين بن الذورى فى الحاجب لؤلؤ بسبب هذه الواقعة أشعار منها :

مرّ يوم من الزمان عجيب كاد يبدى فيه السرور الجمادُ
اذ أتى الحاجب الأجل بأسرى قرنتهم فى طيهَّا الأصفاد
قلت بعد التكبير لما تبدى هكذا هكذا يكون الجهاد
حبذا لؤلؤ يصيد الأعادى وسواه من اللآلى يصادُ

وقد أضطر أرناط بعد هذه الهزيمة أن يعقد هدنة مع صلاح الدين وأن يقنع بالرسوم التى يفرضها على قوافل التجارة بامارتة والتى يجنى منها ارباحا طائلة هذا إلى جانب الأموالى التى كان صلاح الدين يدفعها له سرا دون أن يعلم بها أحد ابسد بها جشعه ويتقى شره ولا شك أن كل هذه الانتصارات السالفة التى سبقت وقعة حطين قد شلت حركة العدو مما ساعد على نجاح خطط صلاح الدين فى الشام .

وكان صلاح الدين خلال هذه المدة يعمل على جمع كلمة المسلمين وتوحيد الممالك الاسلامية المتفرقة فى الشرق العربى واستطاع أخيرا أن يكون جهة عربية متحدة تمتد من برقة غربا الى الفرات شرقا ، ومن الموصل وحلب شمالا الى النوبة واليمن جنوبا .

وقد شرح صلاح الدين سياسته هذه فى خطاب أرسله الى الخليفة العباسى المستضئ ، يقول فيه : « ولو ان أمور الحرب تصلحها الشركة لما عز علينا أن يكون هناك كثير من المشاركين ولا أساءنا ان تكون الدنيا كثيرة المالكين ، وإنما امور الحرب لا تحتمل فى التدبير الا الوحدة فاذا صح التدبير لم يحتمل فى اللقاء الا العدة (الروضتين جـ٢ صـ٤٨).

موقعة حطين : (٥٨٣هـ/١١٨٧م) .

كانت الخطوة المنطقية التالية لهذه الوحدة هى أن يقوم صلاح الدين بهجوم اسلامى عام على مملكة الصليبين فى بيت المقدس متخذا من اعمال بعض الصليبين الاستفزازية سببا مباشرا لهذا الهجوم ذلك ان البرنس ارناط صاحب حصن الكرك الذى يشرف على طريق التجارة والحج بين مصر والشام والحجاز لوقوعة شرقى البحر الميت بالأردن ، علم من جواسيسة بمجئ قافلة كبيرة من مصر فى طريقها الى دمشق تحمل كل غال ونفيس فأثار ذلك جشعه واستولى عليها وأسر من فيها سنة ١١٨٦م رغم الهدنة المبرمة بينة وبين صلاح الدين وحاول صلاح الدين أن يسترد الأموال والأسرى عن طريق المفاوضة ولكنة لم ينجح عندئذ أقسم بأن ينتقم منه وأن يقتله بيده ثم أعلن التعبئة العامة للهجوم على الصليبيين وهناك رواية اخرى فى هذا الصدد يرويها الأمير عبد العزيز تميم بن المعز بن باديس الصنهاجى الذى صاحب صلاح الدين فى جهاده وهو حفيد الملك المعز بن باديس صاحب افريقية قال : لما مرض. صلاح الدين مرضة الشديد سنه ٥٨٢ هـ نذر أنه إذا أبل من مرضة فأنه لن يقاتل أحدا من المسلمين وأنه سيكرس جهادة ضد الصليبيين فاذا انتصر عليهم وظفر بالبرنس ارناط فسوف يتقرب الى الله باراقة دمة . وقد نجاه الله ببركة هذا العذر فكان هذا النذر هو سبب إراقة دم الإبرنس ارناط (١) .

هذا ما يرويه المؤرخون عن دوافع هذا الهجوم وان كان من المعروف ان حادثة ارناط لا تعدو أن تكون سببا مباشرا فقط وأن صلاح الدين لم يقدم على هذا الهجوم الا بعد أن كمل استعداده وأصبح فى مقدوره ان يحدد زمان ومكان المعركة .

---

(١) ابو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ صـ ٨٠ .

ورأى صلاح الدين ان يتحاشى مهاجمة تجمعات الصليبيين بالساحل فى صفورية قرب عكا ، وعمل على اجبارهم على المسير اليه فى الداخل وفى المكان الذى حدده للمعركة فهاجم مدينة طبرية وكانت بها زوجة اميرطرابلس ريموند الثالث واسمها اشيفا وقد أثار هذا الحادث غضب الصليبيين فعقدوا مجلس حرب فى عكا وقرروا الزحف من صفورية الى طبرية وكان من المنتظر ان يكون ريموند الثالث صاحب طرابلس اول المتحمسين لهذه الخطة لانقاذ زوجته ولكنه عارض فكرة الزحف لوعورة الطريق وقلة الماء وحرارة الجو ، وفضل البقاء وانتظار المسلمين على الساحل غير أن أمراء الصليبيين امثال ارناط وجاى لوزجنان ملك بيت المقدس وزعماء الداوية اتهموا ريموند بالخوف والضعف وقرروا الزحف الى طبرية . والواقع ان ما كان يراه ريموند هو الصواب من الناحية الاستراتيجية .

وفرح صلاح الدين لنجاح خطته وعقب على قرار الصليبيين بقوله «جاءنا ما نريد » اذ كان هو ورجالة ينعمون بالظلال والماء عند بحيرة طبرية والأردن بينما كان على الصليبيين أن يسلكوا بدروعهم الحديدية طريقا وعرا مرتفعا طولة ١٦ ك م لا ماء فيه وفى حرارة شهر يوليو الشديدة وقد حرص صلاح الدين على أن يترك لهم تلا صخريا مجاورا قاحلا لا ماء فية وهو تل حطين فوصلوا منهكين متعبين ثم أشعل لهم المسلمون النار فى الأعشاب المجاورة فاجتمع عليهم حر الزمان وحر النار والدخان وحر العطش والقتال وانتهز صلاح الدين فرصة حلول الظلام فى الليل وأحاط بالجيش الصليبى ثم دار القتال بين الفريقين فلم يجد الصليبيون أمامهم سوى تل حطين فأخذوا يصعدون نحو القمة والمسلمون خلفهم يقتلون فيهم ثم اسروا من تبقى منهم وكان على رأس الأسرى ملك بيت

المقدس جاى لوزجنان ، وأرناط صاحب الكرك ومقدم الداوية دى مونتفورت أما ريموند الثالث فقد تمكن من القرار الى امارتة طرابلس بعد أن فتح له المسلمون ثغرة فى صفوفهم واستقبل صلاح الدين الأسرى استقبالا حسنا وقدم لهم الماء المثلج فشرب جاى لوزجنان وأعطى ما تبقى منه لارناط فشربة وغضب صلاح الدين من ملك بيت المقدس وقال له كان ينبغى أن تأخذ منى أذنا تسقيه ثم أخذ يعدد ذنوب أرناط ثم تناول سيفة وقتله تنفيذا لقسمه كذلك أمر بقتل اسرى الداوية والاسبتارية لكثرة شرورهم وشدة وطأتهم على المسلمين وسيق بقية الأسرى الى دمشق حيث بيعوا بيع الرقيق .

كانت واقعة حطين كارثة حربية كبرى على الصليبيين فنيت فيها زهرة شبابهم وفرسانهم وقد علق المؤرخ المعاصر ابن الاثير على هذه الواقعة بقوله : « وكان من يرى القتلى يحسب ان ليس هناك أسرى ، ومن يرى الاسرى يحسب أن ليس هناك قتلى (١) .

ولا يفوتنا أن نضيف فى هذا الصدد رواية طريفة رواها ابن الأثير على لسان الأمير الأفضل بن صلاح الدين فى وصف حطين كما شاهدها بنفسة فيقول : كنت إلى جانب أبى فى ذلك المصاف وهو أول مصاف شاهدته فى حياتى فلما انسحب ملك الفرنج إلى قمة التل (قرون حطين) ونصب خيمتة الحمراء بأعلى القمة ، حمل فرسانة حملة منكرة على المسلمين حتى الحقوهم بوالدى . قال فنظرت إليه وقد علته كآبة ، واربد لونة وأمسك بلحيتة وتقدم وهو يصيح : كذب الشيطان!!

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ١١ص ٢٢٤

قال : فعاد المسلمون وانقضوا على العدو الذى أرتد الى التل . وحينما رأيت الفرنج يفرون ، صرخت فرحا مسروا لقد هزمناهم ! غير أنهم حملوا مرة أخرى وردوا رجالنا الى حيث يقف والدى فعاد والدى يصيح مثل المرة الأولى : «فلتشدوا على الشيطان الكاذب» فهجم المسلمون على الفرنج ودفعوهم إلى أعلا التل فصحت مرة أخرى : لقد هزمناهم فالتفت والدى إلى وقال :« اسكت ما تهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة» . وبينما يقول لى ذلك وأذا بخيمة الملك قد هوبت وسقطت . عندئذ ترجل والدى وسجد شكرا لله تعالى وبكى من فرحه(١) .

ولم يجد صلاح الدين صعوبة بعد هذا النصر الحاسم فى فتح المدن الصليبية وساعدة على ذلك حسن معاملته لأهالى تلك المدن ومثال ذلك أنه بعد فتح طبرية عامل الأميرة اشيفا زوجة ريموند الثالث معاملة كريمة وسمح لها بالسفر بأموالها وحاشيتها الى طرابلس .

وتوقع الصليبيون أن يذهب صلاح الدين الى القدس أولاً إلا أنه وجد بثاقب نظره أن يبدأ بالمدن الساحلية التى تربط الصليبيين بموطنهم الأصلى فى غرب أوربا فيحصرهم فى داخل الشام فضلا عن أن احتلالة للمدن الساحلية سيسهل عليه الاتصال البحرى بين مصر والشام .وعلى هذا الأساس استولى صلاح الدين على عكا ويافا وصيدا وبيروت وجبيل وحيفا وعسقلان وغزة ولم تستعص عليه سوى مدينة صور وذلك يرجع الى موقعها الجغرافى المحاط بالمياه من معظم نواحيها (٢) وفشل الأسطول المصرى فى محاولة غزوها من ناحية البحر .

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ صـ٥٣٦

(٢) يصف ابو شامة مدينة صور بقوله « وصور مدينة حصينة معظمها فى البحر كأنها سفينه . (الروضتين جـ٢ صـ١١٩) .

ورأى صلاح الدين بعد ذلك أن يتجة الى الداخل نحو مدينة بيت المقدس فحاصرها حصارا شديدا حتى أضطر اهلها الى طلب التسليم فدخلها فى ليلة الاسراء ٢٧ رجب سنه ٥٨٣هـ/١١٨٧م وكانت الشروط التى فرضها صلاح الدين على المدينة فى غاية التسامح والكرم لدرجة أن بعض المؤرخين المعاصرين الصليبين قال فى هذا الصد « ولم تتجل عظمة صلاح الدين مثلما تجلت عند تسليم المدينة الخالدة » .

هذه العبارة فى الواقع تتضمن حقائق ومعان كثيرة لأن صلاح الدين لم يستغل انتصارة للتمثيل بأعدائه كما مثلوا بالمسليمين حينما فتحوا القدس سنه ١٠٩٩ م بل تركهم يغادرون المدينة بأمتعتهم وأموالهم بعد دفع فدية معتدلة ، كماراعى حالة الفقراء منهم فترك الكثيرين يرحلون دون دفع الفدية المطلوبة . أما النصارى الشرقيون من أهل المدينة فقد سمح لهم بالبقاء مع المسلمين على أن يدفعوا الجزية كأهل الذمة .

هذا ولم يحاول صلاح الدين هدم الكنائس بل تركها وعلى رأسها كنيسة القيامة ، وأكتفى بأعادة المساجد التى حولت الى كنائس ولا سيما المسجد الأقصى الذى كان الفرنجة قد حولوه الى كنيسة وأنزلوا الفرسان الداوية فى قسم منه وأطلقوا عليه معبد سليمان ، وكان هذا يدل على أن صلاح الدين ل يكن يحارب الدين المسيحى بل كان يحارب السياسة الأوربية الاستعمارية .

ولقد واصل صلاح الدين بعد فتح القدس عملية استردادالمدن الشامية من أيدى الصليبين بحيث لم يبق فى أيديهم الا انطاكية وطرابلس وصور

وبعض الحصون والمدن الصغرى وقد عبر صلاح الدين عن هذا النصر بقوله فى رسالة الى أخية تورانشاه باليمن : ان بلاد الشام« لا تسمع فيها لغوا ولا تأثيما الا قيلاً سلاماً سلاما » .(سورة الواقعة أية ٢٦)

على أن سقوط بيت المقدس وضياع معظم الممتلكات الصليبية كان له رد فعل عظيم فى غرب أوربا اذ أخذت البابوية تبشر بحملة صليبية جديدة وتحض الملوك والحكام على فض منازعاتهم الداخلية والاشتراك فى هذه الحملة ، وتزعم هذه الحملة البابا جريجورى الثامن .

وقد لبى الدعوة ثلاثة من كبار ملوك غرب أوربا وهم : فردريك بربروسا امبراطور المانيا [١] وريتشارد قلب الأسد Lion Heart ملك انجلترا وفيليب الثانى أوجست Auguste ملك فرنسا . وتعتبر هذه الحملة التى تعرف بالحملة الصليبية الثالثة والتى أمتد تاريخها ثلاث سنوات (١١٨٩-١١٩٢م) ، من أكبر الحملات الصليبية فى عدد جيوشها وأساطيلها .

ولا شك أن أخبار الاستعداد لهذه الحملة قد بلغت صلاح الدين ففى خطابة الى أخية تورانشاه باليمن نجد أشارة صريحة الى أن القسطنطينية وأصحاب الثغور المغربية والمستخدمين بالاسكندرية ، كتبوا له ينذرونة بأن العدوقد أجمع أمرا وأوقد نار الحرب كذلك يروى المؤرخون أن بعض رجال صلاح الدين نصحوا بتخريب عكا وتدمير أسوارها واقامة عدد من المرابطين مكانها لخطورة موقعها على المسلمين اذا ما تملكها

(١) غرق هذا الامبراطور فى نهر بالقرب من انطاكية اثناء السباحة فيه واضطر اتباعه بعد هذه الكارثة الى العودة الى بلادهم .

الصليبيون غير أن صلاح الدين كان لا يميل الى تخريب المدن العامرة [١] ولهذا لم يستجب لهذا الرأى وفضل ان يزيد فى استحكامات عكا ووسائل الدفاع عنها واختار لهذا العمل الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى [٢] الذى سبق أن أدار السور حول مصر والقاهرة وبنى قلعة جبل المقطم فاستدعاه من مصر هو وأساتيذ العمل وأنفارة وآلاته ودوابة وأبقاره ، وفوض اليه عمارة عكا وعينة عليها كذلك استدعى حامية من جنود مصر للمشاركة فى الدفاع عن هذا الثغر الهام .

ثم أخذت حشود الصليبين وأساطيلهم تنزل تباعا على عكا فى سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م) ويقدر عدد سفنهم بما لا يقل عن ٥٥٢ سفينة من مختلف البلاد الأوربية وهذا العدد الكبير كان يزيد بكثير على ما كان عند صلاح الدين من سفن حربية وقد أعترف صلاح الدين بهذا التفوق البحرى للعدو فى بعض رسائله مثل قوله : « ومن خبر الكفار انهم الآن على عكا يمدهم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه ويخرج للمسلمين منهم أمر من أجاجه . . . فاذا قتل المسلمون واحدا فى البر بعث البحر عوضه الفا »[٣] .

---

(١) يزيد ذلك ان صلاح الدين حينما اضطر بعد لك الى تخريب مدينة عسقلان ـ مفتاح المسالك الشرقية المؤدية الى مصر ـ خوفا من سقوطها فى يد الصليبين ، جمع أولادة ورجال دولتة وناقشهم فى هذا الأمر قبل صدورة ويؤثر عنه انه قال فى هذا الصدد « والله لأن أفقد أولادى بأسرهم أحب الى من أن أهدم فيها حجرا واحدا ولكن اذا قضى الله بذلك لحفظ مصلحة المسلمين فكيف أصنع ؟ راجع (ابوشامة : كتاب الروضتين جـ٢ صـ ١٩٢) .

(٢) قرقراش اسم تركى معناه العقاب الطائر كان مملوكا لأسد الدين شيركوه ثم انتقل الى خدمة صلاح الدين وصار نائبا عنه فى القاهرة أثناء غيابة عنها وتنسب اليه أحكام عجيبة أثناء ولايته والظاهر أنها موضوعة إذا تثبت النصوص عدلة وكفايته وتوفى سنه ٥٩٧هـ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٧ ص ١٢٧

على أن صلاح الدين لم يقف ساكنا حتى تكتمل تجمعات العدو حول عكا بل سارع فى مهاجمته واستطاع فتح الطريق الى المدينة لامدادها بالمؤن والأسلحة والرجال كما رتب اليزك الدائم (الحرس) لمنع العدو من الخروج من خيامة فانحصر فيها بحيث صار لا يخرج منها أحد الا يقتل أو يجرح . وأظهرت حامية المدينة تحت قيادة قراقوش بطولة وشجاعة تسترعى الانتباه .

راستمر الوضع على هذا النحو والقتال دائر على عكا الى أن كثرت جثث القتلى وجيف الدواب من الجانبين واضطر صلاح الدين الى الابتعاد من رائحتها الى مكان داخلى بعيد عن عكا يسمى الخروبة وقد أفاد الصليبيون من هذا الانسحاب اذ تمكنوا من أطباق الحصار حول المدينة وقطع الطرق اليها .

وهنا نجد البحرية العربية تتحمل عبء الاتصال بحامية المدينة من جهة البحر وأمداها بالمؤن والذخائر والرسائل وغير ذلك. يروى ابو شامة أن السلطان صلاح الدين استدعى الاسطول المصرى فى أواخر سنه ٥٨٥هـ(١١٨٩م) فقدمت خمسون قطعة بقيادة أمير البحر حسام الدين لؤلؤ الذى فاجأ مراكب العدو فى مياة عكا وانتصر عليها وبدد شملها وظفر منها بمركبى شحن مملؤتين بالغلال والأموال والرجال كما أمد حامية المدينة بما تحتاج اليه من طعام وسلاح .

على أن هذه الميرة أو المؤن لم تلبث أن نفذت بعد قليل مما اضطر الأمير بهاالدين قرقوش والى المدينة الى الاستنجاد بصلاح الدين من جديد واستمر الأسطول المصرى يشق طريقه بنجاح الى عكا حاملا إليها مختلف

الأمدادات وقد أتخذ من ميناء حيفا فى جنوبها مأوى يختبئ فيه اذا ما أشتد خطر الفرنج فى البحر وكثيرا ما ارتطمت بعض سفنة بصخور الشاطئ بسبب هيجان البحر فى فصل الشتاء ،قد اضطر الملك العادل أن يرابط بجيوشه عند مياه حيفا للأشراف على السفن القادمة من مصر فى طريقها الى عكا .

أما فى شمال عكا فكانت مدينة بيروت هى قاعده الأسطول الشامى وكان يوجد على سواحلها فى مكان يسمى الزيب أو الزئب طائفة من المسلمين يجهزون السفن الداخلة الى عكا ويقطعون الطريق على الفرنج [1] وكان لأمير بيروت فى ذلك الوقت واسمة عز الدين سامة غزوات كثيرة فى البحر ضد مراكب العدو المارة ببيروت فى طريقها الى عكا فغنم هو ورجالة مغانم كثيرة خلدت له ادخار الغنى ويؤثر عن هذا الأمير سامة أو أسامة ، أنه استولى على خمس سفن من أسطول ملك انجلترا ريتشارد قلب الأسد ، كانت مملؤه خيلا ورجالا ونساء وأموالا .

كذلك يروى العماد الأصفهانى أن السلطان صلاح الدين « وكان قد أمر نواب الاسكندرية بتجهيز سفن كبار وتعميرها هذا بالغلال والأقوات وتسييرها الى عكا ، ولكنها ابطأت عن الموعد المطلوب مما أضر بالمقيمين بمدينة عكا ، وفكر صلاح الدين فيما يتعجل به الغرض فكتب الى متولى بيروت عزالدين سامه ، فجهز بطسة كبيرة ملأها ميرة وغلة كثيرة وأركبها جماعة على زى الفرنج ممسوحى اللحى ممسوخى الحلى وأصحبهم صلبانا وخيل بهم رهبانا . وكانت هذه البطسة من الفرنج مأخوذة ، وهى بساحل بيروت منبوذة فأمر السلطان بترميمها وتتميمها ، فملئت بالشحوم واللحوم ،

---

(١)ابو شامة : نفس المرجع جـ ٢ ص ١٨٤ ولعل المقصود بالزيب فى المتن هو المكان المعروف حاليا بجول الديب على ساحل بيروت الشمالى .

وأربعمائة غرارة غلة وأحمال من النشاب والنفط ورتب فيها رجال مسلمون ونصارى من أهل بيروت وأرادوا أن تتشبة يطس العدو فى البحر فشدوا زنانير وأصطحبوا خنازير وساروا بها فى البحر بمراكب الفرنج مختلطين والى محادثتهم ومجاذبتهم منبسطين بولما حاذوا بها عكا صوبوا بها نحوها والريح تسوقها والفرنج من مراكبهم تقول « ما هذه طريقها وهى كالسهم النافذ قد سدد فوهها فدخلت الثغر وأجترا البلد نصف شهر »[1] ويضيف العماد الاصفهانى « انه بعد ذلك بقليل وصلت فى البحر ثلاث مراكب مصرية كأنها ثلاث هواضب ، فجاءت أعلامها كالأعلام ، طائرة كالسهام ، ولم تبال بمراكب العدو فخرقتها وقربت من سفينة للعدو فخرقتها ، وعين الكفر عبرى ، وامتلأ الثغر بها وأثرى[2].

هذا ويروى ابن شداد رواية أخرى تتفق مع رواية العماد الاصفهانى حول أهمية الدور الذى قامت به بيروت فى أمداد عكا بالغلال والطعام فيقول :

وكان السلطان صلاح الدين قد أعد ببيروت بطسة وعمرها ووضع فيها من الجبن والبصل والغنم وغير ذلك من الميرة وكان الفرج قد أداروا مراكبهم حول عكا حراسة لها عن أن يدخلها مركب للمسليمن ، وكان قد أشتدت حاجة من فيها الى الطعام والميرة فركب فى بطسة بيروت جماعة من المسلمين وتزيوا بزى الفرنج حتى حلقوا لحاهم ووضعوا الخنازير على سطح البطسة بحيث ترى من بعد وعلقوا الصلبان ، وجاءوا قاصدين البلد من البعد حتى خالطوا مراكب العدو فخرجوا اليها واعترضوهم فى الجرافات والشوانى وقالوا نراكم قاصدين البلد « واعتقدوا أنهم منهم، فقالوا : أولم تكونوا أخذتم البلد ؟ فقالوا: لم تأخذ البلد بعد فقالوا : نحن نرد القلوع الى المعسكر ووراءنا بطسة فرنجية

(۱) ابو شامة : نفس المرجع جـ ٢ ص ١٦١ .
(٢) ابو شامة : نفس المرجع جـ ٢ ص ١٦١ .

قد اتفقت معهم فى البحر قاصدين العسكر فنظروا فرأوها فقصدوها لينذروها فاشتدت البطسة الاسلامية فى السير واستقامت لها الريح حتى دخلت ميناء البلد وسلمت ولله الحمد وكان فرحا عظيما فان الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلد [1] .

هذا وقد ظهرت خلال تلك المعارك بطولات عديدة نذكر منها بطولة الضفدع البشرى عيسى العوام الذى كان يشد على وسطة الرسائل والذهب ثم يغوص قليلا فى البحر على غرة من العدو ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو ويدخل عكا حيث يسلم الرسائل الى رجال الحامية بينما كان الذهب يصرف نفقة للمجاهدين .

وفى ذات يوم حمل عيسى العوام أكياس الذهب والكتب وعام فى البحر ، فجرى عليه أمر أهلكه ولم يسمع له خبر فأيقن البعض بهلاكه بينما ظن العض الأخر بفراره بالأموال وبعد أيام بينما كان الناس على طرف البحر فى المدينة واذا البحر قد قذف اليهم ميتا غريقا ، فافتقدوه فوجدوه عيسى العوام ووجدوا على وسطة الذهب والكتب فبرأه الله مما قالوا وقدر له أداء الأمانة بعد وفاته كما كان يؤديها فى حياته [2] .

بطولة أخرى كان صاحبها الأمير مجاهد جمال الدين محمد بن أركز الذى تخلفت سفينته عن بقية الأسطول المصرى فأحاطت بها مراكب العدو واضطر ملاحوها الى القفز فى الماء طالبين النجاة بأنفسهم بينما ظل أميرهم يقاتل ويقاوم فعرض عليه الصليبيون الأمان اذا استسلم لهم فقال ما أضع يدى الا فى يد مقدمكم الكبير فلا يخاطر الخطير الا مع

---

(1) ابو شامة : نفس المرجع جـ ٢ ص ١٦٠ .

(2) ابو شامة : نفس المرجع جـ ٢ ص ١٦٢ .

الخطير فجاء اليه المقدم الكبير وظن أنه قد حصل له الأمير فعاقره وعانقه وقوى عليه وما فارقه فوقعا فى البحر وغرقا وترافقا وعلى طريق الجنة والنار افترقا [١] .

وهناك أيضا بطولة يعقوب الحلبى الذى خرج من بيروت على رأس سفينة كبيرة (بطسة) مشحونة بالالآت والميرة الرجال لأمداد حامية عكا فاعترضة ملك انجلترا ريتشارد وحاصره بسفنة التى كانت تبلغ الأربعين قطعة فقاتلهم المسلمون قتالا عنيفا وأحرقوا لهم سفينة كبيرة غرقت بمن فيها ولما تكاثر العدو على سفينة المسلمين وكاد أن يستولى عليها قال المقدم يعقوب : « والله لا نقتل الا عن عز ولا نسلم اليهم من هذه البطسة شيئا » ثم حطموا جوانب البطسة بالمعاول حتى فتحوها فامتلأت ماء وغرق جميع من فيها وما فيها ولم يظفر العدو منها بشئ [٢] .

هذه النصوص وأمثالها تعطينا صورة واضحة لما بذلتة البحرية العربية من شجاعة وتضحية ضد عدو يفوقها قوة كثيرة فى هذا الميدان ولهذا اعتمدت فى مقاومتة على عنصرى المفاجأه والحيلة مع صدق العزيمة وفى هذا يقول صلاح الدين نفسة فى أحدى رسائلة : « وكان عدد مراكبهم كبيرا ، ولكن لقيناهم بأصدق منها عزيمة والقليل مع العزم الصادق كثير [٣] .

هذا ولم يتردد صلاح الدين فى استغلال كل فرصة تعينة على قهر خصمة فى هذا الميدان البحرى فيروى على سبيل المثال أنه اتفق مع

(١) ابو شامة : نفس المرجع . جـ٢ ص ١٨٢ .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٥١ .
(٣) ابو شامة : المرجع السابق جـ ٢ ص ١٨١ ـ ١٨٢ .

جماعة من قراصنة الفرنج على الإغارة على مراكب العدو التجارية وأمدهم ببعض السفن الصغيرة المعروفة بأسم البراكس [1] فركبوها وظفروا بمراكب لتجار، بضائعهم بعضها فضة مصوغة وغير مصوغة فأسروهم وأحضروهم بين يدى السلطان فأعطاهم جميع ما غنموا وأبت عليه نفسة أن يأخذ منها شيئا .

كذلك تروى المصادر ان صلاح الدين أرسل فى سنة (٥٨٦هـ/١١٩٠) سفيرا من قبله هو الأمير عبد الرحمن بن منقذ الى خليفة المغرب يعقوب المنصور الموحدى يطلب اعانته بالاساطيل لتحول بين اساطيل الأعداء وبين امداد النصرانية بالشام وعلى الرغم مما قيل أن المنصور رفض هذا الطلب لأن صلاح الدين لم يلقبة فى رسالتة بلقب أمير المؤمنين [2] أى لم يعترف بخلافة الموحدين فقد ذهب بعض المؤرخين المغاربة الى أن المنصور قد أرسل لصلاح الدين مائة وثمانين سفينة حربية لمنع الصليبين من سواحل الشام [3] وكيفما كان الأمر فانه يلاحظ أن أساطيل الموحدين فى ذلك الوقت كانت هى الأخرى تجابة أخطارا جسيمة فى مياة المحيط الأطلسى غربى الأندلس حيث كانت أساطيل الالمان والإنجليز والفلمنك (سكان الأراضى الهولندية) المتجهة الى الشام كثيرا ما ترسوا فى الموانى البرتغالية وتعاون ملك البرتغال سانشو الأول فى مهاجمة جيرانة المسلمين فى غرب الاندلس لهذا كان على اسطول الموحدين أن يعمل على حماية هذه الأطراف المغربية الاسلامية من هذا الخطر الصليبى [4] .

---

(١) براكس جمع بركوس وهى السفينة الصغيرة، راجع (أبو شامة : نفس المرجع جـ٣ .

(٢) ابو شامة : المرجع السابق جـ٢ ص ١٧٥ وما بعدها .

(٣) السلاوى الناصرى الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، جـ ٢ ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(٤) ابن عذارى البيان المغرب فى اخبار الاندلس والمغرب جـ ٤ ص ١٧٥ .

وفى أوائل سنة ١١٩١ م أشتد ضغط الصليبيين على عكا وعظمت شكاية حامية المدينة من طول المقام بها ومعاناه التعب والسهر وملازمة القتال ليلا ونهارا وقرر صلاح الدين تجديد حامية المدينة بواسطة اسطولة الا أن هذه العملية لم تتم بنجاح بسبب صعوبة الظروف التى تمت فيها وتكالب العدو على المدينة من كل ناحية ويعلق كل من ابن الأثير وابى شامة على ذلك بقولة : « ودخل الى عكا من لم يجرب حصارها ولم يخبر منافعها ومضارها . . ودخل اليها عشرون أميرا عوض ستين فكان الذين دخلوا قليلا بالنسبة الى الذين خرجوا فلا جرم ان وقع الوهن وقضى الأمر [1] .

هذا وقد زاد الموقف حرجا ، احتلال ملك أنجلترا ريتشارد لجزيرة قبرص من أيدى البيزنطيين فى نفس تلك السنة ١١٩١م ومن ثم صارت قبرص قاعدة بحرية جديدة للصليبيين ومركزا دائما لتموين أماراتهم فى الشرق العربى وقد أثار هذا الحادث موجة من الفرح والحماس فى نفوس الصليبيين فشدوا هجماتهم على عكا واضطرت حامية المدينة أن توجة آخر نداء بالحمام الزاجل الى صلاح الدين يقولون فيه : « انا قد بلغ منا العجز الى غاية ما بعدها الا التسليم ونحن فى الغد ثامن الشهر (جمادى الأولى سنه ٥٨٧هـ / ١٩٩١م) ان لم تعملوا معنا شيئا ، نطلب الأمان ونسلم البلد » .

ولم تنجح جميع المحاولات العسكرية التى بذلها صلاح الدين لانقاذ عكا فأضطر قائدها قراقوش الى الأستسلام فى يولية سنة ١٩٩١م بعد مقاومة دامت سنتين تقريبا وبعد سقوط عكا دب خلاف بين فيليب الثانى ملك فرنسا ربين ريتشارد ملك انجلترا فاضطر فيليب الى مغادرة

---

(١) ابو شامة : نفس المرجع جـ ٢ ص ١٨٠ ـ ١٨٢ سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٨٦٢ .

الأراضى المقدسة غاضبا والعودة الى بلادة .

أما الملك ريتشارد قد واصل زحفة جنوبا بحذاء الشاطئ وأساطيله تسير بجوارة فى البحر واستطاع ان يستولى على شاطئ فلسطين من عكا الى يافا تم انحدر جنوبا نحو عسقلان وخشى صلاح الدين على مصر من اطماع الصليبيين خصوصا وأن ملك انجلترا ريتشارد قد صرح بذلك مرارا وحصل على كثير من الجمال والظهر لهذا الغرض واضطر صلاح الدين الى تخريب مدينة عسقلان فحرم الصليبيين من هذه القاعدة البحرية التى كان من الممكن استغلالها فى مهاجمة مصر مثلما فعلوا بعد سقوطها فى أيديهم من قبل سنه ١١٥٣ م على عهد الفاطميين وهكذا استطاع صلاح الدين بهذا أن يحتفظ بمفتاح المسالك الشرقية المؤدية الى مصر .

وحاول ريتشارد قلب الأسد أن يسترجع بيت المقدس ولكنة فشل تماما واضطر أن يعقد صلح الرملة مع صلاح الدين فى نوفمبر سنه ١١٩٢ (٥٨٨هـ) وأهم شروطة أن يحتفظ الصليبيون بالمدن الساحلية من صور الى يافا وتبقى بيت المقدس تحت الحكم الأسلانى على أن يسمح للحجاج المسيحين بالحج اليها دون مطالبتهم بأية ضريبة مقابل ذلك .

وقام صلاح الدين عقب هذه الهدنة بالعمل على خلاص أصحابة من الأسر ونذكر منهم بهاء الدين قراقوش والى عكا السابق الذى تلقاه السلطان بالبشر والبر [1] كذلك اهتم صلاح الدين بتفقد بعض الثغور الشامية فزار صيدا ثم بيروت حيث استقبله واليها عزالدين سامه فى شوال سنة ٥٨٨ هـ [2] .

(١) ابو شامة : نفس المرجع جـ ٢ ص ٢٠٧ .

(٢) أبو شامة نفس المرجع جـ٢ ص ٢٠٧

وأضطر صلاح الدين بعد ذلك الى العودة الى دمشق حيث وافتة المنية فى العام التالى سنه ٥٨٩هـ(١١٩٣م) ودفن هناك ومعه سيفه الذى كان معه فى الجهاد ليتوكأ عليه الى الجنة [١] .

كان صلاح الدين من الحكام القلائل الذين أمنوا بقيمة السلاح البحرى فى جهاد الصليبيين وتأمين سلامة بلاده ولعل الحوار التالى الذى دار بينة وبين وزيره القاضى الفاضل يعطينا صورة صادقة لما كان بجيش فى نفسه من مشاعر نبيلة نحو هذا الجهاد البحرى قال القاضى الفاضل :

« وقع للسلطان فى ذى القعدة سنه ٥٨٤هـ أن يتفقد البلاد الساحلية ويرتب أحوالها فسرنا على الساحل من عسقلان الى عكا وكان الزمان شتاء عظيما والبحر هائجا هيجانا عظيما وموجة كالجبال ، كما قال الله تعالى وكنت حديث العهد برؤية البحر فعظم أمر البحر عندى حتى خيل لى أننى لو قال لى قادر لو جزت فى البحر ميلا واحدا ملكتك الدنيا لما كنت أفعل واستخففت رأى من يركب البحر رجاء كسب دينار أو درهم واستحسنت رأى من لا يقبل شهادة راكب البحر هذا كله خطر لى لعظم الهول الذى شاهدته من حركة البحر وتموجه فبينما أنا فى ذلك اذ التفت الى وقال عن نفسه : « أنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر الى جزائرهم أتبعهم فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت » فعظم وقع هذا الكلام عندى حيث ناقض ما كان يخطر لى وقلت له : « ليس فى الأرض أشجع نفسا من المولى ولا أقوى نية منه فى نصرة دين الله» وحكيت له ما خطر لى ثم قلت : « ما هذه الا نية جميلة ولكن المولى

---

(١) ابو شامة : المرجع السابق جـ ٢ ص ٢١٥ . .

يسير فى البحر العساكر وهو سور الاسلام ولا ينبغى أن يخاطر بنفسه : « فقال أنا استفتيك ما أشرف الميتات ؟ فقلت : الموت فى سبيل الله فقال : غاية ما فى الباب أن أموت أشرف الميتات .وهكذا كان شعور صلاح الدين نحو الجهاد البحرى وهو شعور قلما نجد مثله بين حكام العصر الوسيط .

نرى مما تقدم أن الحملة الصليبية الثالثة قد فشلت فى تحقيق هدفها الأساسى وهو استرداد الأماكن المقدسة فى فلسطين من المسلمين الا أنها فى الوقت نفسة استطاعت أن تسيطر على معظم شواطئ الشام بما فيها من موانى مثل صور وحيفا وقيسارية وأرسوف ويافافضلا عن عكا التى كانت المنفذ الرئيس لمملكة بيت المقدس الصليبية على البحر المتوسط ثم صارت مقرا اسميا لهذه المملكة بعد سقوطها .

وفى ختام عصر صلاح الدين ينبغى أن نشير الى نقطة هامة وهى أن طوائف المماليك الأسدية والصلاحية والعادلية قد شاركت مع الأكراد والعرب فى كل هذه العمليات الحربية التى خاضها صلاح الدين ضد ملوك الشام وضد الصليبيين فيصف ابن واصل فى كتابه مفرج الكروب ، بلاء هؤلاء المماليك اثناء حصار الموصل سنه ٥٨٢ هـ/ (١١٨٦م) وفى محاربة الصليبيين عند مدينة صور سنه ٥٨٥ هـ (١١٨٩م) وفى الوقائع المتعددة التى حاول فيها صلاح الدين فك الحصار الصليبى عن عكا سنه ٥٨٦هـ(١١٩٠م) ثم فى المنازعات التى حدثت مع الصليبيين بالقرب من القدس سنه ٥٨٨خـ(١١٩٢) كما يذكر ابن وصل أسماء من أستشهد من المماليك فى تلك الوقائع [١] ولم تمنع قوة صلاح الدين وشدة هيبتة من معارضة مماليكة ومخالفته فى الرأى فى بعض الأحيان

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ٨٩ـ٩١ ، ١٠١، ١٠٢ صـ ١٢٦ .

ومثال ذلك انكارهم عزمة على التحصن ببيت المقدس انتظارا لمجئ ريتشارد قلب الأسد لحصارها سنه ٥٨٨ هـ (١١٩٢م) إذ بعث المماليك الأتراك رسالة إلى صلاح الدين يقولون فيها : لا مصلحة فى ذلك فإنا نحصر ويجرى علينا ما جرى على أهل عكا ، وعندئذ تؤخذ بلاد الإسلام أجمع والرأى أننا نضرب مع العدو مصافا فإن قدر الله تعالى لنا أن نهزمهم ملكنابلادهم وإن تكن الأخرى ، سلم العسكر ومضى القدس وقد انحفظا ت بلاد الإسلام وعساكرها بمضى القدس . . . إنك إن أردتنا أن نقيم فى القدس فتكون معنا أو بعض أهلك حتى نجتمع عنده وإلا فالأكراد لا يدينون الأتراك والأتراك لا يدينون الأكراد » ونزل صلاح الدين على ارادة المماليك لأهمية القدس عنده واضطر ان يقيم من أهله معهم الأمير الأمجد صاحب بعلبك فتمكن بذلك من الأحتفاظ بالقدس فى يد المسلمين [١] .

على أن موضع الأهمية فى هذا الاقتباس السالف الذكر هو أن المماليك بلغوا من القوة والكثرة فيما يبدو مما جعل صلاح الدين يستنيم لشورتهم فضلا عن نزوله على إرادتهم وفى ذلك دليل على مدى اعتماد الدولة الأيوبية منذ ايامها الأولى على ثبات المماليك الأتراك .

وللمماليك الأسدية والصلاحية خانات ودروب وحمامات وأسواق ومدارس ظل بعضها يحمل اسماءهم مدة من الزمان مثل درب الجاولى الكبير بجوار الجامع الأزهر نسبة الى الأمير عز الدين الجاولى الأسدى ودرب الوشاقى بحارة زويله نسبة إلى حسام الدين سنقر الوشاقى الصلاحى [٢] وحمام كتبغا الأسدى بخط ما بين القصرين [٣] وحمام تتربناحية دار

(١) ابن واصل : المرجع السابق جـ ١ ص ١٣٠-١٣١ .

(٢) المقريزى : الخطط .

(٣) المقصود بالقصرين : القصر الشرقى الكبير والقصر الغربى على عهد خلفاء الفاطميين ويقابلهما الآن خان الخليلى ومسجد الحسين وسوق النحاسين بالقاهرة .

الوزراة الكبرى وكان تتر هذا أحد مماليك أسد الدين شيركوه وظل اسمه على تلك الجهة حتى خربت وسميت خرائب تتروان كانت العامة حرفت اللفظ فقالوا خرائب التتر وهناك حمام كرجي نسبة الى علم الدين كرجي الأسدى وهو بنواحي خرائب تتر كذلك نذكر قيسارية جهاركس (عمارة كبيرة بها حوانيت) التى بناها الأمير فخر الدين [1] جهاركس الناصرى بالقاهره سنه ٥٩٢هـ(١١٩٦م) وبنى فى أعلاها مسجدا كبيرا وقد بلغت من العظمة مبلغا جعل جماعة من التجار الذين شهدوها يقولون بأنهم لم يروا فى البلاد مثلها فى حسنها وعظمتها واحكام بنائها ولجهاركس أيضا مدرستة المعروفة باسمة المدرسة الجهاركسية ، وكانت ملاصقة لتربتة بدمشق ودرس بها عدد من كبار العلماء نذكر منهم القاضى تقى الدين محمد بن عبد اللطيف السبكى [2] الشافعى المتوفى سنه ٧٤٤هـ (١٣٤٤م) وهناك المدرسة الأزكشية التى بناها بالقاهرة الأمير أيازكوج الأسدى والمدرسة المسرورية التى بناها الخواص مسرور مقدم حلقة صلاح الدين وهناك خان السبيل الذى بناه بهاء الدين قراقوش الأسدى للمسافرين خارج باب الفترح بالقاهرة وسويقة البلشون نسبة الى الأمير سنقر البلشون الصلاحى الى غير ذلك من المنشأت المختلفة التى ان دلت على شئ فانما تدل على مقدار ما بلغة مماليك الأيوبين الأوائل من نفوذ وكثرة .

الأستاذة الدكتورة

[illegible] غنيم

---

(١) يروى المقريزى أن جهاركس كلمة فارسية معناها أربعة أنفس ، على حين يروى أبو شامة أن لفظ جهاركس معناه أنه اشترى بأربعمائه دينار غير أن العموى يقول ان جهاركس وحركس وشركس طائفة من طوائف الشمال كالروس من مملكة توران .

(٢) هو والد تاج الدين عبد الوهاب بن تقى الدين السبكى ، صاحب طبقات الشافعية الكبرى (ت٧٧١هـ) .

السلطان العادل سيف الدين الأيوبي (٥٩٦ ـ ٦١٥هـ / ١١٩٩ - ١٢١٨م).

أدت وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ(١١٩٣م) الى وقوع منازعات بين ابناء البيت الأيوبي مما أضعف المقاومة الأسلامية بوجة عام. ولقد انتهز ملك قبرص عموري لوزجنان هذه الفرصة وهاجم مدينة بيروت بأساطيله وجنودة وأستولى عليها سنه ٥٩٣هـ(١١٩٧)

وذلك بعد أن فرعنها صاحبها عز الدين سامة بدون حرب أو مقاومة وقد أثار هذا العمل استياء الكثيرين مثل قول الشاعر المعاصر :

سلم الحصن ما عليك ملامه ما يلام الذى يروم السلامه

فعطاء الحصون من غير حرب سنه سنهـا ببيروت سـامه

وعلى الرغم من ان الملك العادل قد استعاض بيروت بمدينة يافا التى استولى عليها فى نفس السنة (١١٩٧م) الا أن الدولة الأيوبية فى الواقع كانت قد أصابها التفكك بسبب المنازعات الداخلية .

وترجع حوادث الخلف و المنازعات الداخلية بين ابناء البيت الأيوبى الى تطبيق مبدأ اعتبار المملكة إرثا خاصا بقسم أنصبة متساوية وغير متساوية بين أبناء البيت المالك ، وهو ما جرى عليه العرف فى دول الشرق والغرب أوائل العصور الوسطى كما يرجع الى حرص صلاح الدين أن تكون أهم أقاليم المملكة لأبنائة دون غيرهم مثل أخية وأقدر القادرين على أمتلاك ناصية الدولة بعده وهو العادل الذى عينه صلاح الدين على أطراف مبعثرة مثل الكرك والشوبك ومثل ابناء العادل كذلك .

على أن عوامل الأنقسام ما لبثت أن ديت بين أبناء صلاح الدين أنفسهم مما جعل للعادل بينهم مدخلا سهلا .ولم يمض على وفاة صلاح

الدين سوى سبع سنوات حتى طوي العادل معظم اولئك الأبناء فحل محلهم على رأس دولة موحدة وتظهر لنا سياسته الميكيافيلية بوضوح فى تصريحه الخطير الذى القاه على من حوله من أمراء الدولة بمصر مبررا خلعه الملك المنصور بن العزيز بن صلاح الدين : إنه قبيح بى أكون أتابك صبى مع الشيخوخة والتقدم والملك ليس هو بالارث وانما هو لمن غلب .

وقامت طوائف المماليك الصلاحية والأسدية بدور كبير فى تلك الحوادث اذ ناصرت الصلاحية العزيز بن صلاح الدين وأبنة الملك المنصور وحاربت العادل وأطماعه . وكان مقدم الصلاحية الأمير فخر الدين جهاركس الناصرى مملوك الناصر صلاح الدين ، أما الأسدية وكبيرهم سيف الدين يازكوخ ، مملوك شيركوه أصلا فان العادل استغل ما بينهم وبين الصلاحية من تحاسد وتنافس واستطاع فى مكر ودهاء ووعود خلابة أن يستميلهم إليه ما عدا الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى الذى بقى نائبا مخلصا للملك العزيز فى القاهرة .وظل النزاع بين هاتين الطائفتين قائما ما ظل الخلاف بين الملوك الأيوبيين حتى تغلب العادل ووحد كلمة بنى أيوب فكان نصرا للأسدية وقد خلع عليهم الملك العادل ورد اليهم اقطاعاتهم أما طائفة المماليك الصلاحية فانتها آلت الى ما آل إليه أبناء صلاح الدين وأحفادة من الضعف وزادها ضعفا وفاة بعض زعمائها أمثال جهاركس [1] فى ٢٠ رجب سنه ٦٠٨هـ(ديسمبر سنه ١٢١١م) وعز الدين سامة فضلا عن اضطهاد العادل لمن بقى من أولئك الزعماء باستيلائه

---

(١) دفن جهاركس بجبل الصالحية عند جبل قاسيون فى شمال غرب دمشق ونقش على تربته المعروفة بقباب شركس العبارة التالية بهذه التربة المباركة للأمير الكبير الغازى المجاهد فخر الدين حافظ ثغور المسلمين قاتل الكفرة المشركين ايازجهاركس الناصرى توفى عقب عودة الغزاة فى العشرين من رجب سنة ثمان وستمائة رحمة الله عليه وعلى جميع الأموات المسلمين آمين .

على حصونهم واقطاعاتهم .

وهكذا نجح العادل فى توحيد الدولة الأيوبية من جديد تحت سلطانه ولقد اقتدى السلطان العادل بأخية صلاح الدين فى تحصين ثغور مملكته ولا سيما ثغر دمياط الذى كان المجاز المفضل لدى الصليبيين لهذا شيد سنه ١٢١٧ م مدينة العادلية جنوب دمياط على الضفة الشرقية للنيل وشحنها بالمقاتلة والالآت الحربية حتى أصبحت منذ ذلك الحين جهادية لحماية دمياط ومنع الصليبيين من دخولها وبالآضافة الى ذلك كان عند مدخل فرع دمياط برج عال مبنى فى وسط النيل ومشحون بالمقاتلة ويعرف ببرج السلسلة اذا كانت تمتد منه سلسلتان : أحداهما تتجة على النيل الى دمياط على الضفة الشرقية والأخرى تتجة الى جيزة [1] دمياط وهى الشاطئ الغربى المواجه لدمياط فاذا وثقت السلسلتان أمتنع على المراكب العبور من فرع دمياط لهذا كان البرج هو مفتاح دمياط أو قفل الديار المصرية كما يسمية المؤرخون المعاصرون ومن بقاياه حاليا اسمه الذى يطلق على قرية فى شمال دمياط على الضفة الشرقية وهى عزبة البرج ويقابلها على الضفة الغربية مصيف رأس البر .

على أن هذه الحصانة التى تميزت بها دمياط وغيرها من الثغور المصرية لم تغير من عزم الصليبيين على غزو مصرخصوصا بعد أن تبين لهم أن معظم المقاومة التى ابداها صلاح الدين وأخوه العادل كان مصدرها مصر .

على هذا الأساس بدأ الصليبيون فى تنفيذ ما عزموا عليه بمعاودة الهجوم على مجازهم المفضل دمياط سنه ١٢١٨م(٦١٥هـ) وكانت هذه الحملة وهى المعروفة فى كتب التاريخ بالحملة الصليبية الخامسة قد

(١) الجيزة فى اللغة الناحية ولعلها سميت كذلك لأنه يجاز اليها من دمياط .

تجمعت فى عكا ثم أبحرت فى اسطول ضخم الى دمياط بقيادة جان دى برين ملك مملكة بيت المقدس التى لم يكن فى يده منها سوى ثغر عكا وشاركه فى القيادة نائب عن البابا اسم الكاردينال بلاجيوس وكان يحكم مصر فى ذلك الوقت الملك الكامل محمد الأيوبى نيابة عن أبية السلطان العادل الذى كان يحارب الصليبيين فى الشام .

ثم نزل الصليبيون فى البر الغربى لمدينة دمياط (جيزة دمياط) وشرعوا فى مهاجمة برج دمياط وقطع سلاسلة لتمر مراكبهم فى بحر النيل .

ونهض الملك الكامل فأرسل الأساطيل الى دمياط وصار يركب كل يوم عده مرات من العادلية الى دمياط لتدبير الأمور وأعمال الحيلة فى مكايدة الفرنج واستمر برج السلسلة يقاوم هجمات الصليبين أربعة أشهر ثم تمكن الفرنج آخر الأمر من الأستيلاء عليه بعد أن أقاموا برجا ضخما على بطسة كبيرة ، سهل لهم التغلب على المقاومة المصرية .

وقد كان لهذا الحادث وقع اليم فى نفوس المسلمين حتى إن العادل حينما بلغة خبره وهو بمرج الصفر بالقرب من دمشق تأوه تأوها شديدا ودق بيده على صدره أسفا وحزنا ومرض من ساعته ثم مات بعد أيام قليله .

السلطان الكامل محمد (٦١٥ ـ ٦٣٥ هـ / ١٢١٨ ـ ١٢٣٨م)

استقل الملك الكامل بملك مصر بعد وفاة ابية وأخذ يعمل على عرقلة تقدم الأسطول الصليبى فى النيل بعد أن حطمت سلسلة البرج فنصب عوضا عن السلاسل جسرا من السفن فى عرض النيل ولكن الفرنج قاتلوا عليه قتالا شديدا حتى نجحوا فى قطعه واختراقه عند ذلك أمر الكامل بتغريق عدة من مراكبة فى النيل فاستحال بذلك على السفن الصليبية التقدم جنوبا .

واحتال الفرنج على هذا الاجراء بأن حفروا فرعا قديما من فروع النيل يسمى الخليج الأزرق كان يأخذ مياهه من فرع دمياط عند بلدة بوره[1] ويصب فى البحر المتوسط شمالا فأعاد الصليبيون حفره من الرمال التى طمرته وصارت مراكبهم تجرى فيه من البحر الى بلدة بورة التى تواجهها على الضفة المقابلة منزلة العادلية حيث يعسكر السلطان الكامل وبهذا اصبح الجيشان الأيوبى والصليبى وجها لوجة لا يفصل بينهما الا ماء النيل ودارت بين الفريقين معارك بحرية استطاع المصريون خلالها اسر مرمة (سفينة كبيرة) للفرنج كانت من عجائب الدنيا لا تعمل فيها النار لأنها مصفحة بالحديد وفيها من المسامير ما زنة الواحد منها خمسة وعشرون رطلا [2] .

واستمر الحال على هذا الوضع بضعة أشهر كانت دمياط خلالها فى مأمن من العدو اذ كان النيل يفصل بينهما والامدادات تصلها بسهوله من العادلية ولكن الظروف سرعان ما تغير الأحوال اذ وقعت مؤامرة في معسكر السلطان كان هدفها خلع الكامل وتولية أخية الفائز واكتشف الكامل المؤامرة فى حينها ولكنه خشى على نفسه منهافترك معسكرة ليلا وانسحب جنوبا الى أشموم طناح وهى أشمون الرمان حاليا بمركز دكرنس وحينما علم الجند بأنسحاب قائدهم لحقوا به تاركين خيامهم وأثقالهم بالعادلية وانتهز الصليبيون هذه الفرصة فعبروا النيل الى البر الشرقى

---

(١) بورة بلدة مندرسة على الضفة الغربية جنوب غرب دمياط ينسب اليها السمك البورى ، ومكانها اليوم قرية كفر البطيخ والظاهر أنه لكثرة زراعة البطيخ بأراضيها اشتهرت به فتلغب اسمه عليها واختفى اسم بورة (محمد رمزى القاموس الجغرافى للبلاد المصرية جـ١ ص١٧٦، ١٧٩) .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ١ ، ص ١٩٥ ..

واستولوا على معسكر العادلية وما فية من ذخائر ثم صعدوا شمالا إلى مدينة دمياط وأحدقوا بها من البر والبحر فى يناير سنه ١٢١٩م.

وأستطاع السلطان الكامل فى ذلك الوقت أن يتغلب على المؤامره التى قامت ضده وأن يطرد زعماء المتآمرين من بلادة أمثال أخية الفائز والأمير الكردى عماد الدين بن المشطوب ثم نهض لمحاربة الصليبيين وفك الحصار عن دمياط .

وحاول السلطان الأتصال بأهل دمياط ليرفع من روحهم المعنوية فعهد الى جندى من رجال حرسه يسمى شمايل أن يقوم بهذه المهمة الخطيرة فكان يسبح فى النيل بعيدا عن أعين الصليبيين الذين أمتلا النيل بمراكبهم فيدخل الى مدينة دمياط ويقوى قلوب أهلها ويعدهم بوصول النجدات ثم يعود الى السلطان بأخبارهم (١) .

وظلت دمياط تقاوم ما يقرب من سنة حتى أستبد الجوع بأهلها وتفشت الأمراض والأوبئة فيهم ، فانهارت مقاومتهم واستولى الصليبيون على المدينة وعاثوا فيها فسادا فى نوفمبر سنه ١٢١٩م(شعبان ٦١٦هـ) .

وكان السلطان الكامل فى ذلك الوقت مخيما عند رأس بحر أشمون طناح (البحر الصغير حاليا) فى المنزلة التى عرفت بعد ذلك باسم المنصورة تيمنا بانتصارة (٢) وكانت النجدات والأمدادات تصل اليه باستمرار بقيادة اخوتة وأقربائة امراء الأيوبيين فى الشام الى جانب المصريين والعربان من

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ١ ، ص١٩٨ وقد كافأ السلطان هذا البطل الفدائى بولاية القاهرة بعد ذلك ، والية تنسب خزانة شمايل .

(٢) تقع مدينة المنصورة على الشاطئ الشرقى لفرع دمياط وكانت فى أيام مؤسسها السلطان الكامل وولدة محاطة بالأسوار والآلات الحربية والستائر ثم أخذت تنمو حتى صارت من أمهات المدن المصرية .

أهل القاهرة ومصر وسائر النواحى حتى أسوان ونودى بالنفير العام بألا يبقى أحد فاجتمع من المسلمين المجاهدين عالم لا يقع عليه حصر [١].

كذلك وصلت الى الصليبيين فى دمياط امدادات وفيرة من اوربا والأماراتالصليبية فى الشام فلما تكامل جمعهم تقدموا من دمياط بجيوشهم وأساطيلهم ونزلوا جنوبا تجاه بلدة طلخا شمالى المعسكر الإسلامى بحيث صار لا يفصل المعسكرين سوى قناه أو بحر أشموم طناح. ثم التحم الفريقان فى قتال عنيف بالبر والبحر وقامت البحرية الأيوبية النيلية بدور هام فى تلك المعارك اذا يروى المقريزى أن الأسطول المصرى بقيادة الأمير بدر الدين ابن حسون تقدم فى مائة شينى وحراقة كبيرة فى بحر المحلة ـ وهو فرع قديم كان يخرج وقت ذاك من النيل قرب بنها ثم يتصل بالنيل ثانية شمالى طلخا والمنصورة أى قرب ميدان القتال وأستطاع أن يقطع الطريق على السفن الصليبية القادمة من دمياط بالميرة والذخائر الى ميدان القتال وأن يستولى على عدد كبير منها برجالها وأسلحتها وميرتها [٢].

ويضيف المقريزى أن السلطان الكامل استغل فرصة زيادة النيل فى ذلك الوقت ، وأمر جماعة من المسلمين بعبور بحر المحلة فى الأرض التى يعسكر عليها الفرنج ويفتحوا هناك مكانا عظيما فى النيل فلم يشعر الفرنج الا والماء قد غرق الأرض التى هم عليها وحال بينهم وبين الرجوع الى دمياط وأصبحوا وليس لهم جهة يسلكونها سوى جهة واحدة ضيقة عند بحر أشموم طناح ، سدها الكامل بعدد من جنوده فأنحصر الصليبيون من سائر الجهات ، وأدركوا أنهم خسروا المعركة فلاذوا الى طلب الصلح

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ـ ص ٢٠٢ .

(٢) المقريزى ك السلوك جـ ١ ق ١ ص ٢٠٣ – ٢٠٧ .

وبعثوا الى السلطان الكامل يطلبون الأمان لأنفسهم وأنهم يسلمون دمياط بدون قيد أو شرط وقبل السلطان هذ العرض وقد كان فى مقدوره ابادتهم ودخلت الجيوش الأيوبية دمياط سنه ١٢٢١م (٦١٨هـ) [1] .

وفى عهد السلطان الكامل كانت الحملة الصليبية العجيبة على بيت المقدس التى قادها امبراطور المانيا ومملكة الصقليتين (صقلية ونابولى) فردريك الثانى وهى الحملة المعروفة بالسادسة وكان قوامها ستمائة جندى فقط ولم ترق فيها قطره من الدماء وذلك لأن الامبراطور فردريك توصل الى عقد معاهدة مع السلطان الكامل سنه ٦٢٦ هـ (١٢٢٩م) استولى بمقتضاها على بيت المقدس بدون قتال .

وفى خلال هذه الزيارة توطدت الصداقة بين الأمبراطور فردريك وبين السلطان الكامل وعدد من الأمراء وكبار رجال الدولة وعلمائها مثل الملك الأشرف موسى شقيق السلطان الكامل والأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ والقاضى شمس الدين قاضى العسكر الذى صحب الامبراطور أثناء اقامته فى الشام .

وبعد عودة الامبراطور الى بلادة أهدى الى الملك الأشرف موسى دبا أبيض فأرسل له السلطان الكامل جملة من الحيوانات الغريبة من بينها فيل أثار اعجاب الناس أما الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ فقد سافر الى الامبراطور كرسول للملك الكامل وتوطدت بينهما صداقة وثيقة وقد حفظ لنا المؤرخ الحموى محمد بن نظيف فى كتابة « التاريخ المنصورى »

(نشر فى موسكو ١٩٦٠) عددا من الرسائل التى أرسلها الأمبراطور الى الأمير فخر الدين وهى تتضمن معلومات هامة عن أخبار الأمبراطور وأخبار دولتة .

وكان فردريك الثانى شغوفا بالعلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية وكثيرا ما كانت تعترضه

---

(١) روى المقريزى أن الف مركب صليبية قدمت نجدة الى دمياط بعد أن تسلمها المسلمون فكان ذلك صنيعا من الله سبحانة وتعالى ودليلا على ذكاء السلطان الكامل وبعد نظرة السياسى.

فيها مشكلات علمية ولا يجد من العلماء المحيطين به من يقدم له حلا شافيا لها فكان يرسلها الى اصدقائه من ملوك المسلمين لعرضها على علماء بلادهم والأجابة عليها من ذلك مثلا المسائل الرياضية والفلسفية التى أرسلها الى الملك الكامل والتى أجاب عليها العالم الرياضى المصرى علم الدين قيصر الاسفونى (نسبة الى اسفون وهى قرية بالصعيد فبعث بها اليه الملك الكامل مع كتاب فى علم الفلك على سبيل الهدية كذلك أرسل فردريك الثانى مجموعة من الأسئلة الفلسفية الى الفيلسوف المتصوف الأندلسى ابن سبعين وهى مسائل عن الكون والنفس والعلم الالهى . . . الخ أجابة عليها ابن سبعين وقد عرفت هذه الاسئله بالمسائل الصقلية لأن الأمبراطور كان مقيما فى صقلية.هذا ولم تقتصر عظمة الكامل على الأنجازات الحربية والسلمية التى حققها مع الغرب المسيحى ، بل نجده يسارع إلى ارسال عشرة آلاف جندى من مصر الى بغداد سنة ٦٣٥هـ للمساعدة فى صد التتار بناء على طلب الخليفة العباسى المستنصر . وهو بهذا العمل يبين لنا مدى اهتمام مصر بالدفاع عن بغداد قبل سقوطها فى ايدى التتار بواحد وعشرين سنة (١) .

ثم توفى الكامل سنة ٦٣٥هـ(١٢٣٨) وخلفه على عرش مصر ابنه الأصغر وهو العادل الثانى وبقى ابنه الأكبر وهو الصالح ايوب على ولايته بالبلاد الفراتية لأن أم العادل أردات أن يكون أبنها سلطانا فكان لها ما أرادت غير أن المماليك الكاملية لم يرضوا عما تم فحالفوا الأشرفية ومقدمهم عز الدين أيبك الاسمر وما زالوا حتى أنتهزوا فرصة خروج العادل الصغير لمحاربة قريبه صاحب الكرك فقبضوا عليه فى بلبيس وخلعوه سنة ٦٣٧هـ(١٢٤٠م) ولم يتحرك لنصرة العادل الصغير الا الأكراد الذين سرعان ما أنهزموا على يد المماليك الكاملية والأشرفية من الأتراك (٢) .

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٥٧ - ٢٥٨، قريال قطان : الحجاز فى ظل الدولة الأيوبية صـ٢٥١

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٩٤ - ٢٩٠ .

ومن هذه الحادثة يتبين مدى تفوق القوة المملوكيه التركيه على القوة الكردية فى دولة بنى أيوب .

ولم تكن اصبع الصالح أيوب صاحب الحق فى العرش بعيدة عن تلك الحوادث غير أن الكاملية والأشرفية الذين اتفقوا على خلع العادل الصغير اختلفوا بينهم حول خلفة ومال الأشرفية الى سلطنة اسماعيل ابن العادل الأول صاحب دمشق وعم الصالح أيوب على حين مال الكاملية وهم أقوى شوكة الى الصالح أيوب ، فلم يسع الأشرفية الا موافقتهم وأستدعى الصالح أيوب أخيرا لتولى السلطنة فى مصر فدخلها سنة ٦٣٧هـ (١٢٤٠م) [١] .

وكيفما كان الأمر فالمهم هنا هو أن المماليك بلغوا من القوة فى الدولة الأيوبية ما جعلهم يخلعون سلطانا ويقيمون آخر .

السلطان الصالح أيوب (٦٣٧ -٦٤٧هـ / ١٢٤٠ - ١٢٤٩م)

وعنى الصالح أيوب منذ تبوئة عرش مصر بالأكثار من شراء المماليك الاترك الى درجة لم يبلغها غيره من أهل بيته حتى صار معظم جيشه منهم [٢] ، بعد أن ظل عنصر الأكراد الأحرار عدة الدولة الأيوبية منذ نشأتها والسبب فى ذلك يرجع الى خوف الصالح أيوب من اجتماع الملوك الأيوبيين ضدة بزعامة عمه أسماعيل وخشية من انقلاب الكاملية والأشرفية عليه اذا رجحت لديهم كفة اعدائه [٣] هذا ، ويبدو ان الصالح

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٣٧ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص٢٩٦ .

(٢) ابو الفداء ك المختصر فى أخبار البر جـ ٣ ص ١٨٨ ابن اياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٧٠، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٣٩- ٢٤٠ .

(٣) ابن واصل مفرج الكروب ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

أيوب لم يستكثر من المماليك فحسب بل أنه اباح لهم الحرية دون غيرهم من الطوائف الأخرى حتى ضج الأهلون من عبثهم واعتداءاتهم على النفس والمال [1] .

عند ئذ رأى الصالح أيوب أن يعدهم عن العاصمة فابتنى لهم سنة ٦٣٨هـ(١٢٤١م) قلعة خاصة بجزيرة الروضة قرب المقياس وأسكنهم بها كما اتخذها مقرا لملكه وزودها بكثير من الأسلحة وآلات الحرب وما يحتاج اليه من الغلال والمؤن وعرف هؤلاء المماليك الجدد بأسم المماليك البحرية الصالحية [2] والمماليك البحرية مثل غيرهم من المماليك السابقين واللاحقين أبعد ما يكونون من الخجل من أصلهم أو فصلهم أو نشأتهم بل طالما افتخروا بأنهم مماليك لأن علاقة المملوك بسيده فى الشرق عامة علاقة عائلية أكثر منها علاقة عبودية ولم يحل ذلك الأصل دون تربيتهم تربية طيبة وأعدادهم أحسن اعداد لوظائف الحكومة والأدارة والجيش غير أن المراجع المعاصرة لا تشرح طرق التربية التى سار عليها الأيوبيون فى تنشئة المماليك بل ليس لدينا فى ذلك الصدد سوى ما كتبة المقريزى فى وصف ما جرت عليه الدولة المملوكية نفسها فى تربية مماليكها بعد ذلك. على أن الاعتماد هنا على مبدأ تطبيق المتأخر على المتقدم يدعو الى الاطمئنان إذا المعروف أن الدولة المملوكية وليدة الأيوبين ونظمها من

(١) قال فى ذلك أحد الشعراء المعاصرين (ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣١٩) :

الصالح أيوب أكثر من ... ترك بدولته ياشر مجلوب
قد أخذ الله أيوبا بفعلته ... فالناس أصبحوا فى ضر أيوب

والضر هنا اشارة الى قولة تعالى وأيوب اذ نادى ربه انى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين (سوره الأنبياء)

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١١٦ ، ٢١٧ .

نظمهم ، ولا محل للتردد فى القول بأن الصورة التى أوردها المقريززى فى شرح تربية المماليك على عهد الدولة المملوكية لا يمكن أن تخرج عن الصورة التى درج عليها الأيوبيون فى تربية مماليكهم ، ماعدا ما يكون هناك من التعديلات التفصيلية التى أدخلها سلاطين المماليك أنفسهم ، فأذا قدم بالمملوك تاجره، عرضه على السلطان فيشتريه ويجعله فى طبقة جنسه ، ويسلمه الى المختص برسم الكتابة فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج اليه من القرآن الكريم ولكل طائفة فقيه يأتيها كل يوم ، ويأخذ فى تعليمها القرآن ومعرفة الخط والتمرين بآداب الشريعة الاسلامية وملازمة الصلوات والأذكار وصار الرسم إذ ذاك الا تجلب التجار الا المماليك الصغار فاذا صار الى سن البلوغ أخذ فى تعليمة فنون الحرب فى رمى السهام ولعب الرمح ونحو ذلك ، فيتسلم كل طائفة معلم حتى يبلغ الغاية من معرفة ما يحتاج إليه ،وإذا ركبوا الى لعب الرمح أو رمى النشاب لا يجسر جندى ولا أمير أن يحدثهم أو يدنومنهم عند ذلك ينقل الى الخدمة وينتقل فى أطوارها رتبة بعد رتبة الى أن يصير من الأمراء فلا يبلغ هذا الا وقد تهذبت أخلاقه ، وكثرت أدابه وأمتزج تعظيم الاسلام وأهله بقلبه ، وأشتد ساعده فى رماية النشاب وحسن لعبه بالرمح ومرن على ركوب الخيل ،وقد كان لهم خداما وأكابر من النواب يفحصون الواحد منهم فحصا شافيا ويؤاخذونة أشد المؤاخذة ، ويناقشونه على تحركاته وسكناته فان عثر أحد مؤديه الذى يعلمه القرآن أو رأس النوبة الذى هو حاكم عليه ، على أنه اقترف ذنبا ، أو أخل برسم أو ترك أدبا من آداب الدين أو الدنيا ، قابله على ذلك بعقوبة شديدة بقدر جرمة فلذلك كانوا سادة يدبرون الممالك وقادة يجاهدون فى

سبيل الله وأهل سياسة يبالغون فى أظهار الجميل ويردعون من جار أو تعدى[1] .

ويعلل القلقشندى سبب قوة هذا النظام المملوكى لكونة خلاصة الأنظمة المملوكية السابقة وحصيلة تجاربها فيقول ودأبت سلطنة المماليك فى مصر على أن تنقل عن كل مملكة سبقتها احسن ما فيها فسلكت سبيله ونسجت على منواله حتى تهذبت وترتبت أحسن ترتيب وفاقت سائر الممالك[2] .

وللمماليك الصالحية النجمية بالقاهرة خانات ودروب وحمامات ومدارس على غرار منشآت المماليك الأسدية والصلاحية نذكر منها المدرسة الغزنوية التى بناها حسام الدين قايماز الصالحى النجمى[3] والخانقاه البندقدارية التى بناها الأمير علاء الدين البند قدارى الصالحى النجمى[4] ومطبخ سكر الأمير فارس أقطاى الصالحى النجمى[5] ، وحمام الرومى بجوار حارة برجوان نسبة الى الأمير سنقر الرومى الصالحى[6] . . الخ وكل هذا يدل على أن الدولة الأيوبية استخدمت المماليك الأتراك استخداما واسعا بدليل كثرة المبانى والعمائر التى شيدها هؤلاء المماليك .

بقيت مسألة تستحق التصحيح فى موضوع المماليك البحرية هى أن معظم المؤرخين السابقين والمحدثين أجمعوا على أن السلطان الصالح نجم

---

(١) المقريزى : الخطط جـ٢ صـ ٢١٣-٢١٤

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ صـ٦

(٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ صـ٣٩٠

(٤) المقريزى : الخطط جـ٢ صـ ٤٢٠

(٥) ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٤ صـ٤٤

(٦) المقريزى : الخطط جـ ٢ صـ ٨٣ .

الدين أيوب هو أول من رتب المماليك البحرية وأول من سماهم بذلك نسبة الى بحر النيل الذى أحاط بثكناتهم فى جزيرة الروضة ، غير أن هذا الرأى لا يستند على أساس صحيح للأسباب الآتية :

أولا : المؤرخون المعاصرون للصالح أيوب أمثال ابن واصل وابى شامة لم يشيروا الى بحر النيل كأصل لكلمة بحرية . هذه النسبة أوردها بعض المؤرخين المتأخرين أمثال المقريزى وأبى المحاسن[1] .

ثانيا : من المعروف أن الفاطميين من قبل ، كانت لهم طائفة من الجند تعرف بالغز البحرية كذلك كان للسلطان العادل الأول ، جد الصالح فرقة من المماليك أسماها البحرية العادلية وهذا يدل على أن الملك الصالح أيوب لم يكن أول من أخترع هذا اللفظ .

ثالثا : يروى الخزرجى أن سلطان اليمن نور الدين عمر بن رسول (ت٦٤٧هـ) الذى كان معاصرا للصالح أيوب فى مصر ، استكثر من المماليك البحرية حتى بلغت عدتهم الف فارس وكانوا يحسنون من الفروسية والرمى ما لا يحسنة مماليك مصر وكان معه من المماليك الصغار قريب منهم فى العدد خارجا عن حلقتة وعساكر امرائة[2] .

هذا النص يدل على أن لفظ بحرية أستخدم فى بلاد اسلامية بعيدة كل البعد عن بحر النيل .

رابعاً : أطلق المؤرخون العرب المعاصرون على بعض الفرق المسيحية العسكرية التى جاءت من أوربا الى الشام أثناء الحروب الصليبية اسم الفرنج الغرب البحرية فيروى أبو شامة أنه فى سنة ٥٩٣ هـ فتح الملك العادل يافا

---

(١) محمد مصطفى زيادة: بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك . مجلة كلية آداب القاهرة ١٩٣٦

(٢) راجع : (الخزرجى العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية جـ١ ص ٨٢)

ومن عجيب ما بلغنى أنه كان فى قلعتها أربعون فارسا من الفرنج البحرية فلما تحققوا نقب القلعة وأخذها دخلوا كنيستها وأغلقوا عليهم بابها وتجالدوا بسيوفهم بعضهم لبعض الى أن هلكوا وكسر المسلمون الباب وهم يرون أن الفرنج ممتنعون فالفوهم قتلى عن آخرهم فعجبوا عن حالهم (١) .

فلفظ بحرية اذن لم يكن جديدا على مصر حينما أنشأ الملك الصالح أيوب فرقتة البحرية ، بل كان لفظا عاما أطلق على المسلمين والمسيحين سواء كما استخدم فى مصر وفى خارج مصر قبل عهد الصالح أيوب وهذا يؤيد القول بأن نسبة هذا اللفظ الى بحر النيل أمر مشكوك فى صحتة .على أن المشكلة الأخيرة فى هذا الصدد هى لماذا سميت هذه الفرق بالبحرية ؟ للأجابة على هذا السؤال يجب أولا أن نشير الى ما قلناه آنفا عن خطأ الفكرة الشائعة بأن لفظ بحرية يرجع الى بحر النيل الذى أحاط بثكنات فرقة البحرية الصالحية بجزيرة الروضة فهذه النسبة لم يذكرها المؤرخون المعاصرون بتاتا ، فضلا عن أن وجود هذا الأسم منذ العهد الفاطمى فى مصر ينفى هذا الزعم أيضا .

وأغلب الظن أنهم سموا بحرية لأنهم جاءوا من وراء البحار إذ جاء فى جوانفيل أنهم يسمون بحرية أو رجال ما وراء البحر (٢) وجوانفيل الذى حارب المماليك البحرية الصالحية فى حملة لويس التاسع وأسر عندهم

---

(١) ابو شامة : الذيل على الروضتين ، نشرة عزت العطار الحسينى تحت عنوان (تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجرى) ص١٠-١١ ,١٥١,٥٢-هذا ويلاحظ أن كلمة « الغرب البحرية » قد تقرأ أيضا « العزب البحرية » أى أنهم كانوا غير متزوجين .

(٢)انظر (Joinville: History Of.Saint Louis,Tr. Joan Evans P,84

وتحدث اليهم روايته لها فيمتها بصفته رجلا معاصرا وشاهد عيان وإذا علمنا أن المماليك البحرية زمن الأيوبيين والمماليك عبارة عن فئة من الغرباء الذين جلبوا من أسواق النخاسة بالقوقاز وآسيا الصغرى وشواطئ البحر الأسود ثم بحر القرم الى خليج القسطنطينية ومنه الى البحر الأبيض المتوسط حيث يسيرون فيه الى ميناء الاسكندرية أو دمياط تأيدت لدينا عبارة جوانفيل (١) .

غير أن فضل جوانفيل لا يقتصر على تفسيره لفظ بحرية التى لصقت بدولة المماليك الأولى بل يتعداه الى تسجيله حوادث الحملة الصليبية السابعة التى جاء على رأسالها لويس التاسع ملك فرنسا للأستيلاء على مصر . ففى تلك الحملة وضحت قيمة المماليك البحرية وحوادثها هى التى مهدت لهم ولدولتهم فى مصر والشام ذلك أنه بينما تستقر الأمور للصالح أيوب فى مصر والشام اذا بالأنباء تصله بأن حملة صليبية فى طريقها الى مصر وأن قائدها الفرنسيس (أى ملك فرنسا المعروف بالقديس لويس) ويقول ابن واصل والمقريزى أن أخبار تلك الحملة بلغت السلطان الصالح أيوب عن طريق الأمبراطور فردريك الثانى هوهنشتاوفن امبراطور المانيا وصقلية وأن رسوله تنكر فى زى تاجر قصد الى حضرة السلطان الصالح أيوب فوجده مريضا بدمشق (٢) .

واذا كان سقوط بيت المقدس فى أيام صلاح الدين سنه ٥٨٣هـ(١١٨٧م) هو الذى بعث الى قيام الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة فان سقوطها فى سنة ٦٤٢هـ(١٢٤٤) فى يد الملك الصالح أيوب

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ صـ ٤٦٩ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ١ ص١٢١ ، المقريزى : السلوك جـ١ ص٣٣١ حاشية ٢ وكذلك King : The Knights Hospitallers in The Holyland P.240

وحلفائة الخوارزمية [١] كان السبب الذى أدى الى الحملة الصليبية المعروفة بالسابعة بقيادة لويس التاسع على مصر [٢] اذ أن أنباء الهزائم التى منى بها الصليبيون عند غزه ، وتسليمهم بيت المقدس والفظائع التى ارتكبها الخوارزميون وصلت أوربا فى كثير من المبالغة المعهودة ، فكان لابد لتلك الأنباء أن تثير الروح الصليبية فى قلب لويس التاسع .

غير أن تلك الحملة تختلف عن الحملة الثالثة وغيرها من الحملات الصليبية عموما فى أنها لم تكن شاملة لمختلف الأوربيين ، بل فرنسية أغلبها من الفرنسيين لأنصراف المانيا وايطاليا وقتذاك الى النزاع الامبراطورى البابوى وفشل لويس التاسع فى ازالة الخلف بين البابا انوسنت الرابع والامبراطور فردريك الثانى. ففى مجمع ليون الدينى وهو المجمع الذى

(١) ويلاحظ ان الجنود الخوارزمية هنا هم فى الأصل جنود جلال الدين خوارزمشاه سلطان الدولة الخوارزمية التى قضى عليها جنكيز خان المغولى وشرد جنودها فصاروا مناسر حربية تحاول الدخول فى طاعة من يريد استخدامها وقد صاهر الصالح أيوب زعيما من زعماء تلك المناسر واسمة بركة خان اذ زوجة اخته من أمة واستعان به ضد الصليبيين واسترداد القدس.

(٢) الواقع ان استرداد بيت المقدس تم أولا على يد الملك الناصر دوواد بن الملك المعظم ابن العادل صاحب الكرك سنة ١٢٤٠م أى بعد اثنتى عشرةسنة من تسليم الكامل له لفردريك الثانى وقد مدحه الشاعر المصرى جمال الدين بن مطروح بقولة :

المسجد الأقصى له عادة ... سارت فسارت مثلا سائرا
اذا غدا به الكفر مستوطنا ... ان يبعث الله له ناصرا
فناصر طهره أولا ... وناصر طهره آخرا

ولكن الصليبين استولوا علية مرة آخرى سنة ١٢٤٢ بمساعدة الناصر داود نفسة نظير تحالفهم معة ضد الملك الصالح ايوب فما كان من هذا الأخير الا أن استجد بصهره بركة خان وجنودة الخوارزمية الذين هزموا القولت المتحالفة فى غزة واستردوا بيت المقدس سنة ١٢٤٤ كما هو فى المتن .

عقد سنة ١٢٤٨م (٦٤٦هـ) للنظر فيما وصل الى البابوية من أخبار الشرق وأعلنت فيه الحملة بقيادة لويس التاسع دعا البابا الى حملة سماها صليبية ضد فرديك الثانى باعتباره خارجا على الكنيسة مقطوعا من رحمتها .

وكانت الفكرة السائدة فى أوربا المسيحية منذ أواسط القرن الثانى عشر الميلادى أنه ما دامت مصر باقية على ماهى عليه من القوة والبأس فان مشاريع الصليبيين فى الشام فاشلة لا محاله ، ولا بد من حرمان الجبهة الاسلامية من تلك القاعدة الحربية الهامة. وأصل تلك الفكرة عمورى الأول صاحب الحملات المشهورة التى مهدت للدولة الأيوبية فى مصر واتخذها حنا برين Jean de Brienne ملك بيت المقدس محورا لسياسة وحملته الفاشلة التى دهمت الشواطئ المصرية سنة ٦١٥هـ(١٢١٨) زمن السلطان الكامل كما جعلها لويس التاسع وسيلة لتحقيق غاياته واحلامة الصليبية ولم تخف تلك الحقيقة على المؤرخ ابن واصل حينما قال . . . ان ملك فرنسا ريدا فرانس حدثته نفسة بأن يستعيد البيت المقدس الى الفرنج . .. وعلم أن ذلك لا يتم الا بملك الديار المصرية .

ثم أبحر الأسطول الفرنسى من ميناء مرسيليا فى خريف سنة ١٢٤٨م الى جزيرة قبرص التى كانت تحت حكم آل لوزجنان Lusignan وهم مسيحون لاتينيون وهناك أقام لويس التاسع مدة الشتاء أجرى خلالها بضعة اتصالات مع المغول بغية تحويلهم الى المسيحية والأستفادة من جهودهم فى تطويق العالم الاسلامى فى الشرق الأدنى (١) وأخيرا ابحرت الحملة من قبرص فى مايو سنة ١٢٤٩م متجهة الى مصر

---

(١) لم ينفذ الخان المغولى هذه الخطة حتى إن الملك لويس التاسع ندم فيما بعد على حسن معاملته لرسله .

بعد أن بلغ عدد رجالها حوالى الخمسين الف محارب وصحب الملك أخوه شارل دى أنجوا Anjou وروبرت دى أرتوا Artois.

وعلم الملك الصالح أيوب أن مدينة دمياط سوف تكون مجاز الصليبيين المفضل فى غزو مصر فعسكر بجيوشه جنوبها فى بلدة أشموم طناح وهى أشمون الرمان بمركز دكرنس فى العصر الحاضر وامر بتحصين دمياط وتزويدها بالذخائر والأسلحة ووضع فيها حامية من عرب بنى كنانة كما أرسل جيشا اليها بقيادة الأمير فخر الدين يوسف وأمره أن ينزل بساحلها الغربى ليحول دون نزول العدو الى الشاطئ فنزل هناك تجاه المدينة وأصبح النيل بينه وبينها .

ثم وصل الاسطول الصليبى الى المياه المصرية قبالة دمياط فى تاريخ ٤ يونية سنة ١٢٤٩م وفى اليوم التالى نزل الصليبيون الى البر الغربى للنيل حيث وقعت بينهم وبين المسلمين مناوشات ، انسحب بعدها الأمير فخر الدين بجيشه وبحامية المدينة الى المعسكر السلطانى بأشموم طناح وجفل أهل دمياط على أثر ذلك خائفين مذعورين وتركوا جسرالسفن الذى يصل بين البر الغربى ودمياط قائما فعبر عليه الصليبون واحتلوا المدينة بسهولة واستشاط السلطان الصالح أيوب غضبا لما وقع فأمر بشنق الكنانيين الذين أرتدوا عن دمياط دون قتال كما تغير على الأمير فخر الدين واشتد فى تأنيبة لدرجة أن بعض الأمراء هموا بقتل السلطان لولا نصيحة فخر الدين لهم بالتريث لأن السلطان مريض بمرض خطير وصائر لأجله عن قريب .

ويعلل المؤرخ الفرنسى المعاصر جوانفيل ، ذلك الانسحاب بأن الأمير فخر الدين راسل السلطان ثلاث مرات بالحمام الزاجل يخبره بنزول الفرنج الى الساحل ولكنه لم يتلق ردا فظن أنه مات وأقر الرحيل بسرعة .ويفهم

من كلام ابن واصل والمقريزى أن الأمير فخر الدين كان يطمع فى سلطنة مصر لنفسة «وأن همتة كانت ترقى الى الملك» فلعل انسحابه كان سبيلا لتحقيق امانية اعتقادا منه بأن السلطان قد مات .

وكيفما كان الأمر فان السلطان اضطر امام هذه الأحداث الى الارتداد بمعسكره الى مدينة المنصورة حيث نزل بالقصر السلطانى على ساحل النيل ورابطت السفن الحربية فى النيل تجاه المدينة ، كما أخذت جموع العربان والجنود المطوعة تفد الى تلك القاعدة الجديده لمواجهة الخطر الداهم .

وصارت العمليات الحربية فى تلك الاثناء مجرد غارات يشنها الفدائيون المسلمون على معسكرات الصليبين واختطاف كل من تصل أيديهم اليه ، فاذا شعر بهم الفرنج ، القوا بأنفسهم فى الماء وسبحوا الى أن يصيروا فى بر المسلمين وكانوا يتحيلون فى اختطاف الفرنج بكافة الطرق التى تثير الدهشة والأعجاب مثال ذلك أن مجاهدا من المسلمين قوربطيخة خضراء وأدخل رأسة فيها ثم غطس فى الماء الى أن قرب من الفرنج فظنه بعضهم بطيخة سائبة فى الماء ولما نزل لأخذها خطفة ذلك الفدائى وأتى به أسيرا الى معسكر المسلمين .

واستمر الحال على ذلك المنوال ستة أشهر من يونيو الى نوفمبر سنة ١٢٤٩م ولويس التاسع ينتظر فى دمياط قدوم اخية الثالث كونت دى بواتييه فلما وصل هذا الأمير عقد الملك مجلسا للتشاور فى أحسن طريقة تسلكة الحملة فأشار البعض بالذهاب الى الاسكندرية [١] لأنها مرفأ طيب

(١) انظر Oman : History Of Art of War in The Middle ages Vol. I .P,54

يمكن أن تأوى اليه السفن ويكون التموين فيه سهلا ولكن الكونت دى أرتوا عارض ذلك الرأى قائلا بضرورزة الذهاب الى أهم مدينة بالقطر المصرى وهى القاهرة ؛ فمن يريد قتل الثعبان فليحطم رأسة أولا ووافق لويس التاسع على رأى أخية [1]

وبينما يستقر الرأى على الزحف صوب القاهره توفى الملك الصالح أيوب فقامت زوجتة شجر الدر [2] بتدبير شئون الدولة بعد أن أخفت خبر موتة خوفا من حدوث فتنة بين صفوف المسليمن وفى الوقت نفسه أرسلت الى ابن زوجها وولى عهده تورانشاه تحثة على الرحيل من ولايته فى حصن كيفا بأطراف العراق والقدوم الى مصر ليعتلى السلطنة بعد أبية .

ثم علم الفرنج بوفاة الصالح ايوب ، فانتهزوا الفرصة وتركوا دمياط زاحفين جنوبا على شاطئ النيل الشرقى لفرع دمياط وسفنهم تسير حذاءهم فى النيل وبعد عدة وقفات فى فارسكور وشارمساح وفارامون ، وصلوا الى بحر أو قناة أشموم [3] طناح فى ١٦ ديسمبر سنة ١٢٤٩م فصار على يمينهم النيل وأمامهم قناة أشموم التى تفصلهم عن معسكرات المسلين القائمة عند مدينة المنصوره ولمواصلة التقدم جنوبا تعين على

---

(١) Joinville : History Of saint Louis tr. by Evans P.54 .

(٢) المصادر المعاصرة وشبة المعاصرة تذكر الاسم كما ورد هنا فى المتن: شجرة الدر أما المراجع المتأخرة فتذكرة بصيغة شجرة الدر ومن الواضح أن تسمية المعاصرين وأشباههم هى الأصح وقد ايد المؤرخون الأوربيون صحة تسميتها بشجر الدر أمثال دائرة المعارف الاسلامية ولين بول وجاستون فيت وكنج وغيرهم .

(٣) هو المعروف اليوم باسم البحر الصغير احد فروع الرى الشهيرة بمحافظة الدقهلية وكان يسمى بحر اشموم نسبة الى مدينة اشموم طناح الواقعة علية راجع : ابو المحاسن النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٢١١-٢٣٢ حاشية رقم ٥) .

الفرنسيين أن يعبروا إما فرع دمياط أو قناة اشموم فاختار لويس التاسع القناه

وما زال حتى دله بعض الخونة على مخائضها مقابل مبلغ من المال فعبرت الخيالة الصليبية دون أن تلقى مقاومة أثناء عبورها[1] ولم يشعر المسلمون الا والفرنج معهم فى المعسكر فانتشر الذعر بين الجند وخرج الأمير فخر الدين يوسف قائد الجيوش المصرية من الحمام وامتطى صهوة جوادة دون أن يلبس درعه ، وحاول أن يلم شمل الجنود الفارين بالهجوم هو وبعض مماليكه على العدو المتقدم ولكن السيوف اعتورته من كل جانب فسقط قتيلا بعد أن تفرق عنه فرسانه واقتحم الصليبيون بقيادة روبرت أرتوا أحد أبواب المنصورة وواصلوا هجومهم فى فصائل صغيرة مبعثرة الى داخل المدينة يقتلون المصريين يمينا وشمالا حتى وصلت طلائعهم الى أبواب قصر السلطان نفسه وانتشرت جنودهم فى أزقة المنصورة حيث أخذ السكان يرمونهم بالحجارة والطوب والسهام .وبينما الكل على ذلك جمعت فرقة المماليك البحرية الصالحية قواها خارج المدينة ثم أطبقت على الفرنج بقيادة الأمير بيبرس البندقدارى فانقلب نصر الصليبيين الى هزيمة ، وأوسعهم المماليك قتلا حتى أهلكوهم عن آخرهم تقريبا بما فى ذلك الكونت أرتوا نفسه الذى لقى بذلك جزاء تهوره وأندفاعه[2] .

وبعد ذلك بقليل وصل ملك فرنسا الى ميدان القتال ونجح فى أقامه جسر على بحر أشموم لتعبر عليه الرجالة ، غير أن الروح المعنوية الجديدة

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٣٤٩ حيث ترد الأقوال الخاصة بمن دل الفرنج على العبور .

(٢) بلغ عدد قتلى الفرنسيين فى تلك الموقعة حوالى ١٥٠٠ فارس .

راجع : Oman : Op . Cit I p350

التى أثارتها موقعة المنصورة (٨فبراير سنه ١٢٥٠م) فى صفوف المسلمين قد طغت على هذا النجاح المؤقت الذى أحرزه الفرنسيون .

وفى اليوم التالى عقد قائد الجيش الامير فارس الدين اقطاى الصالحى مجلس حرب عرض فيه على المسلمين كزاغند [١] الكونت أرتوا قائلا بأنها سترة الملك نفسه وأن شعبا بدون ملك ، جسم بلا رأس ولا يخشى منه خطر، وعلى ذلك سوف نهاجم الفرنسيينَ فى يوم الجمعة انا طاب لكم ذلك ، وفى فجر يوم الجمعة وهو الموافق ١١ فبراير سنه ١٢٥٠م أمر اقطاى أربعة آلاف من فرسانه بالتقدم حتى أحاطوا بمعسكر الفرنج ، وهذا خلاف فرق الاحتياطى الرابطة عن كثب مستعدة للطوارئ وبعد أن أنتهى اقطاى من ترتيب جيوشة تقدم بمفردة راكبا فرسا ليشهد صفوف الصليبين ومراكز القوة والضعف فيها حتى يحرك قواته على أساسها . وشغلت هذه العمليات وقت أقطاى حتى منتصف النهار ثم أمر بقرع النقارات [٢] ومن ثم بدأ الخيالة والمشاه فى الهجوم من جميع النواحى كما لو كانوا يلعبون الشطرنغ على حد قول جوانفيل [٣] واستخدم المماليك النار الاغريقية فى هجومهم ولكن الملك لويس تمكن من الثبات واعاده خط القتال إلى ما كان عليه بعد أن تكبد خسائر فادحة وبذلك تنتهى موقعة المنصورة الثانية ، التى أيقن الصليبيون بعدها أنهم لا يستطيعون البقاء فى

---

(١) الكزاغند : المعطف القصير فوق الزردية ويلاحظ هنا أن المسليمن اختلط عليهم الأمر حينما وجدوا على المعطف الشعار الملكى الفرنسى وهو زهرة الزنبق Fleur de Lis فظنوه معطف الملك نفسة وأن الذى قتل هو لويس التاسع.

(٢) النقارات هى من الآلات الخاصة بموكب السلطنة منذ عهد الفاطميين تحمل فى ركاب السلاطين الى ساحة الحرب فتستخدم فى أصدار الأوامر وفى الايذان ببدء القتال وكانت تحمل على عشرين بغلا ، على كل بغل ثلاث منها مثنى راجع (القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص ٤٧٥ .

(٣) لعل جوانفيل يقصد بلعبة الشطرنغ ان فرسان المسلمين كانوا على شكل درج en echelon

مراكزهم ، وأن عليهم الانسحاب الى دمياط قبل فوات الفرصة [١] .

ثم لم تمض أيام على هذه الموقعة حتى قدم توارنشاه الى مصر (٢٧فبراير سنه ١٢٥٠م) فأعلنت وفاة الصالح أيوب وسلمته شجر الدر مقاليد الأمور وما لبث السلطان الجديد حتى تولى قيادة الجيوش بنفسه وأخذ في تدبير خطة لاجبار لويس التاسع على التسليم وخلاصتها أن يقطع خط الرجعة على الفرنسيين ، لذا أمر تورنشاه بنقل عدة سفن مفصله أجزاء على ظهور الجمال وإنزالها فى النيل وراء الخطوط الفرنسية [٢] وبهذه الوسيلة تمكنت اساطيل المصريين من مهاجمة كثير من السفن الفرنسية المحملة بالمؤن والأقوات والأستيلاء عليها وأسر من فيها ونتج عن ذلك حلول المجاعة بالمعسكر الفرنسى وتفشى الأمراض والأوبئة بين الجنود فساء حالهم واضطر الملك الى طلب الهدنة وتسليم دمياط على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبعض بلاد الساحل الشامى، ولكن المصريين رفضوا هذه الشروط علما منهم بسؤ حالة الفرنج فعول الملك على الأنسحاب تحت جنح الظلام وأمر بأزالة الجسر الذى على قناه أشموم غير أن الصليبيين تعجلوا أمرهم فسهوا عن قطع الجسر فعبر المصريون فى الحال وركبوا أعناق الصليبيين وبذلوا فيهم سيوفهم واستمرت المطاردة حتى فارسكور حيث أحدقوا بالصليبيين من كل جانب فقتلوا وأسروا منهم عددا كبيرا [٣] وغنموا معظم خيولهم وعتادهم وأموالهم وأبلى المماليك

---

(١) انظر Joinvill : cit. P.80

(٢) هذه الخطة أتبعها من قبل جده السلطان الكامل ضد حملة جان دى برين على مصر سنه ١٢١٨م كذلك أوصاه بها أبوه الصالح أيوب فى وصيته التى تركها له قبيل وفاته والتى أوردها النويرى فى كتابه نهاية الارب فى فنون الأدب جـ٢٧لوحة ٨٩ - ٩٣) مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة .

(٣) يقال ان عدد القتلى فى موقعة فارسكور بلغ ثلاثين الفا وقد كتب تورنشاه نفسه هذا العدد فى خطابة الى جمال الدين يغمور نائبة فى دمشق وان كان يبدوا أن هذا التقدير مبالغ فيه .

البحرية الصالحية ولا سيما أقطاى وبيبرس البند قدارى في فارسكور بلاء حسنا حتى أطلق ابن واصل عليهم «داوية الاسلام» اشاره الى ما صار لهم من قوة تشبه فرسان الداوية عند الصليبيين (١) .

أما على الصعيد الشعبى فقد كانت الروح المعنوية عالية والمشاركة الحربية شاملة وقد سبقت الاشارة الى صور منها ويعطينا هنا المؤرخ السكندرى ابو القاسم النويرى صورة حية من أعمال المقاومة الشعبية فى ذلك الوقت فيقول :

حدثنى أحمد الدمياطى عن والده المعروف بابن طهليش قال : كنت أصطاد السمك بدمياط ، فلما كانت وقعة دمياط ، كنت ابن خمس عشرة سنة فكنت أجد الجماعة من الفرنج على ساحل البحر (النيل) خائرين من الجوع فاطرح عليهم الشبكة وأبادرهم بالذبح وأحمل رؤوسهم فى الشبكة وآتى بها السلطان وكان السلطان رسم بأن من آتى برأس أفرنجى يأخذ دينارا ، فأخذت بعدد مامعى أول مرة من الرؤوس عن كل رأس دينارا ثم أعطيت بما جئت به ثانى مرة عن كل رأس درهما وكان غيرى قد أتى بالرؤس فأعطى كما أعطيت فقلت أخذت أولا بكل رأس دينارا وآخذ الآن لكل رأس درهما؟ فقيل رخصت الرؤوس لكثرتها من ذبح المسلمين لهم فصار لكل رأس بدرهم ، وكان ذبحهم هينا على المسلمين بسبب جوعهم ، لأن المسلمين قعدوا لهم على طريق ميرتهم متى يأتونهم بها من عند اصحابهم بدمياط فيقتلونهم

---

(١) فرسان الداوية أو المعبد أو الهيكل Templers من أشهر جماعات الفرسان الدينية ابان الحروب الصليبية التى جمعت بين مبادي الرهبنة ومبادي الفروسية وهذه الطائفة مشهورة ببسالتها وشدة بلائها فى الحروب فلا غرو إن شبه بها ابن واصل فرقة المماليك البحرية الصالحية .

ويأخذون الميرة منهم فجاءت الفرغ الذين يقاتلون المسلمين وانحلت عزائمهم عن القتال ، وكسرت الخولة عليهم الجسور فغرقوا بماء النيل وأسر منهم نحو سبعين الف نفر حتى ملكهم الفرنسيس (١) .

ولم يشأ لويس التاسع أن ينجو بنفسه رغم الحاح الدوسنطاريا عليه ، بل قرر الأقامة مع المؤخرة كي « يحمى أصحابه » على قول ابى المحاسن ولذلك تمكن المصريون من أسره وأسر من معه من الأشراف والفرسان فى قرية منية أبى عبدالله (٢) شمالى المنصورة ببضعة أميال ثم سيق لويس التاسع الى مدينة المنصورة حيث سجن بدار القاضى فخر الدين ابراهيم بن لقمان (٣) .

وهكذا وصلت الحملة الصليبية المعروفة بالسابعة الى نهايتها الفاشلة بفضل المماليك البحرية ولم يبق الا المفاوضات من أجل الصلح .

ولا شك أن فشل هذه الحملة الصليبية يدل دلالة واضحة على جهل الصليبيين بجغرافية البلاد المصرية ، فقد كان الأجدر بهم اتباع طريق الصالحية - بلبيس الذى سار فيه أكثر غزاة مصر مثل قمبيز

---

(١) راجع (محمد بن قاسم النويرى السكندرى : كتاب الالمام بالاعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى وقعة الاسكندرية (مخطوط رقم ٦٦٧ بكلية الآداب جامعة الاسكندرية) . وقد نشره الدكتور عزيز سوريال فى ٧ أجزاء فى حيدر أباد سنة ١٩٧٦ .

(٢) منية ابى عبد الله قرية لا تزال موجودة الى اليوم على الشاطئ الشرقى لفرع دمياط وهى التى تعرف بأسم ميت الخولى عبدالله أحدى قرى مركز فارسكور بمحافظة الدقهلية .

(٣) قال الشاعر المعاصر جمال الدين يحيى بن مطروح محذرا الفرنسيين بعد هذا الفشل :

وقل لهم إن اضمروا عودة ... لأخذ ثأر أو لقصد صحيح

دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باق والطواشى صبيح

انظر (ديوان ابن مطروح ص ١٨١-١٨٢ هذا ولا تزال دار ابن لقمان معروفة بالمنصورة بجوار جامع الشيخ الموافى .

والاسكندر وعمرو بن العاص ، وسليم الأول ، بدلا من هذا الطريق المعقد الذى قادهم الى وسط الدلتا حيث كان عليهم عبور النيل بفروعه وقنواته المتعددة .

على أن الشئ الذى يؤسف له حقا هو أن شعور المسلمين بزوال خطر الفرنج قد حول بأسهم فيما بينهم بعد أن كان على عدوهم فاضطرمت المنازعات الداخلية وحيكت المؤامرات السياسية التى أدت الى زوال دولة وقيام أخرى. ذلك أن تورنشاه كره المماليك البحرية لأمر لم تشرحه المراجع شرحا وافيا ما عدا أن تورنشاه كان فتى عنيف الأهواء ورث عن أبية الكآبه والكبرياء مما نفر منه أمراء المماليك وأنه ارتاب فى المماليك البحرية الصالحية وتوجس خيفة من نفوذهم فأعرض عنهم وقرب اليه مماليكه وحاشيته الذين جاءوا معه من الشرق واحلهم محل البحرية الذين صاروا موضع اضطهاده ووعيده . فكان إذا سكر بالليل جمع أمامه الشموع وضرب رؤوسها بالسيف حتى تنقطع ويقول . هكذا أفعل بالبحرية ويسمى كل واحد منهم باسمة ولذا نقموا عليه وأضمروا له السوء

ثم وعد تورنشاه الأتابك أقطاى بولاية الإسكندرية ولكنه لم يف بوعده بل قيل أنه عزم على أرساله بشيرا بالنصر الى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وأنه أراد بذلك أن يقبض عليه بدر الدين ويعتقله فى بعض القلاع ، فتنكر أقطاى لتورنشاه وصار يتربص به الدوائر وقيل كذلك أن السلطان أراد أن يرسل جماعة من المماليك بأخبار النصر الى ملوك البلاد المجاورة ليبعدهم عن القاهرة ففطنت المماليك الى حيلته وعلموا أنه يريد التخلص منهم .

ولم يقتصر تورنشاه على مناوأة أمراء جيشة وكبار دولتة بل تنكر لشجر الدر التى يدين لها بعرشه فبعث اليها يتهددها ويطالبها بمال أبية

فكانت تجيبة بأن الأموال صرفت كلها فى شئون الحرب وشئون البلاد العامة ويقال إنها داخلها منه خوف شديد فمضت الى القدس حينا من الزمن مخافة غدره ، كما كتبت الى البحرية تشكو لهم من مسلكه الخشن نحوها رغم الخدمات الجليلة التى أدتها له وقت غيابه عن مصر ، وكان المماليك البحرية الصالحية يخلصون لشجر الدر لأنها من حريم استاذهم الذى اشتراهم ، وبحكم الزمالة التى تربطها وأياهم وهى المعبر عنها فى المصادر المعاصرة بلفظ الخشداشية ، وهى من أقوى الروابط التى كان لها أثر فى تطورات التاريخ المملوكى .

كل هذه الأمور جعلت المماليك يحنقون على السلطان تورنشاه ويجمعون على قتله والتخلص منه من قبل أن يبطش بهم وقام بتنفيذ هذه المؤامرة أربعة من الأمراء منهم فارس الدين أقطاى وبيبرس البند قدارى وفى صباح يوم الأثنين الموافق ٢ مايو سنة ١٢٥٠م -(٢٧ محرم سنه ٦٤٨هـ) بعد فراغ تورنشاه من طعام افطاره فى خيمته بفارسكور تقدم اليه بيبرس البندر قدارى وضربه بسيفة ضربة تلقاها بيده فقطعت أصابعة والتجأ تورنشاه الى البرج الخشبى الذى أقامه على النيل ليمضى فيه بعض وقته أثناء اقامته بفارسكور واحتمى بأعلاه ، وأغلق على نفسة الباب فتبعه بيبرس وأقطاى وغيرهما من زعماء البحرية وقالوا :

« بعد جرح الحية لا ينبغى الا قتلها »وأحاطوا البرج وأضرموا النار فيه فنزل منه تورنشاه وهو يصيح مستنجدا : خذوا ملككم ودعونى أعود الى حصن كيفا فلم يغثة أحد فأخذ يركض نحو النيل ونبال المماليك تأخذة من كل جانب حتى القى بنفسه فى الماء على أمل أن يسبح الى أحدى سفنه الراسية ليعتصم بها ولكن سرعان ما لحق به أقطاى فقتله

ومما يدعوا الى الالتفات هنا أن مقتل تورنشاه وقع أمام رجال الجيش دون أن يحرك منهم أحد ساكنا لأنقاذة . مما يدل على أمتلاك المماليك زمام الموقف ، وكان ابوعز الدين رسول الخيفة العباسى موجودا فى المعسكر فعارض فى مقتل السلطان ويقال ان تورنشاه أخذ يستغيث به من أعلا البرج يقول : يا أبا عز الدين أدركنى وتكرر ذلك فركب ابو عز الدين فى أمره وكلمهم فيه فقبض عليه المماليك البحرية وهددوه بالقتل اذا تدخل فى الأمر ويروى أبو شامة أن المماليك هددوه بأخراق حرمة الخلافة ولا ندرى ماذا يعنى ابو شامة من وراء هذه العبارة (١) ولعله يعنى اخراج مصر عن دائرة النفوذ الدينى لخليفة بغداد ، والدعاء لخلافة أخرى غير الخلافة العباسية كخلافة الموحدين مثلا فى المغرب .

ثم انتشلت جثة السلطان من النيل وتركت على شاطئه ثلاثة أيام حتى تقرر دفنها فى مكانها (٢) وبموت تورنشاه ينتهى عصر دولة الأيوبين فى مصر .

بعض المظاهر الحضارية فى عصر الدولة الأيوبية :

رأينا مما تقدم كيف كانت الدولة الأيوبية دولةاسلامية مجاهدة من بدايتها الى نهايتها فقد اقترنت بدايتها بنصر حطين الذى استردت فيه بيت المقدس ،كما اقترنت نهايتها بنصر المنصورة الذى طردت فيه المستعمرين الفرنسيين بقيادة ملكهم لويس التاسع من الأراضى المصرية غير أن هذا الجانب العسكرى المنتصر كان يواكبة جانب آخر حضارى مزدهر فى شتى

---

(١) ابو شامة : الذيل على الروضتين ص ١٨٥ .

(٢) يروى ابو شامة نقلا عن كلام والى القاهرة أنه بعد مقتل السلطان تورنشاه رمى فى جرف على حافة البحر (النيل) وردم عليه التراب فبقى هناك ثلاثة أيام ، ثم كشفة الماء فجوه مراكبى فى الماء بصنارة كانه حوت إلى أن وصل إلى الشاطئ الآخر فدفنه هناك .

ميادين العلم والمعرفة .

من المعروف أن الأيوبيين كانوا أكرادا بأصلهم ونسبهم ولكنهم فى الوقائع كانوا عربا بثقافتهم وتربيتهم ونشأتهم فقد نشأوا نشأة عربية اسلامية وأمتزجوا بها ولهذا شغفوا حبا باللغة العربية وآدابها وعلومها وقربوا اليهم الشعراء والعلماء والكتاب وشملوهم بعطفهم وكرمهم وهباتهم وخلعهم فأكتظت مجالسهم بأهل العلم والأدب .

ولقد تميز العصر الأيوبى بطابع خاص وهو طابع الجهاد والكفاح ضد الصليبين ومن ثم كان من الطبيعى أن تنعكس تلك الصورة فى نفس الشعراء والكتاب فى جميع أنحاء الشرق العربى ، فانطلقت السنتهم واقلامهم تشيد باللانتصارات وأعمال البطولة وتمدح أبطالها المدافعين عن حوزة الاسلام وتعبر عن أمانيها وآمالها بمستقبل أفضل .

وكان صلاح الدين نفسة يتذوق الشعر ويردد بعضه فى مجالسه ويميز الجيد من الردئ منه .كذلك كان ملما الماما كبيرا بأحكام الشريعة وأصولها وله مساجلات أيضا مع الفقهاء والعلماء فى هذا الصدد .

وما يقال عن صلاح الدين يقال أيضا عن أفراد أسرته فأخوه العادل كان يميل الى العلم والعلماء ونخص بالذكر منهم العالم الفيلسوف فخر الدين الرازى الذى صنف له بعض كتبه وأرسلها له من خراسان وهناك الملك المؤيد مسعود بن صلاح الدين صاحب اليمن الذى كان مغرما باقتناء الكتب حتى اشتملت مكتبتة على آلاف الكتب كذلك الملك المعظم عيسى بن العادل صاحب دمشق الذى وهب لكل من يحفظ كتاب المفصل للزمحشرى مائه دينار وخلعة كما أنه طلب من الأديب الفارسى قولم الدين الفتح بن محمد البندارى الأصفهانى ترجمة كتاب

الشهنامة لأبى القاسم الفردوس (والشهنامه ملحمة شعرية فارسية تقص أخبار ملوك الفرس القدماء وأساطير هم حتى الفتح العربى) .

والى جانب الملوك والأمراء هناك طبقة الوزراء والكتاب فى ذلك العصر نذكر منهم القاضى الفاضل أبو على محيى الدين اللخمى (ت٥٩٦هـ) وزير صلاح الدين وصاحب الطريقة الفاضلية فى الأنشاء وهناك العماد الأصفهانى (ت٥٩٧هـ) كاتب صلاح الدين ومؤرخة الحربى وصاحب المصنفات الأدبية والتاريخية العديدة مثل : دولة آل سلجقوق (طبوع) والبرق الشامى (مخطوط) وخريدة القصر وجريدة العصر (مطبوع) والفتح القسى فى الفتح القدسى (مطبوع) كذلك نذكر الأمير الفارس أسامة بن منقذ (ت ٥٨٣هـ) أحد أمراء بنى منقذ أصحاب حصن شيرز الذى لازالت أطلاله باقية الى اليوم باسم سيجر على بعد خمسة عشر ميلا الى الشمال من حماة على ضفة العاصى الغربية وبحكم جواره للصليبيين كان لأسامة معهم مشاكل وحروب، وصداقات ونوادر دونها فى كتابه على شكل مذكرات خاصة تحت عنوان كتاب الاعتبار (نشر فيليب حتى) والكتاب يتمضن صورا مقارنة بين عادات المسلمين والفرنجة شاهدها وعاينها أسامة بنفسة . وهناك أيضا المؤرخ بهاء الدين بن شداد (ت٦٣٢هـ) صاحب كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (مطبوع) وتناول سيرة سلطانه صلاح الدين وينبغى أن نفرق بينه وبين سمية عز الدين ابن شداد (ت٦٨٤هـ) الذى عاش بعده بخمسين سنة وفى مدينته حلب والف كتابا فى سيرة سلطانه الظاهر بيبرس بعنوان الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر (مخطوط) وهناك الأديب العالم ضياء الدين بن الأثير (ت٦٢٨هـ) وزير الملك الأفضل ابن

صلاح الدين الذى الف كتبا عديده فى البلاغة وعلم البيان وهو الأخ الأصغر للمؤرخ عز الدين ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) صاحب كتاب الكامل فى التاريخ كذلك نذكر القاضى شمس الدين بن خلكان (ت٦٨١) صاحب كتاب وفيات الأعيان (مطبوع) والمؤرخ الحموى جمال الدين بن واصل (ت٦٩٦هـ) الذى كتب موسوعة عن العصر الأيوبى بعنوان مفرج الكروب فى أخابر بنى أيوب (مطبوع) الذى كان يريد أهداءه الى الملك تورنشاه آخر ملوك الأيوبيين ولكنه لما علم بمقتله عدل عن فكرته .كذلك نذكر ابن أبى أصيبعة (ت٦٦٨هـ) صاحب كتاب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء (مطبوع) وهناك المؤرخ الدمشقى شهاب الدين أبو شامة (ت٦٦٥هـ) الذى كان معاصرا لابن واصل والذى كتب تاريخا هاما لهذا العصر بعنوان « كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية وما وقع من الحروب الصليبية (مطبوع) .

أما شعراء هذا العصر فهم كثيرون ونكتفى بالاشارة الى الشاعر الصوفى المعروف عمر بن الفارض المصرى (ت٦٣٢هـ) ومن قصائده تائيتان كبرى وصغرى وفيها من أغراض الصوفية الشىء الكثير وهناك الشاعر البهاء زهير (ت٦٥٦) الذى عاش فى خدمة الملك الصالح أيوب والشاعر جمال الدين يحيى بن مطروح (ت٦٤٩هـ) وهو من أل صعيد مصر وكانت بينه وبين البهاء زهير مساجلات شعرية وله قصيدة مشهورة يهاجم فيها الفرنسيين ولويس التاسع .كذلك نذكر الشاعر المصرى ابن سناء الملك (ت٦٠٨هـ) الذى الف كتابا عن فنون الشعر المختلفة ولا سيما فن الموشحات تحت عنوان دار الطراز (نشر جودة الركابى) .

وهذه النهضة العلمية والأدبية كان لها مراكز حضارية يشع منها نور العلم والمعرفة مثل مجالس الملوك فى قصورهم وهو ما يعرف ببلاط الأمير

أو السلطان ومثل ديوان الأنشاء أو ديوان المكاتبات السلطانية الذى لا يعين فيه الا ذوو الكفاءات والثقافة العالية والصناعة اللفظية ومثل الرباطات والخوانق (جمع خانقاه) وهى أماكن العبادة والتصوف التى صدرت منها القصائد الصوفية المشهورة ومثل المارستانات أو المستشفيات حيث الطب والأطباء والمؤلفات الطبية ومثل المدارس التى كانت تدرس فيها العلوم العقلية والنقلية وقد سبق أن قلنا أن نظام المدارس نظام استحدثه السلاجقة لنشر المذهب السنى ومكافحة المذهب الشيعى وتهيئة عقول المسلمين لفكرة الجهاد المقدس ثم سار على هذه السياسة نور الدين محمود زنكى ثم صلاح الدين وخلفاؤه فى مصر والشام مع فارق بسيط هو أن نور الدين محمود كان يميل الى المذهب الحنفى بينما كان صلاح الدين يميل الى المذهب الشافعى بصفة خاصة .

ومن المدارس التى أنشأها صلاح الدين فى مصر:

(١) **المدرسة الصلاحية** : التى بناها بجوار مقام الأمام الشافعى وكانت تقوم بتدريس أصول المذهب الشافعى ومكانها اليوم جامع الأمام الشافعى .

(٢) **مدرسة ابن زين التجار** : وهى مدرسة أخرى للشافعية بناها صلاح الدين بجوار الجامع العتيق أو جامع عمروبن العاص وعرفت أولا بالمدرسة الناصرية ثم أشتهرت بمدرسة ابن زين التجار نسبة الى العالم الشافعى أبى العباسى أحمد بن المظفر المعروف بابن زين التجار الذى عكف على التدريس بها مدة طويلة الى أن مات سنة ٥٩١هـ فعرفت بأسمة .

(٣) **المدرسة القمحية** : بناها صلاح الدين بالقرب من جامع عمرو لتدريس الفقة المالكى وأوقف عليها الضياع المغلة للقمح وكانت

مرتبات الأساتذة والمعيدين وجرايات الطلبة تدفع قمحا ولهذا سميت بالمدرسة القمحية .

(٤) مدرسة السيوفية : بناها صلاح الدين لكى يدرس فيها مذهب الامام أبى حنيفة وكانت فى الأصل دار لوزير فاطمى يدعى عباس وكان سوق السيوفيين على بابها فعرفت بمدرسة السيوفية .

(٥) بنى صلاح الدين مدارس سنية فى خارج مصر فى كل من القدس ودمشق والحق بكل منها مارستانا .

وقد لخص ابن خلكان هذه الأعمال بقولة :

«وكان السلطان صلاح الدين لما ملك الديار لم يكن بها شئ من المدارس فان الدولة المصرية (يعنى الدولة الفاطمية) كان مذهبها الامامية ، فلم يكونوا يقولون بهذه الأشياء فعمر صلاح الدين بالقرافة المدرسة المجاورة للأمام الشافعى رضى الله عنه - وبنى مدرسة مجاورة للمشهد المنسوب للحسين بن على - رضى الله عنهما بالقاهرة وجعل دار سعيد السعداء خادم الخلفاء المصريين خانقاه ووقف عليها وقفا هائلا كذلك وقف على كل مدرسة عمرها وقفا جيدا وجعل دار عباس الوزير العبيدى مدرسة للحنفية وأوقف عليها وقفا جيدا أيضا وهى بالقاهرة وبنى بالقصر داخل القاهرة بيمارستانا وأوقف له وقفا جيدا وله بالقدس مدرسة ومارستان وخانقاة ولقد فكرت فى نفسى فى أمر هذا الرجل وقلت : إنه سعيد فى الدينا والآخرة فأنه فعل فى الدنيا هذه الأفعال الشمهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها ورتب هذه الأوقاف العظيمة وليس شئ منسوبا اليه فى الظاهر منها ، فان المدرسة التى بالقرافة ما تسمى الا بالشافعى والمجاورة للمشهد الحسينى لا يقولون الا المشهد والخانقاه لا يقولون الاسعيد

السعداء والمدرسة الحنفية لا يقولون الا السيوفية والتى بمصر لا يقولون الا مدرسة ابن زين التجار والتى بمصر أيضا مدرسة المالكية وهذه صدقة السر على الحقيقة . وكان صلاح الدين مع هذه المملكةالمتسعة والسلطنة العظيمة كثير التواضع واللطف قريبا من الناس رحيم القلب كثير الاحتمال والمداراة وكان يحب العلماء ويقربهم ويحسن اليهم وكان يستحسن الأشعار الجيدة ويرددها فى مجالسة ومثال ذلك أنه كان يعجبة قول الشاعر ابن المنجم المغربى الأصل المصرى الدار والوفاة فى وصف خضاب الشيب :

وما خضب الناس البياض لقبحه واقبح منه حين يظهر ناصله
ولكنه مات الشباب فسودت على الرسم من حزن عليه منا زله

قيل فكان صلاح الدين عند سماعه مات الشباب يمسك كريمته وينظر اليها فيقول : أى والله مات الشباب .

واستمرت عملية انشاء وتعمير المدارس السنية مستمرة فى زمن الأيوبيين سواء فى مصر أو الشام ومثال ذلك المدرسة الفاضلية التى بناها القاضى الفاضل للشافعية بمصر وكذلك المدرسة التقوية التى بناها الأمير تقى الدين عمر الأيوبى للشافعية بمصر ثم هناك مدرسة الظاهر غازى بن صلاح الدين بمدينة حلب وقد دفن بتربتة الملاصقة لها وهناك المدرسة العادلية التى بناها الملك العادل ، أخو صلاح الدين ، بدمشق ، ودفن بها أيضا وهى من أعظم مدارس الشافعية بدمشق ودرس وسكن بها جملة من العلماء نذكر منهم ابن خلكان صاحب كتاب وفيات الأعيان وهى الآن مقر المجمع العلمى العربى بدمشق .

وهناك بدمشق أيضا مدرسة المعظم عيسى بن العادل والمدرسة

العزيزية التى بناها الملك العزيز محمد بجوار مقام والده صلاح الدين بالكلاسه شمالى الجامع الأموى بدمشق .

كذلك نذكر المدرسة الكاملية التى بناها السلطان الكامل محمد بن العادل فى القاهرة بين القصرين ، وكانت تسمى أيضا بدار الحديث الكاملية لأنها اهتمت بدراسة الحديث النبوى بصفة خاصة وكان شيخها زمن الملك الصالح العالم الأندلسى ابا الخطاب عمر بن دحية البلنسى (ت٦٣٢هـ) ، صاحب كتاب المطرب فى أشعار المغرب (مطبوع) .

وأخيرا وليس آخرا نذكر المدارس الصالحية التى بناها السلطان الصالح أيوب سنه ٦٤١هـ بخط بين القصرين أيضا . ولأول مرة فى مصر كانت هذه المدرسة تدرس المذاهب السنية الأربعة معا ، ولهذا سميت بالمدارس والزائر لهذه المدرسة الآن لا يجد بها سوى الوجهة الغربية ، وهى حافلة بالنقوش والكتابات ويتوسطها باب خشبى تعلوه مئذنة أما بقية المدرسة فقد اندرست واغتصب العامة أرضها وبجوار هذه المدرسة توجد تربة الملك الصالح أيوب التى بنتها له زوجته شجر الدر ، وهى تمتاز بدقة وجمال الصناعة الخشبية فيها [١] .

الى جانب المدارس هناك القلاع والحصون التى بناها الأيوبيون وهى كثيرة جدا [٢] ويكفى أن نشير الى أن كل مدينة فى العصور الوسطى تتكون من مدينة ومن قلعة قائمة بذاتها ومستقلة بنفسها عن المدينة التابعة لها حتى أنه فى كثير من الأحيان كانت المدينة تستسلم للفاتحين وتمتنع

---

(١) راجع (النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، نشر جعفر الحسينى) .

(٢) راجع(ابن جبير : تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار المعروفة برحلة ابن جبير نشر حسين نصار الجزء الخاص بالمنشآت العمرانية على عهد الأيوبين)

القلعة عليهم لقدرتها على الدفاع عن نفسها ولا تعتبر المدينة قد سقطت تماما الا بسقوط قلعتها .ومن أهم القلاع التى بناها الأيوبيون قلعة الجبل التى بناها صلاح الدين على ربوة جبل المقطم تشرف منها على القاهرة والفسطاط والنيل والقرافة وكان غرض صلاح الدين أن يتخذها حصنا له ولأسرته من خطر الثورات الداخلية ومن مؤامرات الفاطميين وخلفائهم وكان بدء البناء سنه ٥٧٢هـ(١١٧٦م) وكان المشرف على بنائها وزيره بهاء الدين قراقوش الأسدى الناصرى الذى أحاط القاهرة والفسطاط وما بينهما بسور كبيرا استغل فى بنائة بعض أحجار الأهرام الصغيرة بالجيزة كذلك استعان صلاح الدين بعدد كبير من أسرى الحروب الصليبية فى عمليات البناء ولا سيما فى حفر الخندق المحيط بسور القلعة وهو خندق نقر نقرا فى الصخور بالمعاول وقد أبدى الرحالة المعاصر الأندلسى ابن جبير(ت ٦١٣هـ/١٢١٧م) أعجابة بهذا العمل ولقد استمرت أعمال البناء فى القلعة فى عهد الحكام الذين جاءوا بعد صلاح الدين مثل الكامل محمد بن العادل الذى زاد فى مساحتها وبنى فيها قصورا وهو أول من جعلها مقرا لملكه من الأيوبيين .

ولا يزال يوجد نقش من أيام صلاح الدين باقيا على أحد أبواب القلعة (الباب المدرج) يقول فيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بانشاء هذه القلعة الباهرة المجاورة القاهرة بالعزمة التى جمعت نفعا وتحسينا وسعة على من التجأ الى ظل ملكه وتحصينا ، مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين ابو المظفر يوسف أيوب محيى دولة أمير المؤمنين فى نظر أخية وولى عهده الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد ، خليل أمير المؤمنين على يدأمير مملكته ومعين دولته قراقوش عبد الله الممالكى الناصر ى فى سنة تسع وسبعين وخمسمائة » .

ويلاحظ أن هذه الكتابة مكتوبة بالقلم النسخ الأيوبي وهذا يؤيد ما هو معروف من استعمال الخط النسخى بدلاً من الكوفى فى عهد صلاح الدين أى عند قيام المذهب السنى مقام المذهب الشيعى ولاسيما فى الأبنية .

ومن القلاع الهامة أيضاً قلعة دمشق . وهذه القلعة قديمة جداً ، ولكنها خربت ثم جاء الملك العادل فأعاد بناءها من جديد وفرق أبراجها علي أمراء بنى أيوب فعمروها من أموالهم ، وجددوا مواقع الدفاع فيها على أحدث الطرق الحربية فى زمانهم . وما زالت هذه القلعة رابضة بابراجها ومنشآتها العسكرية إلي الآن .هذا وقد جرت العادة أن يوضع على هذه المنشآت الأيوبية رسم الشعار الذى اتخذه صلاح الدين وهو عبارة عن نسر منفرد الجناحين (مثل شعارنا الآن) . أما العلم الأيوبى فكان من حرير أصفر اللون ومطرز بالذهب وعليه القاب السلطان واسمه . وفى ذلك يقول الشاعر الحسن بن على الشاتانى (نسبة إلى شاتان بديار بكر بالجزيرة) يمدح صلاح الدين :

أرى النصر مقروناً برايتك الصفرا فسر واملك الدنيا فأنت بها أحرى

وكانت هذه الراية الصفراء العظيمة تتقدم الجيش وفى رأسها خصلة من الشعر تسمى الجاليش وهى عادة تركية انتقلت إلى الأيوبيين والمماليك بعدهم عن طريق السلاجقة . ومن الطريف أن هذه العادة أنتقلت أيضاً الى أقصى المغرب مع الجنود الترك والغز الذين دخلوا فى خدمة الموحدين وبنى مرين . وقد أعطانا الوزير الغرناطى لسان الدين بن الخطيب وصفاً لهجوم قام به الجيش المرينى بقوله :

« ثم أردفوا بالناشبة ورماة القسى العربية ، فزحفت راياتهم على شأن

غز المشارقة من المزمار والطبل وحمل جمة الشعر فى أعلا سنان الراية » .

لم يقتصر فضل الأيوبيين على الانتصارات العسكرية والمنشآت العمرانية بل شمل فضلهم أيضاً النواحي الاقتصادية بصفة عامـة .

فالزراعة نمت وازدهرت نتيجة للقنوات والمصارف التى حفرت فى أيامهم بمصر فروت مساحات شاسعة من الأراضى التى لم تكن تصلها مياه من قبل . أما فى الشام فقد ازداد عدد النواعير (السواقى الضخمة) التى كان نظام الري يقوم عليها هناك زيادة كبيرة على عهد الأيوبيين . وقد انتقلت كلمة ناعورة الى اللغات الأوربية بأسم Noria .

وكانت النتيجة أن ازداد انتاج بعض المحاصيل الزراعية فى مصر والشام وصار يصدر ما يفيض منها الى الخارج مثل السمسم والأرز والسكر الذى دخل أوربا لأول مرة وصار يسمى بنفس الأسم تقريباً . ويقال أن الامبراطور فردريك الثانى هو أول من أدخل صناعة السكر فى أوربا عن طريق صقلية ١٢٣٩م ، وأن كنا لا نشك أيضاً فى احتمال انتقال السكر الى أوربا عن طريق المغرب والأندلس حيث عثر الأثريون هناك على مصانع عديدة للسكر يرجع تاريخ أقدمها الى عهد المرابطين فى القرنين الخامس والسادس الهجرى ـ (١١ ، ١٢ ميلادى) كذلك أزدهرت التجارة فى عهد الأيوبيين ، وقد ساعد على نموها الحروب الصليبية نفسها التى كانت لها طبيعة اقتصادية الى جانب طابعها الدينى والحربى .

ومن ثم قام التجار المسيحيون ولاسيما تجار الجمهوريات الايطالية مثل جنوا وبيزا والبندقية بدور الوسيط فى نقل البضائع الشرقية فى سفنهم الى الموانى الأوربية . ولقد استفادت مصر والشام من هذه العمليات التجارية لوقوعهما فى الطريق التجارى القادم من الهند وفارس والعراق وشبه

جزيرة العرب . فكان الحكام الأيوبيون يتقاضون رسوماً على الصادر والوارد من البضائع المارة فى بلادهم .

ولقد أذن الأيوبيون لبعض التجار المسيحيين بالأقامة فى بعض المدن والثغور المصرية والشامية . فكانت هناك جالية عند قنطرة الموسكى بالقرب من القاهرة منذ أيام صلاح الدين ، كما كانت هناك جاليات فى الاسكندرية ودمشق وبيروت وحلب . وكان لهذه الجاليات فنادق خاصة ينزلون فيها مع دوابهم وبضائعهم . وكذلك كان لهم قناصل فى هذه المدن الاسلامية لحماية مصالحهم أمام السلطان الأيوبى حسب المعاهدات التجارية المبرمة بين الطرفين . وكان التجار المسيحيون بدورهم يرون أن من مصلحتهم عدم مضايقة التجار المسلمين ، فسمحوا لهم أيضاً بدخول الموانى الصليبية فى الشام ، كما ضربوا عملة خاصة مثل الدينار الصورى [1] . الذى نقشوا عليه آية قرآنية باللغة العربية كى يقبل المسلمون على التعامل به . ويقال أن البابا أنوسنت الرابع حرم استعماله لهذا السبب . وعندما زار الملك لويس التاسع الامارات الصليبية فى الشام بعد حملته الفاشلة على مصر ، تدخل فى هذه المسألة واستطاع بنفوذه أن يغير الآية القرآنية بعبارة مسيحية تكتب باللغة العربية على الدينار الصورى كى يقبل المسلمون على التعامل به فى الشام والعراق .

ومن أهم البضائع التجارية التى كان الشرق يستوردها من أوربا الخشب والمعادن والرقيق ، بينما كان الشرق يصدر البضائع التى أشرنا إليها آنفاً

(١) الدينار الصورى عملة ذهبية سكها البنادقة فى مدينة صور التى كانت مركزا تجاريا هاما للصليبيين ، بينما يسميه القلقشندى الدينار الصورى (بفتح الواو أى الشخص) لنقش صور أصحابها من ملوك الافرنج على وجه هذه العملة .

وكذلك تجارة التوابل أو البهار التى عرفت بأسم الكارم وكان لها تجار تخصصوا فى بيعها وعرفوا بتجار الكارم أو الكارمية أو الأكارم . وقد اختلف الرأى حول أصل هذه الكلمة فالبعض يرى أنها تعنى العنبر الأصفر ، والبعض الآخر يرى أنها تحريف لكلمة كانم وهى اسم أحدى بلاد جنوب أفريقيا شمال شرق بحيرة تشاد وتنسب اليها جاليات تجارية فى مصر واليمن . وقال فريق ثالث أنها تعنى أكارم التجارة فى عدن . وكيفما كان الأمر فإن هذه الكلمة أطلقت على تجارة التوابل أو البهار .

ولقد بلغ من شدة اندماج التجار المسيحيين فى الحياة الشرقية أنهم قلدوا المسلمين فى حياتهم الخاصة ، فأطلقوا لحاهم ، ولبسوا الملابس الشرقية ، وبنوا منازلهم وكنائسهم على الطراز الشرقى ، واتخذوا الحريم والجوارى والراقصات ... الخ .

كل هذا كان يحدث حتى فى أوقات الحروب بين الطرفين ، فالتجار كانوا يروحون ويجيئون ولا يمس أحد منهم بأذى . وقد نص على ذلك الرحالة ابن جبير عند قوله « واختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الفرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق الى عكا كذلك ، وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يعترض ... وأهل الحرب مشتغلون فى حربهم ، أما الرعايا والتجار فالأمن لا يفارقهم فى جميع الأحوال سلماً أو حرباً » .

وهكذا ازدهرت التجارة والصناعة فى عهد الأيوبيين ، واستفادت أوربا الشىء الكثير من هذه النهضة . فمن دمشق والموصل وصل الى أوربا المنسوجات الحريرية التى عرفت هناك بأسم Damask (دمشق) ، musu-lin (تحريف لموصل) . ومن فارس وصل الى أوربا السجاجيد العجمى

(أى الفارسية أو الإيرانية) ، ولعل كلمة Tapis أو Tapiz مشتقة من كلمة تبريز وهى من أشهر المدن الفارسية .

وصفوة القول إن الدولة الأيوبية تعتبر من الدول الايجابية الفعالة التى قامت بجليل الأعمال فى مختلف الميادين السياسية والعسكرية والاقتصادية والعلمية ولهذا خلدها التاريخ .

الفصل الرابع

أنتقال السلطنة إلى المماليك البحرية الصالحية

يروى جوانفيل قصة غريبة خلاصتها أن أمراء المماليك بعد أن قتلوا سلطانهم تورانشاه اقترحوا فى مجلس المشورة أن يمنح الملك لويس التاسع سلطنة مصر ، وأنه لولا علمهم بتعصبه للديانة المسيحية وخوفهم من أجباره لهم على اعتناقها ، لنفذوا هذا الاقتراح ولوجدوا قبولاً من الملك نفسه [(١)] . ومن الواضح أن هذه القصة مختلقة من أساسها ، ولعلها مستوحاه من الاضطراب الذى حل بالمعسكر الاسلامى ، وحيرة أمراء المماليك فيمن عساه يكون سلطاناً بعد أن قتل تورانشاه فى سرعة مفاجئة . وكان من الطبيعى أن يطمع كل أمير منهم فى سلطنة مصر ، ثم هناك أيضاً ملوك الأيوبيين بالشام وعلى رأسهم الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن صلاح الدين الأيوبى ، وقد تولى مملكة حلب بعد وفاة أبيه سنة ١٢٣٧م (٦٣٤هـ) . اذ أضحى من الصعب على أولئك الملوك الأيوبيين أن يقبلوا استئثار مماليك آبائهم بمصر بعد قتلهم سلطانها الشرعى ، ومن الطبيعى أن يرى كل منهم فى نفسه الشرعية الكافية لأن يلى السلطنة بعد تورانشاه .

وكيفما كان الأمر فيبدو أن المماليك قرروا حل العقدة التى نجمت عن شغور العرش المصرى فى فجأة بأقامة شجر الدر أم خليل بن الصالح أيوب فى السلطنة ، مبالغة منهم فى احترام الأسرة المالكة الذاهبة ، وحرصاً على عدم الظهور بمظهر الخارج عليها . ثم عرضوا الاتابكية أو نيابة

---

(١) أنظر : Joinville: History of saint. Louis tr. by Evaans p. 109

السلطنة على عدد من الأمراء ، ولم يرد اسم الاتابك السابق فارس الدين أقطاى من بين أسماء المرشحين ، ولعل مرجع ذلك أنه أصبح من المغضوب عليهم ، أو أن المماليك خشوا قوته وشوكته واستئثاره بأمور السلطنة اذا قام في الاتابكية الى جانب شجر الدر . وانجلى الموقف بتعيين أيبك التركمانى [1] أحد أمراء البحرية الصالحية لمنصب الأتابكية ، وأدى ذلك بطبيعة الحال الى عداء بين أقطاى وأيبك سوف تظهر نتيجته فيما بعد .

وأخذت البيعة للسلطانة الجديدة فى مايو سنة ١٢٥٠م (١٠ صفر سنة ٦٤٨هـ) باعتبارها أم ولد هو خليل شجرشاه [2] الذى توفى فى حياة أبيه . وحرصت شجرة الدر على اظهار ذلك فى علامتها على الأمور والمراسيم ، فكتبت « والدة خليل » ، وجعلت صيغة الدعاء على المنابر : « احفظ اللهم الجهة الصالحية ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين أم خليل ، المستعصمية ، صاحبة الملك الصالح » . كذلك نقش اسمها على السكة بالعبارة الآتية : « المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة خليل أمير المؤمنين » [3] .

---

(١) لفظ أيبك يتركب من كلمتين تركيتين هما آى ومعناها القمر ، وبك ومعناها الأمير . فمعنى الاسم الأمير القمر (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٩) وأيبك كان فى الأصل مملوكا لأولاد التركمانى وهم بنو رسول الذين استقلوا باليمن ، ولهذا عرف بأيبك التركمانى ثم أنتقل إلى خدمة الملك الصالح أيوب . وبنورسول غسانية أتوا من بلاد التركمان إلى بغداد فى خلافة المستنجد (ت ٥٦٦ هـ) فنسبهم من يعرفهم إلى غسان ، ونسبهم من لا يعرفهم إلى التركمان . راجع (الخزرجى : العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية جـ ص ٢٧ - ٢٨) .

(٢) أبو شامه : الذيل على الروضتين ص ١٩٦ .

(٣) توجد بالمتحف البريطانى عملة ذهبية ضربت فى القاهرة على عهد شجر الدر بتاريخ ٦٤٨هـ تحمل ألقاب الملكة التى ذكرناها .

ويروى المؤرخ الانجليزى لين بول فى كتابه تاريخ مصر فى العصور الوسطى أن كلمة المستعصميه السالفة الذكر ، تدل على أن شجر الدر بدأت جارية للخليفة العباسى المستعصم (١٢٤٢ - ١٢٥٨م) قبل أن يشتريها الملك الصالح أيوب . غير أن صمت المراجع العربية من هذه المسألة يحمل على الاعتقاد أن شجر الدر ربما أقرت هذه النسبة فى سكتها وخطبتها ترضية للخليفة العباسى كى يعترف بشرعية حكمها . وثمة مسألة أخرى تدعو الى الانتباه فى هذا الصدد ، وهى أنه كانت توجد بالعراق جارية أخرى تسمى شجرة الدر ، كانت جارية للخليفة العباسى الناصر لدين الله (١١٨٠ - ١٢٢٥م) ، مقربة إليه ، وكانت تكتب خطأ جيداً وتقرأ له المطالعات الواردة عليه لما تغير نظره ، ويملى عليها الأجوبة ، وتوفيت سنة ١٢٣٦م (٦٣٤هـ) ، ودفنت فى تربة الخلاطية ببغداد [١]. فلعل المؤرخ لين بول قد التبس عليه الأمر بين شجر الدر المصرية وشجرة الدر العراقية .

ومهما يكن من شىء فقد قبضت شجر الدر على زمام الأمور فى مصر بيد من حديد ، ولم يكن ابن اياس مغاليا حين وصفها بأنها امرأة صعبة الخلق ، شديدة الغيرة ، قوية البأس ، ذات شهامة زائدة ، وحرمة وافرة ، سكرانة من خمرة التيه والعجب » . وحق لها أن تكون ذلك كله فهى صاحبة الفضل فى اخفاق حملة صليبية كبيرة على مصر ، وهى قد أتت الى العرش اعترافاً من المعاصرين بذلك الفضل . واذا استثنينا رضية الدين سلطانة دلهى (١٢٣٦ - ١٢٤٠م) ، تعتبر شجر الدر أول ملكة مسلمة جلست على عرش مملكة اسلامية . والواقع أن ابن اياس اعتبرها جزءاً من الدولة الأيوبية ، ولكن مما لاشك فيه أن الدولة الأيوبية انتهت بمقتل تورانشاه ولو كان هناك أى رغبة فى الابقاء على الأيوبيين ، لما

(١) ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ص ٩٧.

تعسر على المماليك أن يجدوا من رجال البيت الأيوبى بالشام من يصلح للقيام بالسلطنة فى القاهرة .

ولأول عمل أهتمت به شجر الدر هو تصفية الموقف مع الفرنج ، وأنهاء المفاوضات التى بدأت معهم على عهد تورانشاه لترحيلهم عن البلاد المصرية . فلم يلبث المفاوض المصرى وهو الأمير حسام الدين أبو على الهذبانى ، أن اتفق مع الملك لويس التاسع على تسليم دمياط ، واخلاء سبيله وسبيل من معه من كبار الأسرى لقاء فدية قدرها ثمانمائة ألف دينار يدفع نصفها قبل رحيله ، ويدفع النصف الآخر بعد وصوله عكا . وقامت ملكة فرنسا مرجريت دى بروفانس التى رافقت زوجها فى تلك الحملة ، وبقيت بدمياط مدة وجود الصليبيين بالديار المصرية ، بجمع المبلغ المطلوب لدفع نصف الفدية . ثم أبحرت إلى عكا ومعها ابنها الذى ولدته فى دمياط وأسمته جان تريستان أى وليد الأحزان . ويروى جوانفيل أن مدينة دمياط سلمت للمصريين فى ٦ مايو سنة ١٢٥٠ وأن بعض المماليك قاموا بأعمال السلب والنهب فى معسكر الفرنج مما حمل لويس التاسع على أن يرسل راهبا اسمه راءوول إلى الأمير اقطاي يحتج لديه عما ارتكبه المماليك من فظائع ، وأن أقطاي أجابه قائلا « أيها الأخ راؤول ، قل للملك أننى لا يمكننى اصلاح ما فسد ، وأن قلبى لمفعم بالأسى ، وحذره بالنيابة عن نفسى بألا يبدى أى تذمر عما يجيش فى نفسه ما دام فى أيدينا والا كان مصيره الموت » . وهذه العبارة تدل على أن أقطاى لم يكن راضياً عما تطور اليه الموقف من سلطنة شجر الدر وأتابكية أيبك ، ثم أنه لم يكن مبالغا فيما قال ، لأن حزبا من الأمراء وعلى رأسه الأمير حسام الدين أبو على الهذبانى ، رأى منذ البداية أن من المصلحة للمسلمين أن تحتفظ مصر بالملك لويس وألا تطلق سراحه نظرا لاطلاعه على عورات

المسلمين ، ولمركزه الدينى العظيم فى النصرانية ، ولأن دمياط قد صارت فعلا فى أيدى المسلمين . ولكن شجر الدر وبعض قادة الجيش أقنعوا ذلك الحزب المعارض بضرورة احترام العهد الذى أخذوه على أنفسهم .

ثم أبحر لويس التاسع وأتباعه إلى عكا فى ٧ مايو سنة ١٢٥٠ م (صفر سنة ٦٤٨هـ) ، وبذلك انتهت الحملة الصليبية التى اقترنت حوادثها بنهاية الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك الأولى فى مصر .

أخذت شجر الدر تتقرب إلى الخاصة والعامة ، وتعمل على ارضائهم بشتى الوسائل ، ولاسيما المماليك البحرية الذين أغدقت عليهم الأموال الطائلة والاقطاعات الواسعة والرتب العالية . ولكن على الرغم من ذلك ، فان المصريين عموما انفوا من قيام امرأة فى السلطنة ، وقاموا بمظاهرات واضطرابات عديدة فى القاهرة حتى اضطرت الحكومة الى غلق أبواب المدينة منعا لتسرب أنباء الاضطرابات إلى بقية البلاد . ويبدو أن رجال الدين كانوا من وراء هذه الحركة المعارضة بدليل ما رواه السيوطى من أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام وهو أكبر زعيم دينى فى ذلك الوقت كتب كتابا حول ما قد يبتلى به المسلمون بولاية امرأة . وهو يستند فى هذا إلى حديث نبوى يقول : « لن يفلح قوم ولو أمرهم امرأة »[1] .

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ص ٣٤ . والشيخ عز الدين بن عبد السلام الشافعى ولد سنة ٥٧٧ هـ ودرس بدمشق على أئمة عصره مثل ابن عساكر ، وولى الخطابة والامامة بالجامع الأموى بدمشق ، وتتلمذ له أبو شامه وظل بدمشق إلى أن استمان صاحبها الملك الصالح اسماعيل بالفرنج فأنكر عليه الشيخ عز الدين هذا الفعل وتوجه إلى مصر سنة ٦٣٩هـ فتلقاه سلطانها الملك الصالح أيوب وولاه خطابة جامع عمرو بن العاص . ولما بنى الصالح أيوب مدرسته بين القصرين بالقاهرة ، فوض اليه تدريس المذهب الشافعى بها ، وظل متمتعا بالمنزلة الرفيعة حتى وفاته بمصر سنة ٦٦٠هـ وقيل أنه لما مرت جنازته تحت القلعة وشاهد السلطان الظاهر بيبرس كثرة الخلق الذين معها قال =

وانتهز الملك الناصر يوسف صاحب حلب وحفيد صلاح الدين ، هذه الفرصة السانحة وزحف بجيوشة نحو دمشق فاستولى عليها وعلى غيرها من المدن الشامية بدون حرب ثم واصل زحفه جنوبا نحو مصر .

وخاف المماليك على دولتهم الناشئة من منافسة الأيوبيين فكتبوا إلى الخليفة العباسى المستعصم يطلبون منه تأييد سلطنه شجر الدر ، وكان غرضهم من وراء ذلك تدعيم سلطانهم بسياج من التأييد الشرعى. غير أن الخليفة عاب عليهم اقامة امرأة فى السلطنة ، وكتب اليهم قائلا : « أن كانت الرجال قد عدمت عندكم فاعلمونا حتى نسير اليكم رجلا » . ولما وصل خطاب المستعصم إلى القاهرة ، اقتنع امراء المماليك بخطأ تصرفهم وقالوا « لا يمكننا حفظ البلاد والملك لامرأة ، ولابد من اقامة رجل للمملكة تجتمع الكلمة عليه » . فأشاروا على شجر الدر بأن تتزوج الأتابك أيبك التركمانى ، وتتنازل له عن العرش ، فقبلت ذلك وخلعت نفسها من السلطة فى يوليو سنة ١٢٥٠م بعد أن حكمت ثمانين يوما .

والواقع أن سلطنة شجر الدر على مصر كانت وليدة للظروف التى أحاطت بمصر فى ذلك الوقت ، ونتيجة لموافقة جماعة من زملائها أو خشدا شيتها المماليك ، وليست نتيجة لموافقة الشعب أو رجال الدين أو الخلافة العباسية ، هذا فضلا عن أنها كانت مسألة لا يقرها الشرع ولا تستسيغها التقاليد الاسلامية .

= لبعض خواصه : اليوم استقر امرى فى الملك لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس اخرجوا عليه لانتزع الملك مني . راجع (تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى جـ ٥ ص ٨٠ أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ٢٢٤ ، السيوطى حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ص ٣٤) .

تولى عرش مصر السلطان أيبك التركمانى وتلقب باللقب السلطانى « الملك المعز » . ولم يكن أيبك فى الواقع أكبر أمراء المماليك سنا ، أو أقدمهم خدمة ، أو أقواهم مكانة ونفوذا ، إذ كان يوجد من هم أكبر وأقدم وأقدر منه مثل فارس الدين أقطاى والظاهر بيبرس . وهذه الحالة الاستثنائية فى نظام التدرج المملوكى جعلت بعض المؤرخين مثل أبى المحاسن فى كتابه النجوم الزاهرة ، يتهم أيبك بضعف النفوذ والشوكة ، وأن الأمراء لم ينتخبوه الا لكى يتمكنوا من عزله متى شاءوا . كذلك يذهب المستشرق بلوشيه Blochet إلي أن أيبك ظل يحكم رغم اعتزال شجر الدر ، بصفة زوج الملكة مع أنه صار سلطانا يحكم عن نفسه . غير أن الحوادث دلت على أن أيبك رجل ممتاز بصفات السياسة والحزم والشجاعة ، ولم يكن ضعيف الشخصية كما يصوره بعض المؤرخين . ويبدو أن أبا المحاسن نفسه قد شعر بالخطأ الذى وقع فيه حينما وصف أيبك بالضعف فى كتابه النجوم الزاهرة ، إذ أنه عاد واستدرك ذلك فى كتابه الآخر « المنهل الصافى » ، فمدح أيبك فيه ، ووصفه بالديانة والصيانة والعقل والسياسة ، وأنه أنقذ دولة المماليك من خطر محقق[1] .

وإذا تناولنا المشاكل والصعاب التى واجهت السلطان ايبك ، نجد أنها تتمثل فى تهديدات الأيوبيين والصليبيين فى الخارج ، وفى ثورات الاعراب فى الداخل ، ثم فى خطر زملائه المماليك فى داخل البلاد وخارجها .

١ - الخطر الأيوبي والصليبي :

كان الخطر الأيوبى ممثلا فى الشام وفى الأمراء الأيوبيين هناك

(١) أبو المحاسن : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى جـ١ لوحه ٢ (مخطوط بدار الكتب المصرية)

وعلى رأسهم الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق . وحاول أيبك هدم هذه المعارضة الأيوبية باقامة أمير من ذرية بنى أيوب إلى جانبه ، واستقر الرأى على تولية المدعو الأشرف موسى [1] ، وهو طفل فى نحو السادسة ، ليكون شريكا لايبك فى السلطنة ، فصار يخطب باسمهما على على منابر مصر وأعمالها ، وضربت لهما السكة على الدنانير والدراهم . غير أن هذه الحيلة لم تدخل على الأيوبيين لأنهم يعلمون تماما أن الاشرف موسى لم يكن له غير الاسم ، على حين كانت الأمور جميعها بيدأيبك . عندئذ أعلن أيبك أن البلاد تحت سلطة الخلافة العباسية صاحبة السلطان القديم عليها ، وأنه نائب الخليفة المستعصم بها . وبهذه الحيلة الثانية حاول أيبك هدم المقاومة الأيوبية غير أنه لم يكتف بذلك علما منه أن الناصر يوسف لن يرجع عن عزمه فى سهولة ، فأخذ يستعد لمحاربته .

أما الملك الناصر يوسف ، فانه رأى لكى يضمن النجاح لحملته على مصر ، أن يضم إلى جانبه الملك لويس التاسع المقيم فى عكا ، وعرض عليه مقابل ذلك تسليمه بيت المقدس الذى كان تحت امرة الأيوبيين فى ذلك الوقت .

وعلم أيبك بأنباء هذه المفاوضات ، فأرسل إلى الملك لويس تهديدا بقتل أسرى الصليبيين المقيمين بمصر إن قام بأى عمل عدائى ضده . وفى الوقت نفسه أبدى له استعداده لتعديل معاهدة دمياط ، والتنازل له عن نصف الفدية المقررة ، إن تحالف معه ضد الناصر يوسف . غير أن الملك لويس التاسع فضل أن يقف بين الفريقين موقف الحياد ، وأن

---

(١) وهو الاشرف موسى بن يوسف بن المسعود بن الكامل ، وكان جده المسعود صاحب اليمن المعروف بأقيسيس المتوفى سنة ١٢٢٨م ، وعاش أبوه فى كنف الصالح أيوب حتى توفى عن هذا الطفل الصغير موسى . (المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٣٦٩) .

يستغل نزاعهما لصالحه .

ولما يئس الناصر يوسف من مساعدة لويس التاسع ، زحف بجيوشه نحو مصر ، وسارع أيبك للقائه ، ولكنه خشى فى الوقت نفسه أن يقوم الصليبيون بهجوم مفاجىء على مصر ، فأمر بهدم ثغر دمياط مجازهم المفضل ، فوقع الهدم فى أسوارها يوم الاثنين ١٨ شعبان سنة ٦٤٨ هـ (أواخر سنة ١٢٥٠ م) حتى خربت كلها ولم يبق منها سوى الجامع وأخصاص من القش على شاطىء النيل يسكنها جماعة من الصيادين وضعفاء الناس وسموها المنشية .[(١)]

ثم التقى المماليك بالأيوبيين فى معركة عامة عند بلدة العباسة بين مدينتى بلبيس والصالحية ، فى ٣ فبراير سنة ١٢٥١م ، انتصر فيها الملك الناصر أول الأمر ، ولكن فرقة من مماليكه ، وهم العزيزية [(٢)] ، خذلوه وانضموا إلى المماليك البحرية لعلة الجنسية على قول المراجع المعاصرة ، ففر الناصر ومن معه من أبناء البيت الأيوبى إلى الشام منهزمين ، بعد أن فقدوا عددا كبيرا من القتلى والأسرى . وقرر أيبك أن يواصل زحفه نحو الشام للقضاء على مراكز المقاومة الأيوبية . ولكى يضمن النجاح لمشروعه، حاول أن يضم لويس التاسع إلى جانبه ، ووعده ببيت المقدس بمجرد استيلائه عليه من الملك الناصر يوسف . وفضل لويس التاسع ، بعد أن رأى انتصار الجانب المصرى أن يستجيب لعروض أيبك ويترك سياسة الحياد .

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٣٧٢ . واستمرت دمياط على هذا الحال حتى عمرها السلطان بيبرس البند قدارى من جديد سنة ١٣٧١م (٦٦٩هـ) راجع (ابن اياس : المرجع السابق جـ ١ (ص ٨٧ ، ١١١) .

(٢) العزيزية نسبة إلى العزيز محمد والد الناصر يوسف ، وقد انتقلوا إلى خدمته بعد وفاة أبيه سنة ١٢٣٦م .

وفى أوائل مايو سنة ١٢٥٢م أتفق أيبك ولويس التاسع على القيام بحملة مشتركة لطرد الناصر يوسف من الشام . وكانت الخطة المتفق عليها هى أن يستولى لويس التاسع على يافا ، بينما يحتل أيبك غزة ، ومن هناك يتم الاتصال بين الجيشين فى منتصف مايو سنة ١٢٥٢م ، للقيام بهجوم عام مشترك على ولايات الأيوبيين [١] . وتنفيذا لهذه الخطة ، احتل الملك لويس مدينة يافا دون مقاومة ، بينما تقدم المماليك بقيادة أقطاى نحو غزة ، غير أن الملك الناصر يوسف ، الذى علم بأخبار هذا التحالف ، سبقهم إلى احتلالها بقوة حربية كبيرة ، فاستطاع بهذا العمل الجرىء أن يحول دون اتصال المماليك بحلفائهم الصليبيين ، ويفسد عليهم خطتهم المشتركة .

واستمرت جيوش المماليك فى الصالحية ، وجيوش الأيوبيين فى غزة ، كل منهما تتحفز بالأخرى ، إلى أن أنقذ الموقف أخيرا الخليفة العباسى المستعصم عندما توسط لدى الفريقين ، وتمكن رسوله نجم الدين البادرانى [٢] من عقد الصلح بينهما فى ابريل سنة ١٢٥٣م (٦٥١ هـ) على أن يكون للمماليك مصر وجنوب فلسطين بما فى ذلك غزة وبيت المقدس ، بينما تظل البلاد الشامية فى أيدى أصحابها من أبناء البيت الأيوبى . وهكذا فشل لويس التاسع فى تحقيق آماله بامتلاك بيت المقدس ، ولم يستطع بعد ذلك البقاء فى الشام خصوصا بعد وفاة والدته الملكة بلانش Blanche (القشتالية) التى كانت تحكم فرنسا فى غيابه كوصية على العرش ، فاضطر لويس التاسع إلى الرجوع إلى بلاده سنة ١٢٥٤م .

(١) راجع : King op. cit. p. 250

(٢) البادرانى نسبة إلى قرية بادران باصبهان .

على أنه ينبغى أن نلاحظ هنا أن تدخل الخليفة العباسى فى ذلك الوقت ، لم يكن هدفه ايقاف التغلغل الصليبى فى شئون الشرق العربى فحسب ، بل كان غرضه أيضا توحيد الجهود لتكوين جبهة اسلامية أمام خطر جديد أشد من الخطر الصليبى ؛ وهو الخطر المغولى الذى كانت جحافله قد اجتاحت الحدود الاسلامية الشرقية بقيادة جنكيزخان وقضت على الدولة الخوارزمية التى كانت بمثابة الترس المانع الحامى لجميع الدول الاسلامية فى غرب آسيا والشرق الأدنى من هجمات المغول وغيرهم من الأسيويين . وهكذا انتهت العقبة الأولى فى تأسيس الدولة المملوكية الناشئة وهى النزاع بين المماليك وملوك البيت الأيوبى .

٢ - ثورة الاعراب ضد حكم المماليك :

العقبة الثانية التى اعترضت السلطان أيبك ، هى الثورة الشعبية التى قام بها الأعراب أو العربان فى مصر وذلك فى سنة ١٢٥٣م .

من المعروف أن القبائل العربية التى استوطنت مصر بعد الفتح العربى، أخذت تتحول تدريجيا إلى شعب زراعى مستقر ولاسيما فى اقاليم الصعيد والشرقية ، وأطلق عليهم اسم العرب المزارعة . وكان هؤلاء الأعراب يقومون بفلاحة الأرض على مقربة من القرى القديمة الآهلة بالفلاحين من أهالى البلاد . غير أنه يلاحظ أن هؤلاء الاعراب كانوا يتمتعون بمركز اجتماعى أعلا مرتبة من الفلاحين بسبب المساعدات الحربية التى كانوا يؤدونها للدولة فى وقت الحرب ولاسيما ابان الحروب الصليبية . وكان مشايخ العربان تقع عليهم تبعة حفظ النظام فى القرى والأرياف ، كذلك كانت مساهمتهم فى الانتاج الزراعى ودفع الخراج كبيرة نسبيا .

وكان تعسف امراء المماليك فى تحديد أثمان المنتجات الزراعية واحتكارها والتلاعب فى أسعارها أحيانا ، من الأسباب التى دفعت بهؤلاء المزارعين العرب إلى القيام بثورات متعددة طوال العصر المملوكى . وهذه الثورات عرفت فى الكتب المعاصرة باسم « فساد العربان » ، وكانت تنتهى فى العادة بهزيمة العرب نظرا لبراعة المماليك فى فنون القتال .

واستخدم المماليك فى قمع تلك الثورات وسائل متعددة تنطوى على القسوة والقهر مثل : التوسيط ، والتسمير ، والمعاصر ، ونشر الأجسام، وسلخ الجلود ، ودفن الأحياء ، وتعليق رؤوس القتلى فى رقاب نسائهم ، إلى غير ذلك من وسائل القتل والتعذيب المعروفة فى العصور الوسطى شرقا وغربا .

وقد أدت هذه السياسة إلى هجرة عدد كبير من المزارعين إلى المدن الكبرى بغية التسول أو السرقة أو الاشتراك فى المنازعات والاضطرابات الداخلية التى كانت بين أمراء المماليك . وهؤلاء كانوا يسمون بالحرافيش وبالزعر أو زعر العامة ويبدو أن هذه الألفاظ كانت مشرقية بحتة بدليل قول المؤرخ الأندلسى لسان الدين ابن الخطيب فى سب أحد ملوك غرناطة : «وكان حرفوشا على عرف المشارقة».[1]

على أنه يلاحظ كذلك أن هذه الثورات العربية ، إلى جانب دوافعها الاقتصادية ، كانت لها أيضا أهداف سياسية وهى الغاء حكم المماليك واعادته إلى العرب الأحرار أصحاب السيادة القديمة على البلاد .

ويبدو أن هذا الهدف السياسى هو الذى أثار مخاوف المماليك

(١) ابن الخطيب : نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب ، ص ٢٠ نشر أحمد مختار العبادى.

ودفعهم إلى اتباع سياسة العنف والقسوة فى قمع تلك الثورات خوفا على سلطانهم . وأول وأخطر ثورة قام بها الأعراب أيام المماليك ، هى الثورة التى قاموا بها فى عهد السلطان أيبك التركمانى سنه ١٢٥٣م (٦٥١هـ) وأسباب هذه الثروة ترجع الى عوامل سياسة وأقتصادية كما أسلفنا فالمماليك منذ أن أنتصروا على الأيوبيين فى موقعة العباسة وتدخلت الخلافة فى صالحهم أعتقدوا أن البلاد وما فيها صارت لهم ولا منازع فبالغوا فى الفساد والأستهتار وزيادة الضرائب الى درجة أن بعض المؤرخين أمثال المقريزى وأبى المحاسن فضلوا عليهم الصليبيين وقالوا إن الفرنج لو ملكوا مصر ما فعلوا فعلهم .

والظاهرأن حركة الاستياء والتذمر لم تقتصر على العناصر العربية فقط بل صارت حركة شعبية عامة بدليل قول أبى المحاسن « أن أهل مصر لم يرضوا بسلطان مسه الرق ، وظلوا الى أن مات السلطان أيبك وهم يسمعونه ما يكره حتى فى وجهه اذا ركب ومر بالطرقات ويقولون لا نريد الا سلطانا رئيسا مولودا على الفطرة .

وتزعم تلك الثورة الشعبية شريف علوى وهو حصن الدين بن ثعلب الذى طمع فى السلطنة وصرح بأن ملك مصر يجب أن يكون للعرب وليس للعبيد الأرقاء ، وأقام دولة عربيه مستقله فى مصر الوسطى وفى منطقة الشرقية بالوجة البحرى وكانت قاعدة هذه الدولة بنواحى الفيوم فى بلدة تعرف بذروة سريام أو ذروة الشريف (نسبه اليه) وتقع بين النيل وترعة المنهى التى هى الآن بحر يوسف .

واتصل الشريف حصن الدين بالملك الناصر يوسف الايوبى صاحب الشام يطلب مساعدته فى محاربة أيبك ولكن الناصر يوسف لم يكن فى

وسعه محاربة أيبك فى ذلك الوقت اذ كانت رسل الخليفة المستعصم قد تدخلت لحسم النزاع بينهما .

وكان العرب يومئذ فى كثرة من الرجال والخيل والمال بفضل مشاركتهم فى حرب الصليبيين فكونوا جيشا كبيرا والتفوا حول زعيمهم حصن الدين وحلفوا له وأضطر السلطان ايبك أن يرسل حمله تأديبية على هذه الثورة . ومن العجب أن يسند قيادتها الى منافسه أقطاى ، وذلك فيما يبدو لمهارته الحربية .

وخرج أقطاى من القاهرة بخمسة آلاف فارس من خيرة المماليك ، وتوجه الى الشرقية حيث كانت أكبر مظاهر العصيان وعلى الرغم من قله عدد المماليك بالقياس الى العرب تغلب المماليك بفضل تفوقهم الحربى ومهارة قائدهم اقطاى وتهدمت المقاومة العربية فى بلبيس سنه ١٢٥٣ غير أنها بقيت على حالها فى مصر الوسطى ، حيث ظل حصن الدين طليقا ، وأقام حكومة مستقلة هناك ، ولم يتمكن أيبك ومن جاء بعده من سلاطين من القبض عليه الى أن خدعة السلطان بيبرس البندقدارى وقبض عليه بعد أن أمنه وشنقه بالاسكندرية (١) وكيفما كان الأمر فى نهاية الأمير حصن الدين فالمهم هنا أن أيبك تغلب على أحد العناصر المهددة لقيام دولة المماليك واستقرارها فى مصر .

(١) راجع (شهاب الدين العمرى : التعريف بالمصالح الشريف ص ١٨٨ ويروى المقريزى (السوك جـ ١ ص ٣٨٨) رواية أخرى تختلف عن رواية العمرى يقول فيها أن الشريف حصن الدين طلب من أيبك الأمان فأمنه ووعده باقطاعات له ولأصحابة فانخدع الشريف واتجة هو وأصحابة الى القاهرة فشنق الجميع وبعث بالشريف الى الأسكندرية فحبس بها وقد علق بولياك على هذه الرواية بقوله ويظهر أن الرواية التى سردها المقريزى عن أستصال شافة العرب فى عهد أيبك لم تكن الا طمسا للحقيقة كانت غايته منها تمجيد الأتراك المماليك لأن خطر العربان ظل باقيا حتى نهاية حكم المماليك .

راجع: Poliak:Les Revoltes Populaires en Egypte, R.E.I,1934

٣ـ خطر زملائه المماليك :

أما العقبة الثالثة التى اعترضت حكم أيبك وهددت كيان الدولة الناشئة فهى خطر زملائة المماليك البحرية وزعيمهم فارس الدين أقطاى وكان أيبك يتوجس خيفة من هذه الطائفة لعلمه بقوتها وخطرها ، ومن ثم أخذ يعمل على تقوية نفسه، فأنشأ فرقة من المماليك عرفوا بالمعزية نسبة الى لقبة (الملك المعز) كما عين مملوكه قطز المعزى نائبا للسلطنة بمصر ثم لم يلبث أن أخرج المماليك البحرية من ثكناتهم بجزيرة الروضة وعزل الملك الأيوبى الطفل موسى شريكه الاسمى فى الحكم وانفرد بالسلطنة .

على أن هذه الأجراءات كلها لم تكن الا مجرد احتياطات شكلية لم تقلل من خطر اقطاى وزملائة البحرية ، فيجمع المؤرخون على أن أقطاى وصل الى قمة المجد خصوصا بعد تغلبه على ثورة العرب وأصبح لا يظهر فى مكان الا وحوله حرس عظيم من الفرسان المسلحين كأنه ملك متوج وكانت نفسة ترى أن ملك مصر لاشئ عنده وكان كثيرا ما يذكر الملك المعز فى مجلسة ويستقصه ولا يسميه الا أيبكا وقد بلغ ذلك المعز فكان يغضى عنه لكثرة خشدا شية البحرية وبعبارة أخرى أخذ أقطاى يرنو علانية نحو السلطنة كما أخذ خشداشيته (زملاؤه) يسعون فى تحقيق بغيته فلقبوه فيما بينهم بالملك الجواد وعملوا على تزويجه من أحدى أميرات البيت الأيوبى وهى أبنة الملك المظفر تقى الدين ملك حماة ، بل انهم تآمروا على قتل أيبك ليخلو الجو لاقطاى ، ثم حدث أن طلب أقطاى من أيبك أن يأذن له فى الاقامة مع عروسه بقلعة الجبل (المقطم)لكونها من بنات الملوك فلم يبق بعد ذلك لدى أيبك أى شك فى نوايا أقطاى فصمم على قتلة وفى يوم الأربعاء ٣ شعبان سنه ٦٥٢هـ(١٢٥٤م) طلب أيبك الى أقطاى الحضور الى قلعة الجبل لاستشارته فى أمر من الأمور بعد أن اتفق مع مماليكه المعزية على أغتياله وركب أقطاى الى القلعة فى عدة من مماليكة فما كاد يدخل

من باب القلعة المؤدى الى قاعة العواميد أو القاعه الكبرى حتى أغلق خلفة ومنع مماليكة من اللحاق به ثم انقض عليه المتآمرون ومنهم الأمير قطز المعزى وقتلوه بسيوفهم وأشيع خبر مقتله فى القاهرة فهرع لانقاذة سبعمائة من خشداشيته ومنهم الأمير بيبرس البندقدارى والأمير قلاوون الالفى وفى ظنهم أنه لم يقتل بعد وانما قبض عليه فلم يشعروا الا ورأس أقطاى قد رمى بها اليهم من سور القلعة .ولقد أفزع هذا الحادث كبار المماليك وخشوا من أن تدور الدائرة عليهم فهرب من استطاع الهرب (١) الى ملوك البيت الأيوبى فى الشام مثل الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق ، والمغيث عمر ملك الكرك كما التجأ مائة وثلاثون منهم الى سلطان سلاجقة الروم علاء الدين كيقباذ بن كيخسر وصاحب قونية بآسيا الصغرى .

والواقع أن مقتل أقطاى قد شطر المماليك الى حزبين متناوئين وهما البحرية والمعزية مما عرض قيام دولة المماليك لاشد الأخطار اذ أخذ المماليك الهاربون يحرضون ملوك البيت الأيوبى على غزو مصر ، ولم يخف ذلك على أيبك فعمد أولا الى مصادرة أموال المماليك البحرية ، كما قبض على من بقى منهم فى مصر وشتت شمل من والاهم من طوائف المماليك الأخرى .

ثم كتب أيبك إلى الملوك الذين لجأ اليهم البحرية وحذرهم منهم ومن غدرهم وشرهم فأجابة الناصر يوسف بأن طلب اليه اعادة البلاد التى أخذها من فلسطين وهى مدينة القدس وساحل فلسطين ، ليقيم بها المماليك البحرية لأنها من اقطاعاتهم وبذلك يكون قد أرضاهم وأبعدهم عن مصر .

---

(١) يلاحظ أنه فى أثناء فرار المماليك كانت أبواب القاهرة مغلقة فاضطروا الى حرق أحد أبوابها الشرقية وهو باب القراطين فسمى بالباب المحروق منذ ذلك الوقت .

غير أن أيبك ظن آن فى تلك الأجابة خدعة وان الناصر يزمع الزحف على مصر مرة أخرى بعد أن صارت البحرية فى جانبة فرأى أن يستجيب الى طلبة واعاد البلاد المذكورة فعلا الى أصحابها ولكنة تجهز للخروج بجيوشه الى الحدود المصرية وعسكر بالقرب من بلدة العباسة مدة ثلاث سنوات تقريبا ولم يعد الى القاهرة الا بعد أن تقرر الصلح بينة وبين الناصر سنة ١٢٥٦م(٦٥٤م) بوساطة رسول الخليفة المستعصم نجم الدين البادرانى على أن يكون لأيبك الديار المصرية وساحل الشام وعلى الا يأوى الملك الناصر عنده أحدا من البحرية واضطر المماليك عندما علموا بما تم الى الرحيل الى المغيث عمر ملك الكرك [1] وهو الأيوبى الآخر الطامع فى مصر وكان بعض أخوانهم قد لجأوا منذ أول أمرهم الى سلطان سلاجقة الروم فكتب اليه ايبك كتابا يقول : فيه البحرية قوم مناحيس أطراف لا يقفون عند الايمان ولا يرجعون الى كلام من هو أكبر منهم وأن أستأمنتهم خانوا وأن استحلفتهم كذبوا وان وثقت بهم غدروا فتحرز منهم على نفسك فأنهم غدارون مكارون خوافون ولا امن أن يمكروا عليك، فخاف سلطان الروم منهم فاستدعاهم وقال : يا أمراء مالكم ولاستاذكم ؟ فتقدم الأمير علم الدين سنجر الباشقردى وقال : يا مولانا من هو استاذنا: قال الملك المعز صاحب مصر فقال الباشقردى : بحفظ الله مولانا السلطان ان كان الملك المعز قال فى كتابه انه استاذنا فقد أخطأ انما هو خشداشنا ونحن ولبناه علينا وكان فينا من هو أكبر سنا وقدرا وأحق بالمملكة ونحن التجأنا اليك ،فأعجب السلطان بهم وأستخدمهم عنده .

---

(١) أطراف جمع طرف ، وهو الرجل الذى لا يثبت على صحبة احد .

غيز أن أيبك لم يخش شيئا من سلاجقة الروم لبعد المسافة بينه وبينهم بل خاف أن يقوم المغيث عمر بمثل ما قام به الناصر من قبل فكتب الى الخليفه المستعصم بلتمس تشريفة بالتقليد والخلع والألوية أسوة بمن تقدم من ملوك مصر وسعى فى نفس الوقت فى تعطيل خلعة الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق رغم ما بينهما من حلف اذ خشى ان تتحرك أطماع الناصر من جديد بعد وصول الخلعة الخليفية اليه . ويظهر أن أيبك أخذ يشعر بما بين زوجته شجر الدر والمماليك البحرية بالكرك من مراسلات واتفاقات فعزم على الزواج من غيرها وأرسل سنه ١٢٥٦ميلادية الى بدر الدين لؤلؤ [1] الاتابكى صاحب الموصل يطلب اليه حلفا زواجيا لم يعلم عنه الا ما تداولته المراجع من خطبة أيبك لإبنة بدر الدين .وليس من المعقول أن تكون الخطبة قاصرة على مجرد الرغبة فى الزواج اذ ربما أراد من وراء ذلك الحلف معرفة تحركات المغول عن طريق صاحب الموصل وكيفما كان الأمر فقد كانت هذه المسألة بداية الخاتمة لعهد أيبك ، لأن مضارة أمرآة مثل شجر الدر وهى التى دلت على مهارة وقوة شخصية أيام الصليبيين كان أسوأ من اللعب بالنار ذلك أنه لما علمت

(١) هو لؤلؤ بن عبدالله النورى الملك الرحيم بدر الدين أبو الفضائل الأرمنى الاتابكى صاحب الموصل كان فى الأصل مملوكا لنور الدين ارسلان شاة زنكى وترقى عنده حتى صار استادارة والخادم فى دولته وبعد موت نور الدين سنة ٦٠٧ هـ استقر فى الملك بعده ولده القاهر مسعود وقام بدر الدين بتدبير ملكة وبعد موت القاهر ثم ولدية الصغيرين استقل بدر الدين بالملك سنه ٦٣١هـ وسمى نفسة بالملك الرحيم وأخذ يتقرب للخليفة المستنصر بالله حتى بعث له الخلع والتقليد بالسلطنة وقد رآه ابن واصل نفسة فوصفة قائلا ورأيت من تجمله وعنايته بالرسل والواردين عليه مالا رأيته عند ملك من الملوك ولم يزل بدر الدين مالكا للموصل وبلادها الى أن ملك التتر بغداد وأستولوا على العراق والجزيرة سنه ١٢٥٨م(٦٥٦هـ) فتوجة بدر الدين الى هولاكو ملك التتر فاقرة على ولايته ثم رجع الى الموصل فمات بها سنه ١٢٥٩م(٦٥٧هـ).

شجر الدر بما بيته لها أخذت هي تتزعم حركة المعارضة الداخلية والخارجية لسلطنته فقام بعض من بقى فى مصر من البحرية بمعارضة مشروع الزواج فقبض أيبك على عدد كبير منهم أيدكين الصالحى وسيرهم لقلعة الجبل لسجنهم فى الجب فلما وصلوا الى قرب نافذة القصر السلطانى حيث سكنت شجر الدر أحنى الأمير ايدكين رأسه احتراما وقال بالتركية والله ياخوند[1] ما عملنا ذنبا وجب مسكنا ولكنه لما سير يخطب بنت صاحب الموصل ما هان علينا لأجلك فانا تربية نعمتك ونعمة الشهيد المرحوم الصالح ايوب فلما عتبناه تغير علينا وفعل بنا ما ترين فأومات اليه شجر الدر بمنديلها بما معناه قد سمعت كلامك .

وعندما نزلوا بهم الى الجب ، قال ايدكين« ان كان قد حبسنا فقد قتلناه »ومعنى هذا أن شجر الدر كانت بيتت هى الأخرى لأيبك جزاءا وفاقا وأن قبضه على أولئك لم يكن لمجرد معارضتهم فى الزواج ، بل لأنه علم بمؤامرتهم فأراد أن يقضى على الحركة كلها بالفصل بين أمراء المماليك وزعيمتهم .غير أن شجر الدر كانت قد دبرت مالم يكن فى الحسبان إذ أرسلت سرا أحد المماليك العزيزية الى الملك الناصر يوسف بهدية ورسالة تخبره فيها أنها عزمت على قتل أيبك والتزوج منه وتمليكه عرش مصر ولكن الناصر أعرض عنها خوفا من أن يكون فى الأمر خدعة ولم يجبها بشىء وعلم بدر الدين لؤلؤ بأخبار هذه المفارضات السرية فبعث الى أيبك ينصحه أن يأخذ حذرة وخاف أيبك على حياته فترك القلعة وأقام بمناظر اللوق وصمم على قتل زوجته قبل أن تقضى عليه ويقال فى

---

(١) الخوند لفظ تركى أو فارسى واصله خداوند بضم الخاء ومعناه السيد أو الأمير ويخاطب به الذكور أو الأناث انظر (المقريزى : السلوك جـ١ ، ص ٢٢٤ حاشية رقم ٢).

هذا الصدد أن منجما أخبر أيبك بانه سوف يموت قتيلا على يد امرأة ولا شك أن المنجم كان عليما ببعض ما يجرى من وراء ستار اذا المعروف أن الزوجين أخذا يتسابقان فى نسج المؤمرات بعد القبض على البحرية فى القاهرة وأنتهى السباق بأنتصار المرأه فى ميدانها اذا أرسلت شجر الدر الى أيبك رسالة رقيقة تتلطف به وتدعوه بالحضور اليها بالقلعة فاستجاب لدعوتها وصعد الى القصر السلطانى بالقلعة حيث أعدت له شجر الدر خمسة من الغلمان الأشداء لاغتياله منهم محسن الجرى ونصر العزيزى وسنجر وكان آخرهم من مماليك اقطاى وقد قام هؤلاء الغلمان بما أمروا به وقتلوه فى الحمام فى أبريل سنه ١٢٥٧م(٦٥٥هـ) وأرادت شجر الدر أن تتفادى عواقب هذه الجريمة بأن تولى السلطنة أميرا يقبض على زمام الموقف وتختفى خلفه فى الحكم فعرضت السلطنة على جمال الدين بن أيدغدى العزيزى وعز الدين أيبك الحلبى ولكنهما لم يجسرا على ذلك وأمتنعا وفى اليوم التالى ذا ع الخبر فى المدينة فأسرع المماليك المعزية الى القلعة وقبضوا على الخدم والحريم وبتعذيبهم اعترفوا بحقيقة ماحدث وعندئذ حاول المماليك المعزية قتل شجر الدر ولكن المماليك الصالحية حالوا بينهم وبينها وسعوا الى أنقاذها باعتقالها فى البرج الأحمر [1] بالقلعة فأحاط المماليك المعزية بالقلعة وأخذوا يتحينون الفرص لقتلها وكان من المحتمل انقاذ شجر الدر من الموت فى ذلك الوقت نظرا لحماية البحرية لها ، ولخدماتها الجليلة التى لم تنس بعد لولا أنها جلبت على نفسها حقد امرأة المعز الأولى وأم ولدة على التى أخذت تتحرق شوقا للأنتقام

(١) كان بالقلعة عدة أبراج منها البرج الأحمر الذى بناه الملك الكامل ويعرف اليوم باسم برج المقطم فى الجهة الجنوبية من القلعة .

من شجر الدر التى منعت زوجها من زيارتها وأرغمتة على طلاقها فأخذت هى وأبنها يلحآن فى تحريض المعزية على قتلها الى أن ضعفت معارضة الصالحية فى النهاية وحملت شجر الدر اليها فأمرت جواريها بقتلها وهنا يقول المقريزى فضربها الجوارى بالقباقيب الى أن ماتت والقوها من سور القلعة الى الخندق وليس عليها سوى سروال وقميص فبقيت فى الخندق أياماً وأخذ بعض أراذل العامة تكة سراويلها ثم دفنت بعد أيام وقد نتنت وحملت فى قفة بتربتها قرب المشهد النفيسى .

ولقد تعصب المماليك المعزية لابن سيدهم المدعو نور الدين على فأقاموه سلطانا فى ربيع الأول سنه ٦٥٥هـ(١٢٥٧م) ولقبوه بالملك المنصور وكان عمره وقتئذ خمسة عشر عاما واعترض المماليك الصالحية على سلطتة واتفقوا على سلطنة اتابك العسكر الأمير علم الدين سنجر الحلبى وحلفوا له ولكن سرعان ما قبض عليه المعزية وسجنوه فى الجب بالقلعة عندئذ اضطرب خشداشيته من الصالحية وخافوا ان تدور الدائرة عليهم فأمعنوا فى الهرب الى الشام ، وخرج المماليك المعزية فى اثرهم وقبض على عدد كبير منهم وأثار مسلك المعزية استياء بعض الطوائف المملوكية الأخرى مثل الاشرفية حتى أشيع أنهم اتفقوا على ازالة نفوذ المعزية من الدولة ، فما كان من المعزية الا أن قبضوا على الأشرفية ونهبوا دورهم ولجأت الطوائف المملوكية من بحرية وغير بحرية التى سئمت الوضع فى القاهرة الى ملوك الأيوبيين بالشام ولا سيما المغيث عمر صاحب الكرك حيث اخذوا يحرضونة على أخذ مصر ملك آبائة وأجدادة حتى استجاب لدعوتهم وسعى بمعونتهم فى الأستيلاء على مصر وحاول ذلك مرتين فى سنه ١٢٥٧م(ذ القعدة ٦٥٥هـ) وفى سنة

١٢٥٨م(ربيع الأول سنه ٦٥٦هـ) ولكنة رد فى كلتيهما خائبا مهزوما بفضل شجاعة نائب السلطنة الأمير سيف الدين قطز المعزى.

وهكذا بدت الدولة وسلطانها صبى وهى لم تزل فى دور التكوين ولم تكن بحاجة الى ما يترتب على قيام الصغار من منافسات ومؤامرات دالخلية فضلا عما خفى وقتذاك من عوامل الخطر الخارجى مما كان أدهى وأعظم وهو الخطر المغولى .

* * *

الفصل الخامس

خطر المغول أو التتار على قيام الدولة المملوكية الأولى في مصر

لم يتعرض الإسلام لأوقات عصيبة مثل التى تعرض لها زمن الغزو المغولى فى القرن الثالث عشر الميلادى أى السابع الهجرى ، اذ دمرت الجيوش المغولية مدن المسلميين ، وأتت على كثير من الناس قتلا أو أسرا أو تعذيبا ، وقوضت معالم المدنية بكل مكان فى غير شفقة أو رحمة. ومن سوء حظ آسيا الاسلامية انه لم يوجد بها وقتذاك قوة تستطيع مواجهة مثل ذلك الغزو العنيف الذى قاده جنكيزخان [1] وأولادة وأحفاده ، فالخلافة العباسية سادرة فى الاضمحلال ، ودولة السلاجقة فى بغداد تبدو كأنها أثر بعد عين ، أما فى غرب بغداد ، فتوجد دولة سلاجقة الروم بآسيا الصصغرى وهى الأخرى آخذة فى الضعف والتدهور ثم الدولة المملوكية الناشئة بمصر والشام ولما تبلغ من العمر سوى بضع سنين ، وكيانها لايزال فى كفة الميزان ، وأخطار حداثتها لاتزال محدقة بها من كل جانب داخلى وخارجى . ثم زحف هولاكو حفيد جنكيز خان غربا نحو فارس فى فبراير سنة ١٢٥٤ . فقضى على قلاع

---

(١) جنكيزخان - يعنى أقوى الحكام - وهو الذى اختار هذا الاسم لنفسه ، أما اسمه الحقيقى الذى عرف به فى صباه فهو تيموجين ومعناه فى اللغة الصينية الصلب الخالص . وقد تمكن تيموجين بعد حروب ومنازعات مع أبناء جنسه أن يصل إلى غايته وهى زعامة المغول سنة٦٠١ هـ وأن يجعل منهم قوة يظنها المعاصرون أنها لا تهزم ، وبهذه القوة الخارقة استطاع هذا الاسكندر الاسيوى أن يكتسح البلاد شرقا وغربا حتى ترك لأولاده امبراطورية شملت ما بين بحر الصين والبحر الاسود ، وكانت وفاته فى سنة ١٢٢٧م (٦٢٥هـ) .

الشيعة الاسماعيلية الباطنية بها ثم قضى على الخلافة العباسية وجميع ولايات غرب آسيا ، ولم يبق أمامه سوى الدولة المملوكية بمصر والشام [1] ويرجع السر فى انتصارات المغول إلى تفوقهم فى الأسلحة وإلى سرعة اطباقهم على العدو ثم إلى سرعة الرماية وإحكامها ، فأعمالهم الحربية قائمة على السرعة ، والقدرة فى السبق وهى المعبر عنها اليوم بالحرب الخاطفة ، ومعظم أسلحتهم هى النبال ذات الأطراف الفولاذية أو العظمية أو القرنية ، ولا تخلو جعبة الجندى المغولى من عدد كبير من أوتار القسى ومعها ابرة ، وشمع لاصلاحها ، ومبرد لسن أطراف النبال . ثم كانت سيوف المغول مدببة حادة أصلح للطعن منها للضرب ، ودروع خيولهم من جلد مقسى مطلى . ويضع المغول أسلحتهم وأمتعتهم فى جعبات من الجلد يمكن نفخها ليستعينوا بها على اجتياز الانهار. وتيألف الجيش المغولى من العناصر الأصلية كالمغول والتتار ثم من عناصر أخرى ملحقة به من الباشقرد والقرغيز والترك ،التركمان وغيرهم ، وقوامها جميعا فصائل من الفرسان كل منها عشرة أو مائة أو ألف أو عشرة الآف من الجنود. وفيه فضلا عن المقاتلة فصائل اضافية من مهندسين واخصائيين فى فن قذف المجانيق وآلات الحصار وإصلاح مختلف أدوات القتال . ويقضى النظام التترى بالطاعة التامة ، وينكر أن يهرب واحد من صفوف الجند أو يترك زميلا عاجزا أو أسيرا فى يد الأعداء دون أن يقدم على انقاذه ، ونساء المغول يتمتعن بحرية كبيرة ، ويحاربن مثلما يحارب الرجال ، وكثيرا ما كن يحملن أطفالهن حول اعناقهن [2]، صفوة

---

(١) راجع Howorth :History of the Mongols Vol . I. p.193 وكذلك D'Hosson : Histoire des Mongols III p. 134.

(٢) لاحظ ذلك الرحالة الطنجى ابن بطوطة فقال : والنساء كالرجال سافرات يحضرن=

القول إن الأمة المغولية كلها عملت فى صفوف الجيش المغولى لتوفر له ما يحتاج اليه من طعام ومعدات .[1]

وتعتبر سنة ١٢٥٨م (٦٥٦ هـ) سنة مشئومه فى تاريخ الدولة الاسلامية ،اذ أستولى المغول فى فبراير منها على بغداد قلعة الاسلام وحاضرة العباسيين ، وأعملوا فيها معاول التخريب والسيف والنار بضعة أيام ، وقتلوا الخليفة المستعصم بالله وأفرادأسرته وأكابر دولته واهتز المسلمون فرقا لتلك الكارثة ، لأن الخلافة العباسية ظلت رغم ضعف سلطانها السياسى ، محتفظة بمركز الزعامة الروحية إلى درجة تفوق مركز البابوية فى روما، فلا عجب اذن اذا خيل للمسلمين « أن العالم على وشك الانحلال وأن الساعة آتية عن قريب ، وصاروا يؤولون كل ظاهرة عل أنها تعبير عن سخط الله ، وأتخذوها أدلة على ما سيحدث فى العالم من انقلاب سئ لخلوه من خليفة .[2]

ونتج عن سقوط بغداد فى أيدى التتار آثار ونتائج عديدة فى الحياة الاسلامية: فالوحدة السياسية للمسلمين أصبحت من الأمور التى يستحيل تحقيقها ، أضف إلى ذلك أن الثقافة الاسلامية منيت على أيدى التتار بخسارة كبيرة حين أتلف المغول ألافا من الكتب القيمة والمخطوطات النادرة ، وقتلوا كثيرا من العلماء والأدباء ، وشتتوا شمل من بقى منهم فى مختلف البقاع الإسلامية . وجذبت مصر عددا كبيرا من هؤلاء العلماء ، مما أدى إلى انتقال مركز الزعامة الفكرية إلى القاهرة التى

=مجالس الرجال . وكان سلطان المغول يصدر أوامره باسمه وأسم خواتينه (زوجاته) .

(1) Cambridge Medieval History vol .Ivp.637

(٢) السيوطى – تاريخ الخلفاء – ص ٣٠٩ .

أضحت بحكم وضعها الجغرافى أقرب من بغداد إلى أوربا ، مما ساعد على اقتراب العالم الغربى من الحضارة الشرقية [١] وما يقال بصدد هجرة العلماء والأدباء يقال كذلك على أهل الحرف والصناعار. وغيرهم من أهالى بلاد المشرق الاسلامى ، مثال ذلك أن مصر استقبلت إبان الغزو المغولى عددا كبيرا من المشارقة الذين بنوا لأنفسهم بيوتا على ضفاف الخليج وحول بركة الفيل [٢]. وقد جلب أهل الحرف منهم بعض أساليب بلادهم الفنية وتأثر المعمار المصرى نتيجة ذلك فى القرن الثالث عشر الميلادى ، ببعض المؤثرات الفارسية والعراقية ، ومن المحتمل جدا تكون خطة بناء مسجد الظاهر بيبرس مأخوذة من رسم مسجد ميافارقين الذى أنشئ فى سنة ١٢٢٣ م [٣] ، وعلى الرغم من أن هذه الأساليب والمؤثرات الفنية ، قد وجدت فعلا فى مصر قبل القرن الثالث عشر ، الا أن تلك الهجرات الأخيرة كانت مدعاة لظهورها واحيائها [٤] ، والواقع أن سقوط بغداد وقيام دولة ايلخانات فارس على عهد هولاكو ،قد فصل أراضى شرق دجلة عن غربه ، ففى الشرق اتسعت دائرة الحضارة الفارسية ، وفي الغرب قامت البقية الباقية من الثقافة العربية ،

---

(١) Caml . Med . Hist , Vol4 p.641.

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .

(٣) Creswell: The works of Sultan Baibars,Bulletin de l" Institut† Francais D"archeologie Orientale tome26 P. 181

(٤) الواقع أن هجرات أهل الحرف نتيجة الغزو المغولى لم تكن جديدة على مصر والإسلام ، فهناك أمثلة عديدة من هذا النوع نذكر منها حادثة المهندسين الأرمن الثلاثة الذين هاجروا من الرها إلى مصر ، وأشرفوا على بناء حصون الفاطميين بالقاهرة سنة ١٠٨٧ م (٤٨٠هـ) فى عهد المستنصر بالله ، ومن المحتمل أن مجيئهم إلى مصر كان نتيجة لهروبهم من مدينة الرها التى أحتلها السلاجقة قبل ذلك بعام .

بعد أن كانت حضارة العالم الوسيط من سمرقند إلى اشبيلية قائمة على التعاون الفكرى والتبادل العلمى والأدبى بين الفرس والعرب فى ظل الخلافة العباسية . حقيقية إن الفرقة بين اللغتين الفارسية والعربية ظهرت قبل ذلك بقرون نتيجة للنهوض القومى الفارسى ، إلا أنه منذ سقوط بغداد قلت أهمية اللغة العربية بين الفرس وأصبحت قاصرة على البحوث الدينية والفلسفية [1] وترتب على سقوط بغداد أيضا الاتجاه فى اعادة ترتيب العالم السياس مثل وجوب تعيين حدود جديدة وعقد محالفات مختلفة ، كما ترتب عليه تغيير سلاطين المماليك فى مصر سياستهم نحو الخلافة أذ جعلهم يفكرون فى احيائها من جديد ، وفى الوقت نفسه أعطاهم فرصة قصيرة من الزمن يستعدون فيها لصد هذا ا السيل المغولى الجارف المندفع نحوهم . ومع أن سقوط بغداد بين للمسلمين ضرورة توحيد الجهود ازاء ذلك الخطر العام ، ظل النزاع بين السنة والشيعة قائما مستمرا ، فاستغل المغول ما هنالك من تنافس لصالحهم ، وزحفوا نحو الغرب يعيشون فسادا وتخريبا يساعدهم فى ذلك انقسام المسلمين ، وأيد هولاكو حزب الشيعة واتخذ الاحتياطات التى تكفل سلامة قبر الامام على بالنجف من التدمير .

ومن الطبيعى أن يتلو ذلك غزو الشام ، ومايليها غربا ، حيث أضحت الامبرطورية التى أسسها السلطان صلاح الدين الايوبى منقسمة إلى قسمين ، وهما مصر التى زال عنها حكم الأيوبين وصار سلاطينها من مماليكهم ، ثم الشام وقد سيطر على مدنها عدد من ملوك بنى أيوب على رأسهم الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق ، الذى أوجس خيفة

---

(1) Nickolson:Aliterary History of theArabs p.446

من التقدم المغولي، وقدر أن هولاكو وجنوده سوف يستولون على الشام بين عشية وضحاها ، وأن الشام لن يجد من يحميه من ملوك الايوبين أومماليك القاهرة سواء ، لذا أرسل ابنه الملك العزيز محمد سنة ١٢٥٨م إلى هولاكو يخطب وده ويسأله أن يعينه على أخذ مصر من أيدى المماليك ، وكان حريا بهولاكو أن يقبل الطلب لو أن أمير دمشق أحاطه بشئ من العناية وذهب بنفسه يطلب حلف الايلخان المغولي ويعرض عليه ولاءه وتبعيته، ولكن الناصر لم ير فيما يبدو أن يرتبط بعهد وثيق ، ففضل البقاء بعيدا عن حضرة هولاكو ، حتى إذا أصيبت القوى المغولية بالهزيمة أمام المسلمين استطاع أن يجد لنفسه بعض المعاذير . وغضب هولاكو من هذا الوفد الذى لم يناسب مقامه ، فأرسل إلى الملك الناصر رسالة يأمره فيها بالخضوع والتبعية دون قيد أوشرط . وعندما رأى الملك الناصر حبوط مسعاه ، وأن محاولته هذه جعلته مريبا عند المسلمين ، رد على رسالة هولاكو برسالة كلها قذف وسباب ، ودفع ثمن ذلك غاليا فيما بعد .

وفى سبتمبر سنة ١٢٥٩م (٦٥٧هـ) غزا هولاكو الشام بجيش قوى، وحاصر ابنه يشموط ميافارقين ، وأدرك الناصر استحالة الوقوف وحده فى وجه التتار ، فقرر أن يطلب من المماليك معونة حربية تسمح له بوقف سيل المغيرين .وكان سلطان مصر فى ذلك الوقت الملك المظفر سيف الدين قطز وهو من الخوارزمية [1] النقاقمين على التتر والعارفين بما

---

(١) كان قطز شابا أشقر كبير اللحية يقال أن اسمه الاصلى محمود ابن مودود ، وانه ينتسب إلى بيت الملك فى خوارزم – ابن أخت جلال الدين خوارزمشاه – ولما قضى المغول على ملك هذه الأسرة كأن قطز من السبايا الذين حملوا إلى دمشق ، وهناك بيع بيع الرقيق للسلطان أيبك التركمانى . ويؤثر عن قطز أنه قال لأحد المنجمين « أنا أكسرهم – أى التتار – وآخذ بثأر خالى خوارزم شاه ويقال أن كلمة قطز معناها بالتركية =

يسفكونه من دماء فى أى بلد يحلون فيه . وعلى الرغم من سوء العلاقات بين قطز والناصر ، فإن خطورة الموقف جعلت السلطان المملوكى يتناسى الأحقاد ويقبل طلبه الخاص بارسال نجدات عسكرية اليه . ويظهر دهاء قطز بوضوح فى الرسالة التى أرسلها إلى الناصر لهذا الغرض، اذ يخبره فيها بأنه يقبل كل عروضه عن طيب خاطر ،ولايقتصر على ذلك بل يعتبر الناصر أيضا - بصفته سليل صلاح الدين - ملكا على جميع الممالك التى خضعت لسلطان الايوبين ومنها مصر ، ثم يضيف بأنه - أى قطز - ليس إلا أحد قادته على ضفاف النيل ، وأنه يتعهد أن يعطيه السلطنة العليا اذ أراد القدوم إلى القاهرة. كما يعرض عليه أن يرسل له جيشه إلى دمشق ليجنبه عناء القدوم بنفسه إلى القاهرة إذا كان يرتاب فى صدق نواياه . وسواء أكانت هذه الوعود آتية من الفزع من هولاكو أو آتية من أن قطز يريد أن يخدع أمير دمشق ليأخذ أملاكه فيما بعد، فإن المغول انتهزوا فرصة سكون الناصر وتابعوا السير إلى الشام ، فاستولوا على حلب فى ٢٥ يناير سنة ١٢٦٠م ٠صفر ٦٥٨ هـ) بعد سبعة أيام مروعة من السفك والتخريب . ثم سقطت ميافارقين بعد ذلك بعدة شهور فى يد يشموط ابن هولاكو ، بعد أن دافعت حاميتها دفاعا باسلا لم يشهد المغول مثله ، واستشهد صاحبها الملك الكامل محمد الإيوبى .

وأمام ذلك الخطر الداهم رأى بعض أمراء الايوبيين فى الشام أن يخضعوا للغزاة حرصا على كيانهم ، ومن هؤلاء الملك الأشرف موسى

=الكلب الشرس - راجع (الكتبى : فوات الوفيات - جـ ٢ ، ص ١٣٢ - ١٩٣)
ويلاحظ أنه فى تلك السنة عزل قطز السلطان على بن أيبك وأعلن نفسه سلطانا مبررا ذلك بقوله : « لابد من سلطان قاهر يقاتل العدو والملك الصغير على صبى لا يعرف تدبير المملكة »

سليل أسد الدين شيركوه الذى لم يكن يملك فى ذلك الوقت إلا قرية تل باشر الصغيرة قرب الرها . وكأفأه ، هولاكو على ذلك بأن رد إليه امارة حمص التى أخذها منه الناصر يوسف قبل ذلك باثنى عشر عاما (٦٤٦هـ) ، وجعله قائده العام فى الشام ،أما الناصر فإنه خرج بجيوشه من دمشق ومعه مماليكه الناصرية والعزيزية وعدة من البحرية وعلى رأسهم الأمير بيبرس البند قدارى [١] ، وخيم على برزه [٢] ، على مسافة يسيرة من دمشق شمالا . غير أن تعدد عناصر جيشه وقديم التنافربين تلك العناصر فضلا عن اختلاف قلوب امرائه، وتآمر مماليكه الناصريةعلى قتله ، وخوف الأمراء من هولاكو وجنوده ، سرعان ما جعل ذلك التعس أن ينسحب إلى غزة حيث يكون على مقربة من النجدة التى وعده بها سلطان مصر وكانت هذه الخطة المتقلبة موافقة إلى أقصى حد لطبيعته فإنه لم يفكر مطلقا فى حماية عاصمته وتعرض حياته للخطر بها ، بل أسرع بتركها لوزيره زين الدين الحافظى [٣] ، الذى سلمها للمغول فى مارس

---

(١) سبق أن اشرنا إلى مقاومة المماليك البحرية للملك الناصر والتجائهم إلى الملك المغيث الأيوبى صاحب الكرك ونضيف إلى ذلك بأن هؤلاء المماليك لجأوا إلى الاغارة على املاك الملك الناصر الأمر الذى جعله يزحف بجيوشه نحو الكرك ويحاصر المغيث بها سنة ٦٥٧ هـ لحمايته لهم . واضطر المغيث إلى قبول شروط الناصر التى منها تسليم ما عنده من البحرية اليه . ولما علم بيبرس بذلك هرب فى جماعه من البحرية إلى املك الناصر طالبين منه العفو فعفى عنهم وأدخلهم فى خدمته ، وقبض المغيث على من بقى عنده من البحرية وبعث بهم إلى الملك الناصر فاعتقلهم بقلعة حلب ، وظلوا بها إلى أن استولى التتار عليهم فأخذهم هولاكو مع ممن أسر إلى بلاده ، راجع (ابن واصل - مفرج الكروب = جـ ٢ ، ص ٣٩٠ - ٣٩١)، أبو الفدا جـ ٣ ، ٢٠٣ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ص ٤١٤ - ٤١٥، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة : جـ ٧ ، ص ٥٣) .

(٢) هى قرية بالغوطة - (ياقوت : معجم البلدان ، جـ١ ، ص ٥٦٣) .

(٣) الأمير زين الدين سليمان بن المؤيد بن عامر العقربانى المعروف بالزين الحافظى كان =

سنة ١٢٦٠م (ربيع الأول سنة ٦٥٨هـ) ، وحاولت قلعتها الحصينة المقاومة دون جدوى، واستسلمت الحامية فى ٣ يونيو من نفس السنة [(١)]. ونجت دمشق من التخريب [(٢)] بفضل وساطة أعيانها ، واقتدت انطاكية بدمشق فى التسليم ولكنها لم تسلم من التخريب [(٣)]. وفى ذلك الوقت علم هولاكو بموت أخيه الخان الأعظم منجوقان ، فأسند قيادة جيوشه فى الشام إلى كتبغانوين ورحل مسرعا إلى القورلتاى – مجمع زعماء التتر – فى العاصمة قرة قورم [(٤)]، حيث تجرى الانتخابات لاختيار خاقان المغول الجديد . وقدر هولاكو أنه سوف يعين خاقانا

= أبوه خطيب عقربا من قرى دمشق ، واشتغل هو بالطب حتى مهر فيه ، ولقب بالحافظى لأنه خدم الحافظ نور الدين أرسلان شاه بن العادل أبو بكر بن أيوب صاحب قلعة جعبر ، ثم انتقل إلى خدمة الملك الناصر يوسف بحلب ، فصارت له عنده منزلة رفيعة ، وكثرت أمواله ، وصار مكينا فى دولته ويرسل عنه إلى هولاكو، فمازج التتار وأطمعهم فى البلاد ، وعاد فهول بهم على الناصر حتى هرب ، فقام هو بأمر دمشق للتتار ودعوه بالملك زين الدين ، وبعد هزيمة التتار فى عين جالوت فرمع نواب التتار من دمشق خوفا من الملك المظفر . وقد قتل زين الدين الحافظى بيد المغول سنة ٦٦٢ هـ .

(١) نقش على جدران قلعة دمشق عبارة تذكارية عن حملة المغول عليها تبين أن سقوط القلعة فى أيدى المغول كان فى ٢١ جمادى الأخرة ٦٥٨ هـ (٣ يونيو ١٩٦٠ م) وأن استعادة الجيش المصرى والشامى لها كان فى ٢٧ رمضان من نفس السنة (٥ سبتمبر) أما المدينة نفسها فسلمت قبل سقوط قلعتها بنحو شهرين .

(٢) كان المورخ المعروف بأبى شامة موجودا بدمشق أثناء الاحتلال المغولى لها ، وقد وصف هذا الغزو مفصلا فى كتابه « الذيل على الروضتين » ص ٢٠٤ وختمه بقوله « والحمد لله الذى عافانا مما ابتلى به غيرنا » .

(٣) Cambridge Medieval History Iv p.643.

(٤) قره قورم مدينة فى منغوليا على نهر أرخون فى وسط آسيا ولم يبق منها الآن سوى الأنقاض ودير بوذى .

للمغول لأهمية فتوحاته واتساعها ، ولكنه علم فى تبريز [1]، أن الاختيار وقع على أخيه قوبيلاى [2]، (١٢٦٠ - ١٢٩٤) ، وأن الاختيار تقرر بصفة غير شرعية بوساطة أمراء مغول الشرق الأقصى الذين أرادوا افساد الانتخابات قبل مجئ امراء الغرب ، وكان ذلك منافيا لقواعد الحكم التى قررها جنكيزخان ، ولكن هولاكو قبل تلك النتيجة احتراما لأخيه قوبلاى .

أما الناصر فإنه ما كاد يصل إلى غزة على رأس جيشه حتى أخذ قطز فى اغراء وحدات ذلك الجيش واجتذابها إلى ناحيته [3]، وذلك لأن قطز لم يكن يخشى شيئا خشيته من وصول أمير أيوبى على رأس قوة حربية إلى حدود مصر . ونجحت اغراءات قطز حتى ألقى الناصر نفسه وحيدا فى غزة ، فخرج منها فى بعض أقاربه وحاشيته وهو لايدرى بالضبط ماذا يفعل، فاتجه إلى قطيا [4] بجنوب فلسطين لعله يجد فيها ماوى أونجاة من المغول من ناحية والمماليك من ناحية أخرى . وبينما هو على تلك الحال

---

(١) حلت تبريز منذ ذلك الوقت محل بغداد فى الجاه والثراء ، وأصبحت العراق تحكم حكما مغوليا من هناك .

(٢) صار قوبيلاى الخان الأعظم على بلاد التتر حتى سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٤م) واستولى فى أثناء حكمه على البقية من بلاد الصين ، ونقل عاصمة التتر من قراقوروم إلى خان بالق وهى بكين الحالية ، واتصبغت دولة قوبيلاى منذ ذلك الوقت بصبغة صينية من دون سائر دول التتار وعرفت الأسرة الحاكمة بها باسم يون Yuen

Blochet :Histoire des Sultans Mamlouks I., P377.

(٣) يروى أبوشامه فى هذا الصدد العبارة التالية « . . . فتوجه الترك إلى مصر مع الأثقال ، وتوجه هو - أى الناصر - مع خواصه إلى وادى موسى ثم نزل بركة زيزى وكبسه نائب التاريها » . راجع (الذيل على الروضتين - ٢٠٥) .

(٤) وتكتب أيضا قطية وهى قرية من نواحى الجفار فى الطريق بين مصر والشام فى وسط الرمل قرب الفرما وبها جامع ومارستان (مستشفى) وبها والى طبلخاناه مقيم لأخذ العشر من التجار ، وبها قاض وناظر وشهود ومباشرون .ـلايمكن أحد من الجواز من مصر =

افشى أثنان من رجاله إلى كبتغانوين[1]- نائب هولاكو بدمشق - سر ارتداد الناصر عن الحدود المصرية ، فأرسل القائد المغولى ثلة من الفرسان قبضت على الأمير الأيوبى عند بركة زيزاء[2] وحملته إلى هولاكو وأختار هولاكو أن ينسى خطاب السب الذى أرسله إليه الناصر ردا على خطابه ، أو لعله - لأن المغول لاينسون شيئا - رأى أن أمير دمشق أنفع له وللسياسة التى يرى اتباعها مع المسلمين من أمير حمص الشاب الملك الاشرف موسى ، ولهذا لقيه لقاء طيبا ، ووعده بأحياء الامبراطورية الأيوبية الممتدة من أطراف الشام إلى النوبة ومن برقة إلى الفرات ، كما وعده بأنه سوف يجعل له السيادة الفعلية فى تلك البلاد كلها بما فى ذلك مصر بشرط أن يعترف بسلطان المغول وسيادة الخان الأكبر ، وهنا تتضح لنا حقيقة لها

= إلى الشام أو بالعكس إلا بجواز مرور . وكان بها مكان لأخذ المكس من القادمين إلى مصر (ياقوت - معجم البلدان ، ج ٤ ص ١٤٤) ، وقد اندثرت هذه القرية الآن ولم يبق الا أطلالهـا فى الطريق بين القنطرة والعريش فى الجنوب الشرقى من محطة الرمانة (الرومانى قديما) وعلى بعد عشرة كيلو مترات منها . راجع - (أبو المحاسن - النجوم = جـ ٧ ص ٧٧ حاشية رقم ٢) .

(١) يرد أسم هذا القائد على صيغ مختلفة مثل كتبوغا وكتبوقا وكيتوقا نوين ، وهو من قبيلة تربة اعتنقت الدين المسيحى منذ قرون وقد يكون هذا من الأسباب التى جعلته يضطهد مسلمى دمشق ويعظم قسوس النصارى وينزل كنائسهم مما يشجع نصارى دمشق على الاستطالة على المسلمين (أبوشامه - الذيل على الروضتين ص ٢٠٨ ، المقريزى - السلوك - جـ ١ ص ٤٢٥) ونوين - حسب ضبط صبح الأعشى - جـ ٦ ص ٣٣ - لفظ فارسى كثيرا ما يقرن بأسماء قواد التتر ومعناه مقدم ألف وقيل عشرة آلاف - (أبو المحاسن - النجوم - جـ ٧ ص ٧٨ حاشية ٢) .

(٢) قرية من قرى البلقاء الكبيرة ، والبلقاء كورة من اعمال دمشق - يطؤها الحاج ويقام بها لهم سوق - وفيها بركة عظيمة (ياقوت - معجم البلدان = جـ ٢ ص ٩٦٦) .

أهميتها فيما يتعلق بسلامة دولة المماليك في مصر ألا وهي تواطؤ ملك الأيوبين مع المغول في القضاء على الدولة المملوكية الناشئة ، وهذه الحقيقة أن دلت على شي فإنما تدل على مدى ما تعرضت له الدولة المملوكية من الأخطار المهددة لكيانها . كما تدلى على أن قيام دولة؛ للمماليك ظل ناقصا مادامت تلك الأخطار ماثلة.

ورأى هولاكو أن تتابع جيوشه زحفها نحو الغرب ، غير مقتصر على الفتوحات الهامة التى تمت له بالاستيلاء على حلب ودمشق، فأخذ بعد العدة للهجوم على بيت المقدس والتعقيب على ذلك بغزو البلاد المصرية ، فأرسل رسله إلى مصر بكتاب كله وعيد وتهديد وأنذار بالويل والثبور لسلطان مصر المملوكى أن هو لم يخضع له ويعترف بسلطان المغول . وقد أوردنا - كضميمة في آخر الكتاب - نص هذا الخطاب الذى يدل على مبلغ اعتداد المغول بأنفسهم ومدى ما أحدثوه في البلاد التى فتحوها من قتل وتخريب .

وامام هذا الخطر الداهم عقد السلطان قطز مجلسا من كبار الأمراء ، واستقر الرأى على مقابلة وعيد التتر بالاستعداد للحرب . وحوالى ذلك الوقت أخذ كثير من أمراء المماليك البحرية ، الذين هربوا من القاهرة أيام أيبك خوفا من أن ينالهم مانال أقطاى ، وبقوا في متصف الدويلات الشامية الأيوبية ، وفى بلاط دولة سلاجقة الروم بأسيا الصغرى، أخذوا يفدون إلى القاهرة بعد أن أنتشر المغول بأكبر مدن الشام وهددوا آسيا الصغرى نفسها ، ونسى أولئك المماليك مخاوفهم ونسى قطز مخاوفه كذلك ، فرحب بمقدمهم ومنحهم الاقطاعات الجليلة الواسعة ، فصار

المماليك بذلك كتلة واحدة متحدة ، وتلك الظاهرة تتكرر كثيرا في صفوف المماليك أبان الأزمات التى تعرضت لها دولتهم فى تاريخها الطويل ومن ضمن المماليك الذين رجعوا إلى القاهرة والقائلين بوجوب مقاتلة التتر ، الأمير بيبرس البند قدارى [1] ، الذى استقبله قطز مرحبا سنة ١٢٦٠م (٦٥٨ هـ) ، وأنزله بدار الوزارة [2] وأقطعه قليوب وأعمالها [3] .

وكان رد قطز على تهديد هولاكو واضحا ، اذ قبض على رسل المغول وأعدمهم توسيطا [4] وعلق رؤوسهم على بابب زويلة ، ونودى فى القاهرة وسائر الأقاليم بالخروج إلى الجهاد [1] وفى نفس الوقت أخذ

(١) يقال إن بيبرس طلب من الناصر عندما كان مقيما عنده ، أن يقدمه أو غيره على أربعة آلاف فارس ليتوجه بهم إلى شط الفرات ليمنع التتر من عبوره ، فلم يمكنه الناصر من ذلك، ففارقه وقدم إلى مصر . (الكتبى : فوات الوفيات ، جـ ١ ص ٨٦) . ويقال كذلك أن بيبرس سب الوزير زين الدين الحافظى حينما أشار على الملك الناصر بعدم مقاتلة التتر ، وصاح به قائلا « انتم سبب هلاك المسلمين - » راجع « المقريزى : السلوك - جـ ١ ص ٤١٩) .

(٢) كانت دار الوزارة بجوار القصر الخلافى الفاطمى المعروف بالقصر الشرقى الكبير ، بناها الوزير الأفضل بن بدر الجمالى ويقال أن بدر الجمالى نفسه هو الذى بناها . وكان يسكنها اوزراء الدولة الفاطمية أرباب السيوف من عهد الأفضل إلى أن زالت الدولة ، وكانت تعرف بالدار الأفضلية . ثم استقر بها صلاح الدين الأيوبى وابنه العزيز ثم الملك العادل وصاروا يسمونها بالدار السلطانية . وأول من انتقل عنها من الملوك وسكن قلعة الجبل الملك الكامل بن العادل الذى جعلها منزلا للرسل ، فلما ولى قطز ملك مصر وحضر اليه المماليك البحرية من الشام خرج قطز للقائهم وأنزل الأمير بيبرس دار الوزاز ، راجع (المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ص ٣٠١ - ٣٠٢) .

(٣) الكتبى : فوات الوفيات ، جـ (ص ٨٦ ، المقريزى : السلوك ، جـ ١ ص ٤١٩ - ٤٢٠ .

(٤) التوسيط هو أن يضرب الشخص بالسيف ضربة تقطعه نصفين بوكان هذا النواع من الاعدام شائعا بمصر فى العصور الوسطى .

قطز يعمل على حشد الجيوش وجمع الأموال اللازمة للانفاق بفرض ضرائب جديدة مختلفة على سكان مصر والقاهرة [٢]. ولقى قطز فى جباية تلك الضرائب معارضة شديدة من جانب القضاة ورجال الدين ، اذ اشترطوا عليه أولا احضار ما عنده وعند حريمة ، وما عند الأمراء من الحلى وضربها سكة ونقدا ، وتفريقها على رجال الجيش ، فإن لم تقم بكفايتهم جاز أن يفرض ضرائب جديدة على الرعية ، وأن يقترض من أموال التجار ليستعين بذلك على مجاهدة أعداء الدين. وامتثل قطز لرأى رجال الدين ولم يشرع فى جمع الأموال من المصريين إلا بعد أن أحضر هو والأمراء ما عندهم من الحلى والأموال بين يدى الشيخ عز الدين بن عبد السلام أقوى رجال الدين مكانة فى ذلك الوقت [٣] ولم يقتصر الأمراء على ذلك بل لقى قطز صعوبة أخرى فى اقناع كثير من الأمراء بوجوب الرحيل معه من مصر لملاقاة التتر ، فأخذ يعمل على أثارة نخوتهم واستنهاض همتهم بقوله « يا امراء المسلمين ، لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون ، وأنا متوجه ، فمن اختار الجهاد

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ص ٤٢٩ .

(٢) وضح لنا ابن اياس (بدائع الزهور جـ ١ص ٩٦ - ٩٧) هذه الضرائب فقال أن قطر « أخذ فى أسباب جمع الأموال فأخذ من أهل مصر والقاهرة على كل رأس من الناس من ذكر وأنثى دينارا واحدا ، وأخذ من أجرة الأملاك والأوقاف شهرا واحدا ، وأخذ من أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلا ، وأخذ من الترك الأهلية الثلث ، من المال ، وأخذ على الغيطان والسواقى أجرة شهر ، وأحدث من أبواب هذه المظالم أشياء كثيرة فبلغ جمله ما جمعه من الأموال فى هذه الحركة ستمائة ألف دينار » . والمقصود بالترك الأهلية عناصر الترك المقيمة بمصر من زمن طويل السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٣٧ حاشية ٥) .

(٣) تاج الدين السبكى - طبقات الشافعية الكبرى - جـ ٥ ص ٨٣ - ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص ٣٩٢)

يصحبني ، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه ، وخطيئة المسلمين فى رقاب المتأخرين »[1]. وكان لهذه الخطبة أثرها فى تقوية روحهم المنهارة فتحالفوا جميعا على الجهاد فى قتال العدو ودفعه عن البلاد .

يتضح لنا مما تقدم أنه فضلا عن الصعوبات الخارجية التى واجهت دولة المماليك من جراء انضمام الأيوبين إلى المغول فى غزو مصر ، واجهتها صعوبات أخرى داخلية لاتقل عنها خطرا ، عندما أعلنت التعبئة العامة من مال ورجال لصد ذلك الخطر المغولى الداهم .وفى أغسطس سنة ١٢٦٠م (رمضان سنة ٦٥٨ هـ) خرج قطز من مصر على رأس الجيوش المصرية ومن أنضم اليه من الجنود الشامية وغيرهم ، وأمر الأمير بيبرس أن يتقدم بقطعة من العسكر ليكشف أخبار التتار ، فسار بيبرس حتى لقى المغول عند غزة ، وتمكن بيبرس من أن يلحق بطلائع المغول هزيمة كانت الأولى فى تاريخ المغول غير أنها لم تكن حاسمة ، وأخذ بيبرس يناوش العدو ويراوغه ليخفى عنه تحركات الجيش الرئيسى بقيادة قطز . ثم تقدم قطز عن طريق الساحل، فعرج أولا نحو عكا لكى يتبين نيات الفرنج الذين ارتبطوا مع الناصر سلطان حلب ودمشق بمعاهدة منذ ٢١ فبراير سنة ١٢٥٤م وتستمر عشرة أعوام ، وقد أندمجت مصر فى تلك المعاهدة بعد عقدها فى سنة ١٢٥٦م ، ويقول بعض المؤرخين فى ذلك الصدد أن الفرنج عرضوا وقتذاك على قطز أن يمدوه بقوات من عندهم ، ولكنه أكتفى بأن طلب منهم التزام الحيدة التامة وإلا قاتلهم قبل أن يلقى التتر . غير أن أحوال الصليبيين ببلاد الشام لم تكن تسمح لهم بتقديم أية

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ص ٤٢١ .

مساعدة للسلطان قطز أو المغول ، ولم يكن السلطان قطز في الواقع بحاجة إلى خشيتهم أو تهديدهم لأن أحوال مسيحى الشام جميعا ولاسيما فى عكا بلغت أقصى درجات السوء حيث قام نزع بين الجنوية والبنادقة سنة ١٢٥٦م ، وسرعان ما تطور ذلك النزاع إلى حرب أهلية دخلت فيها كل العناصر المسيحية ، فانضم البيازنة ، وفيلب دى مونتفورت أمير صور إلى الجنوية وانضم بوهمند السادس أمير انطاكية إلى البنادقة ، ولم تستطع جماعات الفرسان الحربية المعروفة أن تقف مكتوفة الأيدى ، فانضم الاسبتاريون إلى الجنوية وانضم الداوية والتيوتون وهيئة القديس توماس أكون لازارس إلى البنادقه ، وامتدت الحرب على طول ساحل الشام برا وبحرا ، فقتل عدد كبير منهم وتلفت كميات هائلة من البضائع ، ولم ينته هذا الصراع إلا بعقد معاهدة بين الطرفين فى ٩ أكتوبر سنة ١٢٥٨م . ومن هنا نرى أن حالة الفرغ الداخلية - حينما تقدم قطز لقتال للمغول سنة ١٢٦٠م - كانت من الضعف والسوء بمكان بحيث لاتسمح لهم بالاشتراك فعليا فى مساعدة القوة المصرية أو المغولية على السواء (١).

ثم وافى قطز الأمير بيبرس عند من جالوت (٢). ويروى بعض المؤرخين أن رجوع هولاكو بجزء من جيشه إلى فارس قبيل ذلك الوقت أضعف من قوى المغول أمام المماليك ، بل يقول أبو المحاسن أن بعض أمراء

---

(١) Wiet : Histoire de la nation Egyptienne Iv, p.410

(٢) بليدة شرقى طرين بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين ويرجع هذا الاسم إلى الاسطورة القائلة بأن داود قتل جالوت فى هذا المكان وقد سماها الصليبيون مدينة Tubanea . راجع (ياقوت- معجم البلدان ج ٣ ص ٧٦)

أمراء المسلمين الخاضعين للتتر، نصحوا القائد المغولي بالانتظار ريثما يعود هولاكو أو يصل المدد من عنده إلى الشام ليستطيع ملاقاة الجيش المصري [1] وكيفما كان الأمر فإن رجوع هولاكو إلى فارس لم يغير من عزم التتر على التقدم لغزو مصر، كما أنه لم يلق في نفوس المماليك أمنا ولا هدوءا، بل ظلت قلوبهم مضطربة واهمة من هؤلاء القوم الذين اجتاحوا آسيا وجزءا من أوربا دون أن تلحق بهم هزيمة واحدة. وفي صباح يوم الجمعة الموافق ٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠م (٢٦رمضان سنة ٦٥٨هـ) التقى الجمعان المغولي والمملوكي في معركة عامة عند عين جالوت. وليس أدل على تفاصيل تلك المعركة وأسرارها من رواية «صارم الدين أزبك عبد الله الاشرفي [2] الذى وقع أسيرا في يد المغول أبان

---

(١) يقال إن هولاكو كان يتأهب للزحف على مصر بحوالي أربعين ألف جندي، ولكنه بوفاة أخيه منجوقان تضطره إلى الرجوع بجزء من جيشه إلى فارس بعد أن ترك بالشام قائده كتبغا نوين مع عشرة آلاف من عساكره لتنفيذ مهمة فتح مصر - راجع (الرمزي - تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار - جـ ١ ص ٤١٩).

(٢) بدأ صارم الدين أزبك حياته مملوكا عند الملك الأشرف موسى صاحب حمص، وشغل وظائف الولاية في الشام، وعاش ببلاد المغول مدة من الزمان، وتوفي في حوالي سن الخمسين بالقاهرة - فبراير ١٢٨١م (شوال سنة ٦٧٩ هـ) بعد أن أعطانا معلومات دقيقة عن المغول، وصورا حية عن عاداتهم تضمنها التاريخ الذى كتبه قرطاي العزى الخازندارى وهو أيضا - وظف مملوكي شغل وظائف أمير دمشق وحاجب حلب ونائب طرابلس وتوفي سنة ١٣٢٣م (٧٢٤هـ) فوق سن الستين. والجزء الخاص بأخبار صارم الدين أزبك في تاريخ قرطاي العزى مخطوط بمكتبة الفاتيكان (ar.626) وقد نشره العالم الايطالي Levi Della Vida تحت عنوان «غارة التتار على سوريا في سنة ١٢٦٠م كما رواها شاهد عيان»

ويوجد هذا النص في مخطوط (عبد الله بن أيبك - كنز الدرر وجامع الغرر - جـ ٨ق ١ لوحة ٤٦ - ٥٣ - (مخطوط بدار الكتب). ونظرا لأهمية هذا النص رأينا نقله برمته كضميمة في آخر هذا الكتاب.

غزوهم الشام ، وقبل الخدمة فى صفوفهم وحارب معهم فى تلك الوقعة ، فروايته لها قيمتها لابصفة شاهدعيان للموقعة فحسب ، بل للدور الذى لعبه فيها كما يتضح من النص حيث يقول فيه « . . لما قدمت الشام ، وجدت التتار مجتمعين على نهر الأردن وقد خرجوا قاصدين الديار المصرية، وقد خرج المسلمون للقائهم . فلما علمت أن التتر لابد لهم من الديار المصرية ، بعثت غلاما لى فى صفة جاسوس وامرته أن يجتمع بالملك المظفر قطز ، والأمير بيبرس البندقدارى وبلبان الرشيدى وسنقر الرومى، ويعرفهم أن التتار لاشىء فلا تخافوا منهم، وأن تكون ميسرة المسلمين قوية بالخيل والرجال ، وعرفهم أن التتار فى عسكر قليل. وأوصيته أن يراعى المسلمين أن يكون الملتقى عند طلوع الشمس . فلما وصل غلامى إلى عسكر المسلمين وجدهم خائفين من التتار خوفا عظيما ، فاجتمع ببعض الأمراء الذين عرفته بهم ، وعرفهم ما أوصيتهم به، وكنت قلت فى كلامى : قل للأمراء، لاتخافوا ، ما أنا واصحابى والملك الأشرف ، ننهزم بين أيديكم ، والله وكذلك كان . فلما سمع الأمراء كلام غلامى ، قال بعضهم لبعض - « لا يكون هذا معمولية على المسلمين ». فلما كان ملتقى الجمعين على عين جالوت ، طلعت الشمس علينا وظلت عساكر الإسلام ، كان أول سنجق سبق أحمر وأبيض ، وكانوا لابسين العدد المليحة . وأشرقت الشمس على تلك العدد ، فطلبنى كتبغا وقد بهت هو والتتار الذين معه لكثرة تلك العساكر وحسن ما عليهم وجمالهم وهم ينحدرون من الجبل ، وقال لى « ياصارم ، هذا رنك[1] من؟ » قلت سنقر الرومى» . ثم

(١) رنك كلمة فارسية بمعنى لون وقد استعملت فى أوربا فى العصور الوسطى كشعار للأشخاص والأسر بينما استعملت فى المشرق كشعار للوظائف وكان من عادة كل=

ظهرت سناحق صفر ، قال « هذا رنك من ؟ » قلت بليان الرشيدى .
ثم تتابعت الاطلاب أولا فأول وانحدروا من سفح الجبل، ودقت الكوسات والطبلخانات، وامتلأ الوادى والبر من العياط وغابت الفلاحين وأهل القرية والبلدان من كل جانب ، وكنت غرا بمعرفة رنوك المسلمين ، فصار كتبغا يسألنى « هذا رنك من » ؟ فصرت أى شيء طلع على لسانى قلته ، ثم أن التتار انحازوا إلى الجبل ، وفتح الله ونصر هذه الملة المحمدية بالمماليك الترك البحرية ، ولم يسلم من التتر من يرد الخبر إلى هلاوون (١)، ولكن قتل الجميع ولم يرد خبرهم الا من كان مقيما بدمشق أو حلب » .

وتزيد المصادر العربية المعاصرة فى تفاصيل هذه الوقعة على رواية صارم الدين ، فتقول بأن المغول انقضوا على المصريين فى بأدىء الأمر وتمكنوا من تشتيت شمل جناحهم الأيسر ، فاضطرب المصريون وتزلزلوا

=أمير مملوكى كبير أو صغير أن يكون له رنك يخصه ، والرنك شعار فيه رسوم تدل على الوظيفة التى شغلها الأمير وقت ترقيته إلى مرتبة الامرة أو على الوظيفة التى يؤثر أن يعرف بها ن بين الوظائف التى تقلب فيها وهو لا يختلف عن رنوك الاسرة الاقطاعية فى أوربا فى العصور الوسطى الامن حيث كونها شخصيه ومن حيث دلالتها على الوظائف .فكان لوظيفة الدواطر رسم دواة ، وللساقى رسم كأس وهو المعروف فى العصر المملوكى بأسم هناب ، والجاشنكير (الذواق) وسم خوان وللسلاح دارسيف، وللبند قدار سيف، وللجمدار بقجة وهكذا وقدجعل الأمراء هذه الرنوك دهانا على أبواب بيوتهم والاماكن المنسوبه اليهم كمطابخ السكر وشون الغلال التابعة لهم والاملاك والمراكب وغير ذلك ، وعلى قماش خيولهم من جوخ ملون مقصوص ثم على قماش جمالهم من خيوط صوف ملونة ، وربما جعلوها على السيوف والاقواس الخاصة بهم ومماليكهم أيضا .
راجع (القلقشندى - صبح الاعشى - جـ ٤ص٦ - ٦٢، المقريزى - السلوك جـ١ ، ص ٦٧٣حاشية رقم ٤ ، وكذلك - (Fox Davies : Acamplete Guide to Heraldry p. 1-12
(١) صيغة لاسم هولاكو ترد كثيرا فى كتب المؤرخين المعاصرين .

زلزالا شديدا ، وبانت الكسرة عليهم ، وعند ذلك ألقى السلطان قطز خوذته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته «واأسلاماه» وقاد الهجوم بنفسه فضرب بذلك مثلا من أمثلة الشجاعة النادرة اذ سرعان ما التفت حوله القوات المصرية وحملوا على المغول حملة صادقة ، فاختل توازنهم وارتدوا إلى التلال المجاورة بعد أن تركوا قائدهم كتبغا صريعا فى الميدان وابنه اسيرا فى أيدى المماليك ، ولقد عاد المغول وانتظموا ثانية عند بيسان فاشتبك معهم المصريون فى معركة ثانية ،واشتدت وطأة القتال ، وعاد السلطان قطز يصيح صيحة عظيمة سمعها معظم العسكر وهو يقول «وا إسلاماه» ثلاث مرات « يا ألله، انصر عبدك قطز على التتار» . عند ذلك مالت كفة النصر إلى جانب الجيوش المصرية ، وانتهى أمر هذه الواقعة الدامية التى اهتز فيها ميزان النصر والهزيمة مرات إلى نصر المماليك وهزيمة المغول لأول مرة فى تاريخهم . عند ذلك نزل السلطان قطز عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها وصلى ركعتين شكرا لله ثم ركب لينظر عاقبة المغول [1] .

هذا وقد أورد القلقشندى (جـ٧ ص ٣٦٠) رسالة فريدة على لسان الملك المظفر قطز إلى الملك المنصور نور الدين سلطان الدولة الرسولية

---

(١) راجع المقريزى - السلوك - جـ ١ ص ٤٣١ ، أبو المحاسن - النجوم الزاهرة - جـ ٧ ، ص ٧٩ ، أبوالفداء - جـ ٣ ، ص ٣٢٤ ، عبد الله بن أيبك - كنز الدرر - جـ ٨ ق ١ ، ص ٤٢ - ٤٣ ، ابن إياس - بدائع الزهور - جـ ١ ص ٩٧) . وقال أبوشامة فى هذا الصدد :

غلب التتار على البلاد فجاءهم ... من مصر تركى يجود بنفسه

بالشام أهلكهم وبدد شملهم ... ولكل شىء آفة من جنسه

أنظر : (أبو شامه - الذيل على الروضتين - ص ٢٠٨) .

باليمن يبشره فيها بهزيمة التتار ، والرسالة قطعة أدبية فى وصف المعركة من انشاء القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر . ويعترف القلقشندى بأنه تلقفها من افواه بعض الناس كان قدعثر عليها فى بعض الجامع فحفظها منه ، وقد رأينا نقلها كضميمة فى آخر الكتاب .

ولقد كانت وقعة عين جالوت الحلقة الأولى فى سلسلة الوقائع بين التتار ودولة المماليك كما أنها تعتبر تجربة حربية بين أسلوبين وفنين من فنون الحرب فى العصور الوسطى .

ومن الواضح أن هذه الواقعة التى انتهت بهزيمة المغول لأول مرة فى تاريخهم ، بددت عقدة المناعة الحربية التى كانت سر انتصاراتهم منذ أيام جنكيزخان ، فانقشعت عن العالم خرافة الاعتقاد بأن المغول قوم لاينهزمون (١)، على أن الأهمية الكبرى لهذه الواقعة هى أنها نصر لجيوش دولة لازالت فى دور التأسيس تتلمس مختلف الوسائل التى تدعم بها أركانها ، فجاء انتصار المماليك فى تلك الواقعة خدمة كبرى لهذه الدولة الناشئة ، وعاملا من العوامل المؤسسة لها اذ أخذ العالم الإسلامى ينظر إلى الدولة المملوكية نظرة كلها اجلال وعطف . وروايات المؤرخين عن هذه الحملة التى تجاوزت نتائجها الخاطفة كل آمال المسلمين تشهد بفضل مصر ودولة المماليك ، فيروى الخزرجى مثلا أن المظفر نورالدين سلطان دولة بنى رسول باليمن ، حج بجيش كبير فى العام التالى للموقعة أى فى سنة ٦٥٩هـ (١٢٦١م). وهناك فى الحجاز طلعت أعلامه الشريفة وأعلام سلطان مصر . فقال له احد الأمراء : « هلا أطلعت أعلامك بإعلامك ولانا

---

(١) راجع : Browne :Aliterary History of Persia IIIp.6.

السلطان قبـل اعـلام المصريـين ؟ » فقال له سلطان اليمن: « أتراني أؤخر أعلام ملك كسر التتار بالأمس، وأقدم أعلامي لحضوري » ، هذا التصريح الجميل يدل على أن دولة المماليك في مصر قد اكتسبت عطفا و نفوذا في العالم نتيجة لهذا النصر [١].

ويقول أبو الفداء في هذا المعنى أيضا : « وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم ،فإن القلوب قد يئست من النصرة على التتر، لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام ، ولأنهم ماقصدوااقليما إلا فتحوه ولاعسكرا الا هزموه» [٢] .

ومما تجب ملاحظته كذلك ، أن نصرة عين جالوت كانت قد سبقتها نصرة سلبية ليس للمماليك أنفسهم فيها فضل، وهي أن المقاومة الأيوبية التي ظلت تعارض قيام دولة المماليك، وتلح في المطالبة بعرش مصر دونها ، قد انهارت أمام الغزو المغولي، وبدا على ملوك الايوبين ضعف وتخاذل في الوقت الذي أبدى فيه المماليك ثباتا وصلاحية للبقاء .

وعلى الرغم من أنه ليس في مقدورنا أن نحكم على مصير مشروع فتح مصر بالنسبة لأوربا المسيحية التي أخذت تبني أمالا كبيرة على انتصار المغول على المسلمين [٣] ، فإن بعض المؤرخين الأوروبين ذهبوا في تقدير أهمية عين جالوت إلى أنهالم تنقذ مصر والشام أو بالأخرى دولة المماليك فحسب، بل إنها أنقذت العالم الأوربي والمدنية الأوربية من شر لم يكن

---

(١) أنظر (الخزرجي : العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ص ٦٩) .

(٢) أبو الفداء : المختصر في تاريخ البشر ، جـ٣ ص ٢١٤ .

(٣) يشهد بذلك ما قاله أسقف مدينة ونشستر من أنه يأمل أن يفنى المسلمون والمغول بعضهم بعضا ، وعندئذ يقيم المسيحيون على انقاضهم كنيسة كاثوليكية عالمية موحدة . راجع:

لأحد من ملوك أوربا وقتئذ قبل بدفعه .[1] هذا ، ومن المعروف أن طريق الصحراء الغربية هو الطريق الطبيعي المعروف لدى الغزاة والفاتحين الذين قاموا بغزو أوربا من الجنوب فى العصور المختلفة ، فلا أقل من أن يسلكه هولاكو بجحافلة أيضا كما سلكه هانيبال وموسى بن نصير وطارق بن زياد والأغالبة والفاطميون وغيرهم من قبل وكما سلكه القائد الأنجليزى منتجومرى من بعد فى الحرب العالمية الثانية .

والواقع أننا إذا قارنا موقعة عين جالوت بالوقائع الحربية الحاسمة فى العصور الحديثة مثل واقعة المارن فى الحرب العالمية الأولى، ومعركة العلمين فى الحرب العالمية الثانية ، نجد أن عين جالوت كانت أقوى أثرا فى تاريخ البشرية من كل تلك المعارك لأنها لم تكن حربا بين شعوب راقية متحضرة ، بل كانت حربا أحد الطرفين فيها - وهم المغول - شعب بدائى بربرى جبل على التخريب وسفك الدماء فى كل مكان حل فيه . فانتصاره فى تلك الواقعة كان معناه القضاء المبرم على الحضارة الشرقية والغربية معا .

وكان نصر عين جالوت اشارة لخلاص الشام من أيدى المغول ، اذ أسرع ولاة المغول بالهرب قبل أن يقعوا فى أيدى الشاميين الذين هبوا للانتقام ، وهذا بعض السر فى أستيلاء قطز فى عدة أسابيع على البلاد الشامية كلها حيث أقيمت له الخطبة فى المساجد حتى مدينة حلب ومدن الفرات . وقامت فى مدينة دمشق - لما وصلتها أخبار عين جالوت - مذبحة كبرى فى التتر ومن عاونهم على المسلمين من سكانها ، ونخص بالذكر منهم النصارى الذى تهجموا على الأسلام ، واعتدوا على

(1) راجع : Cambridge Med .History Vol . Iv p.628,643
(Brown :ALiterary History of Persia, P.6

المسلمين فى خلال فترة الاحتلال المغولى للمدينة ، ولم يستتب النظام والأمن فى هذه المدينة إلا بعد أن دخلها قطز على رأس الجيوش المصرية والشامية الظافرة سبتمبر سنة ١٢٦٠م (٢٧ رمضان سنة ٦٥٨هـ) .

أخذ قطز يعمل على اعادة الأمن إلى نصابه فى جميع المدن الشامية ، ومن سخرية الحوادث أنه أخذ يعيد بعض امراء البيت الأيوبى إلى ممالكهم الصغيرة فى الشام مثل الملك المنصور صاحب حماة ، والملك الأشرف موسى صاحب حمص ، بعد أن أخذ عليهم المواثيق بالولاء ، ويدفع الجزية . كما أنه أنعم على أعوانه أمراء المماليك ، فأقطع الأمراء الصالحية والمعزية اقطاعات جليلة بالشام ، ورتب الأمير شمس الدين أقوش البرلى العزيزى أميرا بالساحل وغزة ومعه عدة من المماليك العزيزية [١]، [٢] وأقام قطز الأمير علم الدين سنجر كنائب له فى دمشق أما مدينة حلب التى أضحى صاحبها الملك الناصر الأيوبى أسيرا عند التتار ، فقد منح قطز نيابتها إلى الملك السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ الذى فضل أن

(١) لفظ البرلى محرف عن الكلمة التركية برتولو ومعناها ذو الأنف الكبير أو الأنف الاحمر – (المقريزى : السلوك –جـ ١ ، ص ٤٢٣ حاشية رقم ٢) .

(٢)سبق أن أشرنا إلى أن المماليك العزيزية هم مماليك الملك العزيز محمد صاحب حلب . وقد أنتقلوا بعد وفاته إلى خدمة ابنه الملك الناصر يوسف، وفى أثناء واقعة العباسة التى دارت بين الناصر وايبك فى فبراير سنة ١٢٥٤م (رجب سنة ٦٤٨ هـ) خامر البرلى وجماعة من العزيزية على ابن استاذهم وصاروا مع أيبك ، ثم إنهم قصدوا بعد ذلك اغتيال أيبك ، وعلم بهم ، فقبض على بعضهم ، وهرب البعض الآخر وكان البرلى من جملة من سلم وهرب إلى الشام ، فلما وصل إلى الملك الناصر اعتقله بقلعة عجلون ، وعندما اجتاح التتار الشام ، أطلق الناصر سراحه قبل فراره من دمشق ، فالتجأ البرلى واصحابه إلى مصر . واشترك فى واقعة عين جالوت وكافأة قطز بعد انتصاره فولاه الساحل وغزة وصار مقره نابلس .

يترك بلاده - الموصل - عن الاعتراف بسيادة هولاكو [1] وكان غرض قطز من تلك المنحة ، أن يصبح الملك السعيد وسيلة لتتبع حركات المغول واخبارهم عن طريق مكاتباته مع أخيه الصالح بن لؤلؤ صاحب الموصل [2] ، على أن تلك المنحة أدت إلى هلاك قطز، اذ أن الأمير بيبرس البندقدارى - الذى أبدى شجاعة فى عين جالوت لاتقل عن شجاعة السلطان نفسه - كان يطمع فى نيابة حلب ، وطلبها فعلا من قطز، فلما رفض السلطان أن يجيبه إلى طلبه ، تنكر له بيبرس ، واتفق مع جامعه من الأمراء على قتله وظل يترقب الفرصه لتنفيذ غرضه . ثم واتته الفرصة أثناء عودة السلطان إلى مصر وخروجه للصيد بالقرب من الصالحية ، ففى أثناء رجوعه من صيده يريد الدهليز السلطانى، وثب عليه بيبرس فى عدة من المماليك ، وقتلوه بسيوفهم فى١٢ أكتوبر سنة ١٩٦٠م (١٥ ذى القعدة سنة ٦٥٨هـ) ، واتفق الأمراء بعد ذلك على بيبرس فأقاموه سلطانا ولقب بالملك الظاهر ، ثم سار السلطان الجديد فى الجيوش حتى دخل مدينة القاهرة بلا مقاومة وجلس فى ايوان القلعة بدست المملكة فى٢٦ أكتوبر (١٩ذى القعدة) من نفس السنة .

وهكذا أغتيل السلطان قطز ، صاحب الفضل فى تدعيم الدولة المملوكية من الناحية الخارجية ولم تستقبله مملكته استقبال الفاتح المنتصر، فحرم بذلك من لذة التمتع بثمرة انتصاره، ويروى أبو المحاسن أن قطز « بقى ملقى بالعراء ،فدفنه بعض من كان فى خدمته بالقصير، وكان قبره يقصد للزيارة دائما . . . وكان كثير الترحم عليه والدعاء على من قتله ،

---

(١) Eney of Islam art Kutuz

(٢) أبو الفداء - جـ ٣ و ض ٢١٦ .

فلما بلغ بيبرس ذلك، أمر بنبشه ، ونقله إلى غير ذلك المكان [1] ، وعفى أثره ، ولم يعف خبره [2] .

أما أسباب مصرع قطز فلاشك أنها أعمق بكثير من قصة رفضه نيابة حلب لبيبرس ، وأن هذا الرفض لم يعد أن يكون سببا مباشرا لمقتله عند الحدود المصرية . والوقع أن تلك الأسباب قديمة ترجع إلى أيام السلطان أيبك وتشريده معظم المماليك البحرية الصالحية ، وقتله زعيمهم اقطاى ، اذ صار مماليك أيبك وهم المعزية ومنهم قطز ، اصحاب النفوذ والسلطان فى مصر واستمر العداء بين المعزية والبحرية قائما حتى أغار المغول على مصر ، فاضطر المماليك جميعا إلى الاتحاد بدليل قول العينى أن المماليك البحرية انحازوا إلى قطز المعزى « لما تعذر عليهم المقام بالشام وللتناصر على صيانة الإسلام ، لا لأنهم أخلصوا الولاء له » (٣) فلما أنتصر المماليك على المغول فى عين جالوت ، ولم تبق هناك ضرورة للاتحاد و ظهر العداء القديم بين الطائفتين من جديد ، وكان من نتائج ذلك مقتل قطز المعزى على يد بيبرس الصالحى ، وهذا هو المعنى الحقيقى لما أورده ابن أبى الفضائل تعقيبا على مقتل قطز حين قال « . . . . . فلحق الناس خوف عظيم من عودة البحرية إلى ما كانوا عليه من الفساد » [4]

---

(١) يروى المقريزى (السلوك - جـ ١ ص ٤٣٥) - « وحمل قطز بعد ذلك إلى القاهرة فدفن بالقرب من زاوية الشيخ تقى الدين قبل أن تعمر ، ثم نقله الحاج قطز الظاهرى إلى القرافة ودفن قريبا من زاوية ابن عبود».

(٢) أبو المحاسن - النجوم الزاهرة - جـ ٧، ص ٨٦ - ٨٧ ، راجع أيضا (الكتبى : فوات الوفيات - جـ ٢ ص ١٣٢) .

(٣) العينى - عقد الجمان - (الجزء الخاص بحوادث ٦٥٦ - ٦٧٢ هـ) ، ورقة ٤٣٨ .

(٤) ابن أبى الفضائل - النهج السديد ص ٤٠٩ - ٤١٠ أنظر كذلك (المقريزى=.

وروى ابن أياس في هذا الصدد - « ولما تم أمر بيبرس في السلطنة ، رسم باحضار المماليك البحرية الذى كانوا منفيين في البلاد » ، كما روى في موضع آخر وكذلك المقريزى بأن المماليك المعزية حاولوا اغتيال بيبرس عقب عودته إلى القاهرة ، فقتل بعضهم ، وسجن ونفى البعض الآخر [1].

وهذه النصوص إن دلت على شيء فانما تدل على أن مقتل قطز كان نتيجة لعداء قديم مستحكم بين المماليك البحرية الصالحية والمماليك المعزية .

: السلوك = جـ ١ ، ص ٤٣٧ .

(١) ابن أياس - بدائع الزهور - جـ ١ ، ٩٩ - ١٠٠ ، المقريزى ، السلوك جـ ١ ص ٤٤٧ .

الفصل السادس

السلطان الظاهر بيبرس

(٦٥٨ - ٦٧٦ هـ = ١٢٦٠ - ١٢٧٧م)

تدعيم أركان الدولة المملوكية الأولى

في مصر والشام

تغلبت الدولة المملوكية الأولى على البدو فى مصر ، كما تغلبت على معظم أبناء البيت الأيوبى بالشام ، ثم بينت للعالم مقدرتها الحربية بالانتصار على المغول فى عين جالوت ، وأحاطت نفسها منذ قيامها فى مصر والشام بأيات الولاء للخلافة العباسية حتى اعترف الخلفاء بسلاطينها اعترافا تاما ، فأكسبهم ذلك الاعتراف صفة شرعية للحكم وأحاطهم بحماية تحميهم ممن عسى أ ن يفكر فى انتزاع السلطنة منهم ، تلك عوامل البقاء التى نعمت بها الدولة المملوكية الأولى عندما صار الظاهر بيبرس سلطانا على مصر (٦٥٨ -٦٧٦ هـ = ١٢٦٠ - ١٢٧٧م) ثم أضاف السلطان الجديد عوامل جديدة لا يستطيع القيام بها إلا حاكم بصيرموهوب قوى الشكيمة شديد العزم . وبتلك العوامل أتم بيبرس بناء الدعائم التى أقام عليها سلاطين المماليك بعده تاريخهم .

١ - القضاء على الثورات الداخلية :

وأول ما قابل بيبرس أثر اعلانه سلطانا ، ثورتان داخليتان فى وقت واحد تقريبا أواخر سنة ١٢٦٠م (٦٥٨ هـ) أحداهما بدمشق، والأخرى

فى القاهرة فاستغلهما بيبرس استغلالا قوى دولة المماليك داخليا وخارجيا فى آن واحد .

أما الثورة الأولى ، فمنبعها الاحتجاج على ما حدث من مقتل قطز والانفه مما فعله بيبرس دون أن يستشير من تنبغى استشارته . وقام الأمير علم الدين سنجر الحلبى الذى استنابه قطز بدمشق ، ونادى بنفسه سلطانا على دمشق فى نوفمبر سنة ١٢٦٠م (ذى الحجة سنة ٦٥٨هـ) وتلقب بالملك المجاهد ، وركب بشعار السلطنة ، وخطب له على المنابر وضربت السكة بأسمه وأخذ فى تحصين قلعة دمشق استعدادا للقتال، ولم يكتف بذلك ، بل أرسل إلى الأمير حسام الدين لاجين العزيزى نائب حلب ، والملك المنصور الأيوبى صاحب حماة ، والملك الأشرف موسى صاحب حمص ، ليدخلوا فى طاعته ويشدوا أزره ، فرفضوا اجابة طلبه خشية بيبرس فيما يبدو . ولم تستطع رسل السلطان وكتبه اقناع الثائر بلزوم الطاعة ، فقرر بيبرس أن يجرد جيشا للقضاء على تلك الثورة قبل أن تستفحل ، وعاد الجيش بنائب دمشق إلى القاهرة مقرنا فى الاصفاد فى يناير سنة ١٢٦١م (١٦صفرسنة ٦٥٩ هـ) حيث أعتقل بقلعة الجبل بعد شهر واحد من اعلانه الثورة ، وولى بيبرس أستاذه علاء الدين البندقدارى نيابة دمشق التى انضوت منذ ذلك الوقت تحت لوائه . وبذا قضى السلطان فى سرعة وعزم على أحدى الحركات الانفصالية فى تاريخ السلطنة المملوكية ، مما برهن على سلامة دولة المماليك وصلاحيتها للبقاء .

أما الثورة الثانية فزعيمها رجل شيعي يعرف بالكوراني[1]، أظهر الزهد والورع، وسكن قبة بجبل المقطم ، وتودد اليه الغلمان والركابدارية[2] وجماعة من السودان ، فأخذ يدعوهم ويحرضهم على قلب نظام الحكم المملوكي السني واستبداله بحكم شيعي، وأقطعهم الاقطاعات وكتب لهم الرقاع ، وتمخضت تلك الدعوة أو الدعاية عن ثورة سنة ١٢٦٠م (أواخر سنة ٦٥٨ هـ) . فشق الثوار شوارع القاهرة ليلا وهم ينادون : « يا آل علي» وفتحوا حوانيت السيوفيين بين القصرين ،وأخذوا مافيها من سلاح ، واقتحموا اصطبلات الجنود ، وأخذوا منها الخيول . وهنا برهن بيبرس على أنه لا يؤخذ بهذه الطريقة ، فأرسل من الجند مما كفل الحوطة على الثوار والقبض على جميع زعمائهم ، حتى إذا خمدت الثورة ، أمر السلطان بصلب الكوراني وغيره من الزعماء على باب زويلة . وهكذا قضى بيبرس قضاء مبرما على البقية الباقية من الحركة التي ظلت تعمل على هدم السنية في مصر وغيرها منذ عهد صلاح الدين بدليل خلو المراجع العربية من أخبار أية حركة مشابهة في مصر أو الشام طوال العهد المملوكي الأول والثاني سواء ، وهذا الدليل بدوره يدل على مبلغ أمعان بيبرس في هدم الثورة ، ما جعل توفيقه في اخمادها جديرا بأن يعتبر عاملا من عوامل تدعيم دولة المماليك .

---

(١) نسبة إلى كوران من قرى اسفرايين . واسفرايين بلدة حصينة من نواحي نيسابور على منتصف الطريق من جرجان ، راجع (ياقوت: معجم البلدان جـ ١ ص ٢٤٦ - ٢٤٧، جـ ٤ ، ص ٣١٩) .

(٢) الركابدارية هم الذين يحملون الغاشية بين يدى السلطان في المواكب وهم تابعون للركاب خاناه وهو بيت الركاب الذى تكون به السروج واللجم ، وله موظف خاص يسمى مهتار الركاب خاناه القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٧، ١٢) .

٢ - أحياء الخلافة العباسية في القاهرة وماترتب عليه من اعمال دينية ومادية :

على أن بيبرس ليس صاحب فضل على السنة في اخماد تلك الحركة الشيعية فحسب، بل أنه جعل الدولة المملوكية تبدو كذلك صاحب فضل على العالم الإسلامي ، ويظهر ذلك بوضوح في أظهار تعلقه باحياء الخلافة العباسية السنيه المنهارة ، اذ نجم عن زوالها من بغداد مشكلة كبرى وهي في أي جهة تكون الخلافة ، ولمن تكون الخلافة من أبناء البيت العباسي الذين تشتتوا في بوادي العراق والشرق الأدنى بعد هذه الكارثة ؟

والمتواتر في الكتب أن السلطان بيبرس أول من فكر في احياء الخلافة ليقيلها من عثرتها الدامية التي لحقتها على يد هولاكو وجنوده . وليظهر أمام العالم الإسلامي بمظهر الحامي للخلافة ، وليجعل لنفسة شيئا من النفوذ والزعامة على البلاد الإسلامية ، كما يجعل من دولته الناشئة دولة شرعية يجب المحافظة عليها .

والواقع أن بيبرس ليس أول من فكر في ذلك المشروع ، من الملوك والسلاطين الذين تداولوا حكم مصر والشام ، وانما هو الذى نجح في تحقيقه فقط ، والأدلة على ذلك كثيرة ، فقد حاول احمد بن طولون اجتذاب الخليفة المعتمد إلى مصر سنة ٢٦٩ هـ (٨٨٢م) حينما استبد بالخليفة أخوه وولى عهده الأمير احمد الموفق ، فارسل إليه كتابا يقول فيه (قد منعني الطعام والشراب والنوم خوفي على أمير المؤمنين من مكروه يلحقه مع ماله في عنقي من الإيمان المؤكدة . وقد اجتمع عندى مائة

ألف عنان أنجاد ، وأنا أرى لسيدى أمير المؤنين الانجذاب إلى مصر فإن أمره يرجع بعد الأمتهان إلى نهاية العز ، ولايتهيأ لأخيه (الموفق) فيه شيء مما يخاف عليه في كل لحظة »[1]. ولاشك أن أحمد بن طولون أراد بذلك أن يدعم دولته الجديدة التى أسسها فى مصر والشام، وأن يمتنع عن أرسال الجزية السنوية إلى دار الخلافة ، بالأضافة إلى تحطيم منافسيه فى بغداد . غير أن مشروع ابن طولون لم يتحقق ، اذ أن الموفق قبض على أخيه الخليفة فى الموصل وأعاده إلى بغداد .

كذلك حاول محمد الاخشيد نفس المحاولة حينما ذهب إلى الشام سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤م) لإغاثة الخليفة المتقى من جور الحمدانيين بحلب، ومن استبداد الأمراء الأتراك فى بغداد فلقيه بالرقة فى شمال الفرات ، وترجل عن بعد وهو بسيفه ومنطقته وجعبته على سبيل الخدمة وقبل الأرض مرارا ، ثم تقدم فقبل يده ، وطلب منه أن يصحبه إلى مصر، ولكن الخليفة عز عليه آخر الأمران يترك عاصمته ،مقر أسرته فرفض هذا العرض ، وعاد الاخشيد إلى مصر ، على حين عاد الخليفة إلى بغداد ، ولاشك أن الاخشيد رأى أن فى اجتذب الخلافة العباسية إلى مصر ما يقوى دولته التى أسسها فى مصر[2]. كذلك يقال إن الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق فكر فى أحياء الخلافة العباسية أوائل سنة ٦٥٨ هـ، وأنه ما كاد يعلم من عيسى بن مهنا ، أمير العربان بالأطراف الشرقية والشمالية المتاخمة للحدود العراقية ، أن أميرا عباسيا واسمه أبو العباس أحمد يريد

(١) عبد الله البلوى : سيرة أحمد بن طولون ، ص ٢٨٩ .

(٢) محمد مصطفى زيادة : ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد الرابع سنة ١٩٣٦ .

القدوم إلى دمشق ، حتى أرسل يستدعيه اليه ، لكن الناصر فوجئ بقدوم التتار إلى الشام ، فانصرف عن أبي العباس ، وعاد الأمير العباسي ثانية إلى عيسى بن مهنا . ثم أن السلطان قطز فكر سنة ٦٥٨ هـ في اعادة الخلافة إلى بغداد، بدليل أنه بعد واقعة عين جالوت استدعى الأمير أبا العباس أحمد المذكور إلى دمشق وبايعه بالخلافة ، وقال للأمير عيسى بن مهنا « إذا رجعنا إلى مصر أنفذه الينا لنعيده إن شاء الله » ولكن السلطان قطز قتل قبل تحقيق غرضه ، فسار أبو العباس إلى الحدود الفراتية حيث تمكن بمن معه من عرب وأتباع أن يحتل بعض المدن هناك مثل عانه والحديثة والانبار وأن ينتصر على سرية من عسكر التتار .

من هذا وذاك نرى أن ملوك المسلمين قبل بيبرس رغبوا في احياء الخلافة العباسية، وأن تلك الرغبة ظلت قائمة حتى تولى بيبرس البندقدارى سلطنة مصر ، فشرع في اخراج المشروع إلى حيز التنفيذ ، ولذا أرسل في طلب إبي العباس أحمد وكان لا يزال بالعراق يحاول محاولته ، فقدم أبو العباس إلى القاهرة . غير أن أبا العباس كان قليل الحظ ، اذ سبقه إلى حضرة بيبرس زميل آخر من أبناء البيت العباسي واسمه أبو القاسم أحمد ، ففضل هو الرجوع الى الشام وقصد حلب حيث بايعه أميرها الثائر على بيبرس شمس الدين أقوش البرلي العزيزى (١) ، ولقبه الحاكم بأمر الله ، ثم أمده بسبعمائة فارس من التركمان . فسار بهم

---

(١) لم يستمر عصيان أقوش البرلي طويلاً اذ تمكنت الجيوش المصرية من أخماد ثورته بحلب سنة ٦٦٠هـ فدخل في طاعة بيبرس الذى سرعان ما تغير عليه وقتله سنة ٦٦١هـ . راجع (أبو الفداء : المختصر فى اخبار البشر ، جـ ٣ ص ٢١٧ – ٢٢٠، ٢٢٣). .

الخليفة إلى بلدة عانةعلى الحدود العراقية ، لمناوشة التتار مرة أخرى .

أما أبو القاسم أحمد الذى اتفق له خط الوصول إلى القاهرة ، فتلقاه السلطان بيبرس خارج العاصمة فى يونيو سنة ١٢٦١م (رجب سنة ٦٥٩هـ) ومعه الوزير بهاء الدين بن حنا (١) . وقاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز (٢) والعلماء والأعيان والشهود والمؤذنون حتى اليهود بتورانهم والنصارى بانجيلهم ، وكان يوماً مشهوداً بالغ فيه السلطان باحترام الخليفة واكرامه وانزله بقلعة الجبل . وبعد عدة أيام (فى ١٣ رجب) عقد السلطان مجلساً عاماً بالديوان الكبير بالقلعة حضره القضاة والعلماء وجميع رجال الدولة وكبار التجار ووجوه الناس ، وحضر أيضاً شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام ، فمثلوا كلهم بحضرة الأمام العباسى ، وجلس السلطان متأدباً بين يديه . ثم استدعى جماعة من العربان والبغاددة الذين قدموا مع الأمير العباسى من بغداد ، فشهدوا أمام هذا

---

(١) بهاء الدين بن حنا بكسر الحاء ، يؤثر عنه أنه استدعي العالم السكندرى شرف الدين محمد البوصيرى وسمع قصيدته المعروفة بأسم « البردة النبوية فى مدح خير البرية » ، وهو قائماً حافياً عارى الرأس .

راجع (الكتبى : فوات ج٢ ص ٢٠٥) .

(٢) هو تاج الدين عبد الوهاب بن خلف بن بدر العلامى المعروف بابن بنت الأعز والعلامى نسبة إلى علامة وهي قبيلة من لخم ، أما الأعز فهو جده لأمه الصاحب الأعز فخر الدين وزير الملك الكامل الأيوبي . ولقد درس تاج الدين بالاسكندرية الحساب فمهر فيه وولاه السلطان شاهدا لبيت المال . وفي عهد الملك الصالح أيوب تولي نظر الدواوين ثم قضاء مصر سنة ٦٥٤ هـ ثم ولى الوزارة سنة ٦٥٥ هـ ثم عزله السلطان قطز فى نفس السنة وظل بعيداً عن مناصب الدولة حتى اعادة بيبرس الى منصب قاضى القضاة بالديار المصرية سنة ٦٥٩هـ وظل به حتى وفاته سنة ٦٦٥هـ . راجع (السبكى : طبقات الشافعية جـ ٥ ص ١٣٣ - ١٣٦ ، ابن حجر العسقلانى : رفع الاصر عن قضاة مصر ص ١٧٦ - ١٧٨) .

الجمع أن الأمير أبا القاسم أحمد ، ابن الخليفة الظاهر أمير المؤمنين ، كما شهد بالاستفاضة من حضر من القضاة . عند ذلك أعلن قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز قبوله لشهادات القوم وسجل على نفسه بثبوت النسبة الشريفة الى العباس بن عبد المطلب ، وقام فبايع أبا القاسم بالخلافة ، ثم تبعه السلطان بيبرس فبايعه على العمل بكتاب الله وسنة رسوله ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله ، وأخذ أموال الله بحقها وصرفها فى مستحقها . ثم بايعه بعد السلطان الشيخ عز الدين بن عبد السلام [١] وجميع من حضر المجلس من الأمراء والقضاة والفقهاء ورجال الدولة . ولقب الخليفة بالمستنصر بالله ، وهو لقب أخيه الخليفة المستنصر (١٢٢٦ - ١٢٤٢م) بانى المدرسة المستنصرية ببغداد [٢] . ولما تمت البيعة ، قلد الخليفة المستنصر السلطان بيبرس البلاد الاسلامية وما ينضاف إليها ، وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار . وبعد ذلك قام جميع من حضر فبايعوا الخليفة على اختلاف طبقاتهم . ثم كتب السلطان بيبرس فى نفس اليوم إلى الملوك والنواب بسائر الممالك أن يأخذوا البيعة من قبلهم للخليفة المستنصر بالله ، وأن يدعى له على المنابر ثم يدعى للسلطان بعده ، وأن تنقش السكة باسمهما .

وعلى الرغم من حرص السلطان بيبرس على اثبات نسب الخليفة الجديد فى مجلس عام يفهم من عبارات بعض المؤرخين أن شيئاً من

---

(١) ورد فى بعض المصادر أن أول من بايع الخليفة المستنصر هو الشيخ عز الدين بن عبد السلام ثم تلاه السلطان فى المبايعة . (السيوطى : حسن المحاضر ص٤٤ ، السبكى : المرجع جـ ٥ ص ٨٤) .

(٢) ابو شامة : الذيل على الروضتين ص ٢١٣ ، المقريزى : السلوك ـ جـ ١ ص ٤٥١ .

الشك فى نسبة الخليفة الجديد الى العباسيين قد ساور الكثيرين [1] ، فيروى أبو الفداء فى تاريخه تحت عنوان «ذكر مبايعة شخص بالخلافة» ، وأنه فى رجب سنة ٦٥٩هـ « قدم الى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد ، وزعموا أنه ابن الأمام الظاهر بالله ، ابن الأمام الناصر ، فيكون عم المستعصم ... » [2] كذلك يسمى مفضل بن أبى الفضائل هذا الخليفة بأسم « المستنصر الأسود » [3]، بينما يروى أبو شامه وهو المؤرخ المعاصر المتوفى سنة ٦٦٥هـ عبارة لا تخلو من الشك والسخرية وهى « وفى تاسع عشر رجب قرىء بدمشق بالمدرسة العادلية كتاب ورد من مصر من السلطان الملك الظاهر بيبرس يتضمن أنه قدم عليهم بمصر أبو القاسم أحمد بن الظاهر محمد ... أمير المناقفين » [4]. ويظهر أن هذا الشك تسرب الى العامة من الناس بالقاهرة وغيرها بدليل تلقيبهم للمستنصر بلقب الزراتيني أو الزرابيني وهو لقب غريب نسبه أبو الفداء الى لفظ زربون المستعمل فى مصر للدلالة على الشخص الأسود .

وكيفما كان الأمر فى نسب الخليفة الجديد ، فلا ريب أن بيبرس كان فى حاجة ماسة الى تدعيم سلطانه بتلك المظاهرة الدينية التى قام بها

---

(١) زيادة : بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك فى مصر

(٢) أبو الفداء : المختصر فى اخبار البشر جـ ٤ ص ٨ ، ويلاحظ أن أبا الفداء ولد سنة ٦٧٢ هـ أى بعد مجىء المستنصر الى القاهرة بثلاث عشرة سنة فقط فيكون قد سمع أشباه هذا الشك من المعاصرين له والمتقدمين عليه فى السن .

(٣) ابن أبى الفضائل : النهج السديد ، ص ٥ .

(٤) راجع النسخة الخطية من كتاب (أبو شامة : الذيل على الروضتين ، ورقة ٢٣٥ ، بمكتبة البلدية بالاسكندرية ، ودار الكتب المصرية بالقاهرة) ، اذ أن النسخة المطبوعة التى نشرها عزت العطار الحسيني ص ٢١٣ ، حرفت لفظ أمير المنافقين إلى أمير المؤمنين .

فى صورة احياء الخلافة العباسية متغاضياً عما يشاع عن الخليفة ونسبه . وتدل جميع النصوص الواردة فى المراجع المعاصرة على أن السلطان بيبرس كان على استعداد بأن يمد الخلافة بكل ما يستطيع من جند ومال ومعونة حربية فى سبيل اعادتها واقامتها فى بغداد . وشرع بيبرس فعلا فى تجهيز الخليفة بكل المعدات واللوازم من جند وسلاح ومال وكراع لاسترداد بغداد من التتر وارجاع الخلافة اليها . ويقال أن مبلغ ما اتفق فى هذا المشروع لا يقل عن ألف ألف دينار . ومما يدل على اهتمام بيبرس بمسألة الخلافة واقامتها ، أنه خرج مع الخليفة الى دمشق . فوصلها فى ذى القعدة سنة ٦٥٩هـ (١٢٦١م) وفى عزمه أن يضيف الى ما تجمع لديه من جند مصر ، أعداداً أخرى من جند الشام حتى يصبح عدد الجيش الخليفى عشرة آلاف فارس . غير أن أحد أمراء الموصل وسوس للسلطان وهو بدمشق قائلا له « أن الخليفة اذا استقرا مره ببغداد ، نازعك وأخرجك من مصر » ، فأوجس خيفة بيبرس وغير موقفه من الخليفة ، واكتفى بأن جهزه بثلثمائة فارس كأنما اراد أن يلقى به الى التهلكة . وسار الخليفة بهذا العدد الضئيل من الجند الى العراق ، وفى الطريق انضم اليه اربعمائة فارس من عرب العراق من خفاجة وعبادة الذين لجأ اليهم فى أول أمره كما انضاف اليه ستون مملوكا من مماليك الموصل ، وثلاثون فارساً من عسكر حماة وتقدم الخليفة المستنصر بهذا الجيش الغير متجانس الى الحدود العراقية . وهناك فى موضع على نهر الفرات يسمى مشهد [1] على أو مقام على فى لواء الدليم حالياً ، التقى المستنصر بمنافسه فى الخلافة أبى العباس أحمد - الحاكم بأمر الله - فى سبعمائة فارس من

(١) مشهد على بلدة على نهر الفرات بجوار مدينة عانه فى لواء الدليم وهي خلاف مدينة =

التركمان . ويبدو أنهما اتفقا على العمل معاً لاعادة الخلافة العباسية ، وفى ذلك يقول أبو شامة : « فاتصاع الحاكم للمستنصر بسبب أنه الأصغر وذاك الأكبر (أى المستنصر) ووقع الاتفاق وزال الشقــاق ولله الحمـد »[1]. ثم سـارا معاً الى بلدة عانـة ثم الى الحديثـة[2] يريدان بلدة هيت فلما وصل الخليفة الى هيت أغلق أهلها أبوابهـا دونـه ، فحاصرها حتى فتحها آخر ذى الحجـة سنة ٦٥٩ هـ (أكتوبر ١٢٦١م) ثم رحل عنها وعسكر بالقرب من الأنبار . وهناك التقت جيوش التتار بقيادة قرابغا وبهادر بجيوش الخليفة فى ٢ محرم سنة ٦٦٠هـ ، ودارت بين القوتين معركة غير متكافئة انتهت بأن أحاط التتار بمعسكر العباسيين وقتلوا معظمهم ، ولم يفلت منهم سوى الأمير أبو العباس احمد وبضعة من الأمراء فى نحو الخمسين فارس فقط . أما الخليفة أبو القاسم فلم يعرف له خبر ، فيقال أنه قتل فى المعركة ، ويقال أنه نجا مجروحاً فى طائفة من العرب ومات عندهم .

وكيفما كان الأمر ، هيأت هذه الحوادث الفرصة للأمير أبى العباس أحمد ، اذ أرسل اليه السلطان بيبرس يستدعيه الى القاهرة فوصلها فى مارس سنة ١٢٦٢م (١٧ ربيع الثانى سنة ٦٦٠هـ) واحتفل بيبرس بلقائه وانزله فى البرج الكبير بقلعة الجبل كما صنع بالمستنصر بالله .

= النجف التى بها مقام الأمام على بن أبى طالب .

(١) ابو شامة : الذيل على الروضتين ، ص ٢١٥ .

(٢) هناك عدة أماكن تحمل هذا الاسم ك فهناك حديثة الموصل على نهر دجلة ، وحديثة الفرات على بعد عدة فراسخ من الانبار وهى المراد بها هنا . ثم هناك حديثة أخرى فى غوطة دمشق .

راجع (ياقوت : معجم البلدان) جـ ٢ ص ٢١٢ .

على أن المراجع كلها تدل على أن ثمة تغييراً حل برأس بيبرس ازاء الخلافة العباسية خلاصته أن تقام الخلافة العباسية بمصر ، فتستفيد الدولة المملوكية من وجودها بالقاهرة ، وتتجنب خطر اقامتها بعيداً فى بغداد . ومما يدل على هذا التغيير أن جماعة من البغاددة وهم مماليك الخليفة المستعصم الذين فروا من وجه التتار بزعامة مقدمهم الأمير سيف الدين سلار [١] الى الحجاز ، وصلوا الى القاهرة بعد وصول أبى العباس أحمد بشهر واحد فقط ، وكان حضورهم الى مصر بناء على طلب بيبرس والحاحه . كما حضر بعدهم بقليل عدة من شيوخ عشائر عبادة وخفاجة من عرب العراق [٢] . وأخذ بيبرس من بعد ذلك يعمل على مبايعة أبى العباس بالخلافة ، فعقد له فى ٨ محرم سنة ٦٦١هـ مجلساً عاماً بالايوان الكبير بقلعة الجبل كما حدث للمستنصر من قبل . وجاء أبو العباس فقرىء نسبه على الناس بعد ما ثبت عند قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز ولقب بالحاكم بأمر الله ، وبايعه السلطان على العمل بكتاب الله وسنة رسوله ، فلما تمت البيعة ، أقبل الخليفة على السلطان وقلده

(١) أصل هذا المملوك من بلاد القبشاق ، واشتراه الخليفة الظاهر العباسى ثم انتقل الى خدمة المستعصم وترقى حتى أصبح والياً على واسط والكوفة والحلة . وبعد سقوط بغداد فى يد هولاكو لجأ الى الحجاز ثم جاء الى مصر بناء على طلب بيبرس فدخلها وزملاؤه البغاددة فى نصف رجب سنة ٦٦٠هـ فأكرمهم بيبرس وأعطى الأمير سلار إمرة خمسين فى الشام ونصف مدينة نابلس ثم نقله الى أمرة طبلخاناة بمصر . راجع (المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٦٨) .

(٢) كان مقر هذه القبائل من هيت والانبار الى الحلة والكوفة . ويلاحظ أن هذه البلاد حتى مقتل الخليفة المستعصم كانت بيد الأمير سيف الدين سلار الذى كتب الى من تأخر من خشداشيته والى اصحابه من خفاجة واخبرهم بما ناله من الاحسان على يد السلطان بيبرس فلحقوا به كما فى المتن . راجع (ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٠٠ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٧٦) .

أمور العباد والبلاد ولقبه « قسيم أمير المؤمنين »[1]، وأخذ الناس على اختلاف طبقاتهم مبايعة الخليفة الجديد ، وخطب له على منابر مصر والشام .

وهكذا أحييت الخلافة العباسية للمرة الثانية بالقاهرة ، غير أن بيبرس لم يفكر فى اعداد هذا الخليفة الثانى لاسترجاع بغداد وأقامة الخلافة العباسية بها ، بل عزم على أن يكون مقامه بالقاهرة حيث يكون على مقربة منه وتحت عينه . ولم يرد السلطان بذلك أن يخلق فى عاصمته سلطة دينية أو سياسية بجانب سلطته ، بل قصد أن تكون الخلافة سنداً للدولة المملوكية فى أرجاء العالم الاسلامى ، وأن يكون الخليفة شخصية نافعة لأغراض دولة المماليك وما تحتاجه من الحماية الروحية ، ويدل على ذلك كله أن السلطان لم يأمر فى تلك المرة أن يقرن اسم الخليفة بأسمه على السكة كما فعل سابقاً بالمستنصر بالله وأنه أسكنه أحد أبراج القلعة محترزا عليه ، ولم يترك له غير الدعاء فى الخطبة فقط . وعلى هذا الأساس لم تكسب الخلافة العباسية فى احيائها الا كسباً زائفاً ، إذ صار الخلفاء منذ ذلك الوقت فى وضع مهان تقريباً : يعملون فى دوائرهم الضيقة ويحضرون حفلات السلطنة وولاية العهد ويزينون مجالس السلطان للوفود والسفراء . ولم تتدخل الخلافة فى

---

(١) يعتبر بيبرس أول من لقبته الخلافة بهذا اللقب ، اذ كان للملوك المسلمون قديماً يلقبون بالقاب تقل عن هذا اللقب مكانة مثل مولى أمير المؤمنين أى عتيقه ، أو خادم أمير المؤمنين . فإن زيد فى تعظيمه لقب ولى أمير المؤمنين ثم صاحب أمير المؤمنين ثم خليل أمير المؤمنين وهو أعلى ما لقب به ملوك بنى أيوب . وأما لقب بيبرس « قسيم أمير المؤمنين » فهو أجل من تلك الالقاب .
راجع (السيوطى : حسن المحاضرة، جـ ٢ ص ٦٦) .

شئون الدولة المملوكية الا قليلاً ، ولم يأمن لها سلاطين المماليك فى يوم من الأيام ، بل أبقوا الخلفاء سجناء تقريباً فى دور أقيمت لهم خصيصاً فى أبراج القلعة أو مناظر الكبش .

أما الذين استفادوا من ذلك الاحياء فسلاطين المماليك والقاهرة عاصمتهم ، اذ صار سلاطين المماليك منذ ذلك الوقت الى الفتح العثمانى سنة ١٥١٧م يفرضون لأنفسهم مقاماً سامياً على ملوك العالم الإسلامى وينكرون عليهم حق التلقب بلقب سلطان ، لأنهم وحدهم أصحاب هذا الحق شرعاً باعتبارهم حماة الخلافة والمتمتعين ببيعتها (١) وفى ذلك يقول ابن شاهين الظاهرى : « ... ولا يطلق لفظ سلطان الا لصاحب مصر نصره الله ، فإنه الآن أعلا الملوك وأشرفهم لرتبة سيد الأولين والآخرين ، وتشرفه من أمير المؤمنين بتفويض السلطنة له على الوجه الشرعى بعقد الأئمة الأربعة » (٢) .

---

(١) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٨٩ ويلاحظ أن لفظ سلطان ظهر أول الأمر فى أواسط آسيا واستخدمه الغزنويون والسلاجقة وغيرهم من الأتراك كرمز للسلطة الزمنية . ثم انتقل بعد ذلك الى مصر أيام الأيوبيين . ومن العجيب أن صلاح الدين رغم انتصاراته الباهرة لم يحمل لقب سلطان حسب الوثائق التى لدينا وان كان يبدو أن هذا اللقب قد أطلق عليه شفوياً على ألسنة العامة ، فسمى بسلطان الاسلام والمسلمين . وبعد وفاة صلاح الدين شاع استخدام هذا اللقب بين خلفائه حتى عم أمراء الأسرة الأيوبية أيضاً الى أن جاء سلاطين المماليك فقصروا هذا اللقب على أنفسهم وجعلوا من دونهم ملوكاً وأمراء . راجع : Wiet :H istoire de la nation Egyptienne tome IV p. 335

(٢) يقصد ابن شاهين بالأئمة الأربعة ، قضاة المذاهب السنية الاربعة ، اذ كان القضاء بمصر فى العصر الفاطمى قائماً على المذهب الاسماعيلى الى أن جاء الوزير أبو على أحمد بن الأفضل فى أواخر العصر الفاطمى فرتب فى الحكم أربعة قضاة يحكم كل واحد بمذهبه : قاضى للشافعية وقاضى للمالكية وقاضى للاسماعيلية وقاضى للامامية . وهو بهذه المحاولة أراد الحد من نفوذ المذهب الاسماعيلى . وفى العصر الأيوبى صار القضاء للشافعية فقط واستمر كذلك الى أن جاء=

على أن موضع الأهمية هو أن بيبرس نجح فى اقامة الخلافة العباسية بالقاهرة ، وأضاف بذلك إلى مجوعة العوامل المساعدة فى تأسيس الدولة المملوكية . يوضح ذلك أن دولا وشخصيات أخرى أسلامية حاولت أن ترث الخلافة العباسية بعد زوالها من بغداد سنة ١٢٥٨م ، ونعنى بذلك الخلافة الحفصية بتونس .

والحفصيون فرع من الموحدين ، وينتسبوب إلى الشيخ أبى حفص يحى بن عمر الهنتاتى شيخ قبيلة هنتاتة احدى بطون مصمودة التى قامت على أكتافها دولة الموحدين ، وكان هذا الشيخ الحفصى من كبار القائمين بدعوه المهدى بن تومرت ، ومن كبار المشيدين لسلطان الموحدين فى المغرب والأندلس ،وقد ازدادت هذه الصلة ارتباطا حينما تزوج ولده عبد الواحد أخت الخليفة المنصور الموحدى ، وصار حاكما على البلاد التونسية سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦م) ولما هزم الموحدون بالأندلس أمام الجيوش الصليبية المتحالفة فى موقعة العقاب Las Navas de Tolosa سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢م) وانهار نفوذهم فى المغرب والأندلس بعد هذه الكارثة ، أعلن الأمير أبو زكريا بن عبد الواحد الحفصى استقلاله بحكم افريقية عن خلافة بنى عبد المؤمن فى مراكش سنة ٦٣٦هـ (١٢٢٩م)ولكنه مع ذلك اقتصر على لقب الأمير لدرجة أنه زجر الشاعر الذى مدحه بأمير المؤمنين.(١) على أن هذه الأمارة الحفصية لم تلبث أن تحولت إلى خلافة فى عهد ولده أبى عبد الله محمد الذى تسمى

---

(١) راجع (ابن أبى دينار : المونس فى اخبار افريقية وتونس ص ١١٨ ، محمد الباجى المسعودى : الخلاصة النقية فى امراء افريقية ، ص (٦١) .

بالمستنصر بالله أمير المؤمنين .[1](٦٤٧ - ٦٧٥ هـ = ١٢٤٩- ١٢٧٧م)ولقد استند الحفصيون فى أعلان خلافتهم الجديدة إلى الأسس الشرعية اللازمة فى هذا الصدد ،كالأصل العربى والنسب النبوى إلى جانب قرابتهم للموحدين ، فزعموا أنهم من سلالة الخليفة أبى حفص عمر بن الخطاب ، وعمر كما هو معروف من أشراف قريش وكانت إليه السفارة فى الجاهلية ، وقد تزوج النبى ابنته حفصة . فالحفصيون بحكم هذا الأصل القرشى ، وهذا النسب النبوى ، وبحكم قرابتهم للموحدين ، وجدوا فى إنفسهم الشرعية الكافية لأن يرثوا خلافة الموحدين المنهارة . وقد حرصوا على الاعتزاز بهذا الأصل، واظهاره فى كل مناسبة ، ونجد ذلك واضحا فى أقوال كتابهم وشعرائهم التى أطلقت على دولتهم اسم العمرية والفاروقية أو كقول ابن خلدون فى قصيدة مدحهم بها :

قوم أبو حفص أب لهم وما أدراك والفاروق جد أول

ولقد جاء اعلان الخلافة الحفصية فى ظروف سياسية مناسبة ، اذ لم تمض سنوات قليلة على قيامها حتى سقطت الخلافة العباسية فى بغداد على أيدى المغول وقتل آخر خلفائها المستعصم بالله سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م) .وعقب ذلك أرسل الأمير ادريس شريف مكة ، وأعلن

---

(١) هناك خلاف حول تاريخ اعلان الخلافة الحفصية السنية بتونس : فالزركشى (تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص ٣٦) يجعله فى ٢٤ ذى الحجة سنة ٦٥٠ هـ (١٣٥٣م) بينما يجعله محمد الرعينى القيروانى المعروف بابن أبى دينار (المؤنس فى أخبار تونس ص ١٢٠) فى سنة ٦٥٧ هـ (١٢٥٩) عقب سقوط خلافة بغداد فى أيدى المغول ، ويبدو أن رأى الزركشى هو الأصح نظرا لاتساع نفوذ الدولة الحفصية ومبايعة أهل المغرب والاندلس لسلطانها قبل سقوط الخلافة العباسية .

أما القاهرة ، فقد تمتعت نتيجة لذلك الاحياء بشهرة دينية وعلمية واسعة ، اذ صارت مركز الخلافة العباسية ، وفى ذلك يقول جلال الدين السيوطى حـ٢ ص٦٦ : « الإيمان والعلم يكونان مع الخلافة اينما كانت ، فحين صارت مصر دار خلافة ، عظم أمرها ، وكثرت شعائر الاسلام فيها ، وصارت محل سكن العلماء ومحط رجال الفضلاء » . وبالاضافة الى شهرة القاهرة الدينية والعلمية ، فهناك شهرتها التجارية التى جعلت هولاكو يسميها « كروان سراى » فى احدى رسائله ، أى محط الرجال والمتاجر والملل ، اذ أصبحت بفضل قيام الخلافة بها مركزاً لنشاط تجارى واسع فضلاً عن نشاطها القديم .

على أن الخليفة العباسى الثانى أبا العباس أحمد ، لم يسلم كذلك من شك بعض المؤرخين فى نسبه ،كشكهم السابق فى نسب الخليفة المستنصر ، فيوجد فى تاريخ أبى الفداء تحت سنة ٦٦١ هـ عبارة بشأن الخليفة الحاكم لم تخل من الغمز واللمز ونصها : « وفى أواخر

= السلطان الظاهر بيبرس فأدخل تعديلاً جوهرياً على النظام القضائى سنة ٦٦٣هـ (١٢٦٥) اذ أنه لم يشأ أن يترك قاضى القضاة الشافعية يتحكم وحده فى جميع الشئون القضائية لما فى ذلك من إجحاف ببقية المذاهب . لذلك جعل القضاء فى يد أربعة قضاة يمثلون المذاهب السنية الأربعة ، وأجاز لهم أن يولوا نواباً عنهم بأنحاءالبلاد ، على أن يحتفظ قاضى قضاة الشافعية بالاشراف على أحوال اليتامى والأوقاف والقضايا الخاصة ببيت المال . وهكذا ظل قاضى القضاة الشافعية أرفع درجة من زملائه ثم يليه الحنفى فالمالكى فالحنبلى . وفى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون صار المالكى يلى الشافعى وتأخر الحنفى عن المالكى فى الرتبة . راجع (السبكى : طبقات الشافعية جـ ٥ ص ١٣٣ - ١٣٦ ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ص ١٢١ ، أبن شاهين ، زبدة كشف الممالك ص ٩٢ ، المقريزى السلوك ج١ ص ٥٣٩ - ٥٤٠ ، سعيد عاشور : دولة المماليك البحرية ص ١٥٢ ، محمد المناوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ص ١٦٩ ، المقريزى الخطط ص ٢٠٦ ، رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ٢٥) .

ذى الحجة من هذه السنة ، جلس السلطان الملك الظاهر مجلسا عاما وأحضر شخصا كان قد قدم إلى الديار المصرية فى سنة تسع وخمسين وستمائة من نسل بنى العباس يسمى أحمد بعد أن أثبت نسبه وبايعه بالخلافه ، ولقب أحمد المذكور الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ».

على أن مسألة الخلافة العباسية لم تنته بمبايعة الحاكم بأمر الله سنة٦٦١ هـ (١٢٦٣م) اذ لم تمضى ثلاث سنوات على هذا الحادث حتى قدم شخصان على السلطان بيبرس وهو بدمشق سنة ٦٦٤ هـ (١٢٦٦م) ادعى أحدهما أنه مبارك بن الخليفة المستعصم ، يريد بذلك أنه أحق بالخلافة من الحاكم بأمر الله . وذكر الثانى – وكان أسود اللون – أنه من أولاد الخلفاء . وقد تبين للسلطان كذب الأثنين ، فسيرهما إلى مصر « تحت الاحتياط » . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل وفد على السلطان فى نفس السنة أيضا (٦٦٤ هـ) على بن الخليفة المستعصم وكان أسيرا عند التتار . ولم يعلق المؤرخون على هذه الحوادث بشيء ، مما يرجح أن الشكوك التى انتشرت وقتذاك حول نسب الخليفتين ، ادخلت فى روع بعض الناس أنهم يستطيعون القيام بدور المستنصر والحاكم ، أولعل السلطان بيبرس أراد من وراء أولئك الاشخاص أن يهيمن على الخليفة الحاكم بتهديده بخلعه ومبايعة خليفة أخر كلما حدثته نفسه بالتدخل فى شئو الدولة أو لعله أراد أن يجمع أبناء البيت العباس بمصر – إن كانوا من أبناء البيت العباسى حقا – ليتجنب خطر التجاء بعضهم إلى أحد ملوك المسلمين فيقيمه خليفة ، مثلما فعل أقوش البرلى فى حلب مع الخليفة الحاكم من قبل .

الحجاز يبعتهم بالخلافة للخليفة الحفصى المستنصر بالله ، واعتبروه وريثا للخلافة العباسية المنهارة .

ولاشك أن هذه المبايعة قد دعمت أركان الخلافة الحفصية لأنها أكسبتها أساسا شرعيا وهو الاشراف على الحجاز ، « أصل العرب والملة ، ومقر الحرمين الشريفين » وفى ذلك يقول المستشرق السويسرى ماكس فان برشم : « أن الحفصين قد ورثوا خلافة الموحدين فى الوقت الذى اكتسبوا فيه من سقوط بغداد شيئا من هيبة الخلافة العباسية » .

ولقد شعرت مصر بخطورة أهداف الخلافة الجديدة التى تقع على حدودها الغربية لأن السياسة المصرية كانت تهدف دائما إلى مد سلطانها على الحجاز لأسباب دينية وسياسية واقتصادية أهمها السيطرة على البحر الأحمر وتجارته ، فجميع الحكام الذين استقلوا بمصر كالطولونيين والأخشيديين والفاطميين ، قد حرصوا على مد سلطاتهم على الحجاز ، ثم سار الأيوبيون على نفس هذه السياسة الحجازية حتى لقبوا أنفسهم بلقب « خادم الحرمين » وبقى هذا اللقب للماليك والعثمانيين من بعدهم [1] .

وسار السلطان بيبرس فى هذا السبيل أيضا وأظهر فيه نشاطا كبيرا ، اذ رأى أن سياسة الدولة الحفصية تتعارض مع سياسة مصر التقليدية نحو الحجاز ، ولهذا عمد إلى أحياء الخلافة العباسية فى القاهرة سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١م) وكان هدفه من ذلك انتزاع الحرمين من نفوذ الحفصيين ، ومد سلطانه باسم الخلافة العباسية على الحجاز والبحر الأحمر .[2]

على أن الشيء الذى يدعو إلى الألتفات فى هذا الصدد هو أن

(١)و(٢) راجع Wiet: Precis de l'Histoire d'Egypte tome I I P. 250.

اللقب الذى اتخذه الخليفة العباسى الأول فى القاهرة وهو « المستنصر بالله» ، هو نفس اللقب الذى اتخذه الخليفة الحفصى بتونس ، وما أظن أن تطابق اللقبين كان مجرد مصادفة أو توارد خواطر بقدر ما كان نوعا من التحدى والمنافسة . وقد يؤيد ذلك أن بعض الأمراء الطامحين أستغلوا هذا التنافس بين خلافة القاهرة وخلافة تونس لتحقيق مآربهم الشخصية ، فيروى ابن خلدون مثلا أنه فى سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥م) ثار والى طنجة المدعو ابن الأمير ، وخطب للخليفة الحفصى صاحب افريقية ، ثم خطب للخليفة العباسى فى القاهرة ، ثم خطب لنفسه وانتهى الأمر بقتله سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧م) [١].

وكيفما كان الأمر ، فالمهم هنا أن السلطان بيبرس أخذ فى تنفيذ سياسته الحجازية عمليا ، فقلم أولا بعدة اصلاحات بالحرم النبوى الشريف وأرسل الكسوة إلى الكعبة، كما أرسل الصدقات والزيت والشموع والطيب . . الخ . وأخيرا أدى بيبرس فريضة الحج سنة ٦٦٧ هـ - ١٢٦٩م ، فأظهر خشوعا وكرما لاينتهى ، ولكنه لم ينس مصالحه السياسية اذ أزال أنصار الحفصيين وجعل الخطبة فى الحجاز للخليفة العباسى ثم لسلطان مصر من بعده ، كما أقام الأمير شمس الدين مروان مندوبا له إلى جانب شريف مكة . وجملة القول قوى نفوذ سلطان مصر فى الأراضى الحجازية ، وصار يرمز لذلك النفوذ بالخطبة والسكة وارسال الكسوة إلى الكعبة فى كل عام . وكان كل ذلك من عمل بيبرس، وهو فى مجموعة من عناصر تدعيم الدولة المملوكية داخليا وخارجيا .[١]

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٧ ص ١٩٦ . السلاوى : الاستقصا لإخبار دول المغرب الأقصى جـ ١ ص ١٧ .

هذا ، ولم يكتف بيبرس بالعناية بالحرمين الشريفين، بل أمر سنة ١٢٦١م بارسال الصناع والالآت لعمارة قبة الصخرة بالقدس وجدد مسجد أبراهيم الخليل عليه السلام[٢]، وأخرج ما كان فى اقطاعات الأمراء من أوقافه ، كما أمر سنة ١٢٦١م ببناء مشهد على عين جالوت عرف بمشهد النصر[٣]، تخليدا لذكرى ذلك الانتصار العظيم الذى حققه المسلمون هناك .

ولم يقتصر بيبرس على ذلك بل أخذ فى بناء المساجد وتأسيس المدارس، ففى ربيع الأخر سنة ٦٦٠ (١٢٦١م) بدأ فى بناء مدرسته المشهورة على انقاض أحدى قاعات القصر الكبير الفاطمى ، وتم بناء هذه المدرسة سنة ٦٦٢هـ .[٤] وبالرغم من تهدم تلك المدرسة فى عهد المقريزى نفسه (ت ٨٤٥ هـ = ١٤٤٣م) ، فإن الجزء الأكبر منها ظل باقيا حتى سنة ١٨٧٤م عندما اخترقها الشارع الممتد من ميدان بيت القاضى إلى سوق النحاسين المقابل لضريح السلطان قلاوون . ونهدمت منارة تلك المدرسة سنة ١٨٨٢م ولم يبق منها اليوم إلا كتله

(١) المقريزى: السلوك جـ ١ ص ٥٠٢ ـ ٥٠٧٩ .

(٢) قبر ابراهيم الخليل ومسجدهفى بلدة الخليل بفلسطين واسمها الأصلى حبرون وهى قرب بيت المقدس . راجع (ياقوت : معجم البلدان جـ ٢ ص ٤٣٨) .

(٣) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٤٦ ، العينى : عقد الجمان ، الجزء الخاص بحوادث سنة ٦٥٦ -٦٧٣ هـ ورقة ٤٥٨ .

(٤)المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٣٧٨ ، على مبارك : الخطط التوفيقية جـ١ ص ٢٩ ، جـ ٦ ص ٩ .

إلا كتلة مساحتها ١١/٥ مترا .[١]

وتقرب بيبرس إلى العلماء ورجال الدين ، ويؤثر عنه أنه زار الأسكندرية أربع مرات ، وأنه كان يترك بها فى كل زيارة أثرا يدل على اهتمامه بها مثل تحصين أسوارها ، وتقوية اسطولها، وتطهير خليجها من الرمال الذى طمرته ، وزيارة كبار المتصوفة من علمائها أمثال الشيخ القبارى [٢]، والشيخ الشاطبى [٣] وبتلك الوسائل وغيرها تزعم بيبرس العالم الإسلامى شرعا وعرفا ، وقدم ملوك المسلمين إلى القاهرة ودمشق للقيام بخدمته وتقديم فروض الطاعة والتبعية لشخصه ، مما ضمن قيام دولة المماليك على أسس ثابتة .

---

(١) راجع : Creswel l :The Madrasa of Baibars, op. cit,p.131

(٢) هو الشيخ أبو القاسم محمد بن منصور المالكى الاسكندرانى المعروف بالقبارى نسبة إلى صناعة القبار أى حفر القبور ودفن الموتى ، وتطلق كلمة القبار أيضا على صاعد السمك (السلوك جـ ١ص ٤٤٩) أخذ القبارى عن الشيخ الحسن الشاذلى مؤسس الطائفة الشاذلية ، وأقام بمزرعة صغيرة يزرعها ويعمل فيها بيده ويقتات منها . وكان يكلم الناس من طاقة منزله . ويقال أن السلطان بيبرس عندما زاره لم يتمكن من الطلوع اليه ولم يكلمه إلا وهو فى البستان والشيخ فى عليته وقد نصحه بتحصين أسوار الإسكندرية . وتوفى القبارى بظاهر الإسكندرية سنة ٦٦٢هـ (١٢٦٤م) ولايزال يطلق اسمه على الحى الذى كان يعيش فيه هناك ، ارجع (أبوشامه : الذيل على الروضتين ص ٢٣١، المقريزى : السلوك جـ١ ص ٥٢٣ بالسندوبى : أبو العباس المرسى ومسجده ، ص٢٠) .

(٣) هو الشيخ الزاهد أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافرى الشاطبى الإسكندرى ، واصل هذا الشيخ من مدينة شاطبة Jaliba فى شرق الإندلس ثم هاجر إلى الإسكندرية وعاش فيها أيام السلطان الظاهر بيبرس ، وقد اشتهر بالعبادة والتقوى ومات ودفن بها سنة ٦٧٢ هـ (١٢٧٣م) وقبره يزار بالقرب من مبنى اطرة جامعة الإسكندرية فى الحى المعروف باسمه . وهو غير الشيخ أبى القاسم الرعينى الشاطبى الذى عاش فى القاهرة فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، وعين استاذا فى المدرسة الفاضلية وألف كتبا كثيرة فى تفسير القرآن وقراءاته السبع ، ونخص بالذكر قصيدته المشهورة بالشاطبية فى القراءات وهى فى ١٧٣ بيتا. وتوفى بالقاهر ودفن بقرافتها سنة ٥٩٠ هـ راجع (ابن خلكان =

٣ - التخلص من العناصر الأيوبية المناوئة :

لم يبق بعد ذلك من المشاكل التى واجهت بيبرس وهددت دولة المماليك سوى بقايا الأيوبين على الرغم من اعلان المنصور صاحب حماة ، والأشرف موسى صاحب حمص ولاءهما لبيبرس. ذلك أن الملك المغيث عمر بن العادل بن الكامل صاحب حصن الكرك [١] ، لم يقلع يوما عن مناوأة سلاطين المماليك منذ عهد أيبك التركمانى ، اعتقادا منه أنه أحق منهم فى ملك مصر والشام . فلما جاء بيبرس إلى السلطنة عزم على القضاء على المغيث عمر وازالته [٢] وأعد حملة كافية لتحقيق ذلك المشروع لولا أن المغيث بعث برسالة إلى الخليفة الحاكم بأمر الله بالقاهرة يسأله الشفاعة ، فكتب الخليفة إلى بيبرس يدفع فيه فقبل الشفاعة ، وأبقى على المغيث والكرك معا [٣] غير أنه يبدو أن المغيث ظل على نيته القديمة نحو المماليك وسلطتهم، فكتب إلى هولاكو سرا يحضه على فتح الشام ، ويطلب اليه أن يقيمه عليها ملكا تابعا [٤] ولكن بيبرس علم بأمر هذه المكاتبات المتبادلة بين هولاكو والمغيث عمر ، ويقال إن هذه

= وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٢٣٤ ، المقرى : نفح الطيب جـ١ ص ٢٢٩ ، السندوبى، أبو العباس المرسى ، ص ١٢٨) ،

(١) يروى ياقوت (معجم البلدان جـ ٤ ص ٢٦١ - ٢٦٢) أن هناك ثلاثة أمكنة تسمى بالكرك : الأولى قرية فى جنوب لبنان ، والثانية قلعة حصينة فى البلقاء وسط الجبال بين بحر القلزم (الأحمر) وبيت المقدس وهى المقصودة هنا ، والثالثة قرية بالقرب من بعلبك.

(٢) يعزو أبو الفداء (المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ٢٦٦) هذا العداء إلى اعتداء وقع من المغيث على امرأة الظاهر بيبرس بالكرك .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٤٠٠ .

(٤) أنظر (Blachet : Op . cit.P. 382).

المكاتبات لم تحدث وأن بيبرس اختلق القصة كلها لغرض فى نفسه وهو التخلص من أحد الورثة الشرعين للعرش الأيوبى المناوئين لسلطانه[1]. ومهما يكن من شيء فقد عمد بيبرس إلى السياسة والمداراة فأرسل إلى عمر رسالة أكد له فيها الإيمان والمواثيق، وأنه يرعى ذمته ولا يمسه بأذى[2].

وطلب اليه الحضور إلى معسكره بفلسطين. وعلى الرغم من تشكك المغيث من مواثيق بيبرس، فإنه أضطر إلى الذهاب إلى حضرة بيبرس في معسكره عند بيسان حتى لا يبدو جاحدا لحسن المعاملة، ناكرا لجميل الخليفة والسلطان، وفى جمادى الأولى سنة ٦٦١هـ (مارس سنة ١٢٦٣م) وصل المغيث عمر إلى الدهليز السلطانى عند بيسان، فقابله بيبرس وأكرم وفادته، وساق إلى جانبه حتى قارب الدهليز، وهناك قبض عليه واعتقله. ثم جمع بيبرس مجلسا حضره كبار الأمراء الشاميين وقاضى قضاة دمشق المؤرخ شمس الدين بن خلكان، وأوقفهم على الكتب المتبادلة بينه وبين هولاكو، كما أحضر القصاد الذين حملوا تلك الكتب، ثم أخرج بيبرس فتاوى الفقهاء بوجوب قتل المغيث عمر[3]، وأرسله مصفدا فى الحديد إلى القاهرة حيث قتل فى أبريل سنة

---

(١) يقول ابن واصل فى هذا الصدد (مفرج الكروب جـ٢ ص ٤١٤): وفيها (أى سنة ٦٦١ هـ) استقبل الظاهر بيبرس الملك المغيث استقبالا وإنما لم قبض عليه، وأخرج فتوى يتبرر فيها عمله بأن الملك المغيث كان على اتصال بهلاوون الذى وعده بوعود حسنة منها: «قد أقطعتك من بصرى إلى غزة» ثم يعده بامداده بالجيوش والفرسان لكى يفتح بها مصر، وبهذه الكتب برر الملك الظاهر قبضه على المغيث.

(٢) يقال إن بيبرس حلف للمغيث أربعين يمينا من جملتها الطلاق من أم الملك السعيد. ويقال أنها بعد ذلك استحلت بمملوك. ولم ير ذلك المملوك بعدها، راجع (مفضل بن أبى الفضائل: النهج السديد ص ٤٥٠).

(٣) مفضل بن أبى الفضائل: النهج السديد ص ٥٥٠، القريزى: السلوك جـ١ صص ٤٨٢، ٤٩١ - ٤٩٢.

١٢٦٣م [١] واستولى بيبرس على الكرك فى نفس السنة ، وعين بها واليا من قبله . وبذا خلا الجو لدولة المماليك من آخر مناوىء لها من ناحية الأيوبيين .

٤ - محالفات بيبرس مع الدول الأوربية :

لم يكن من المنتظر أن يقف بيبرس عند هذا الحد من التمكين للدولة المملوكية فى الداخل والخارج ، وهو يعلم أ ن المغول سوف يتحركون لمسح عار عين جالوت ، وأن الصليبيين سوف يعملون كذلك على إثارة ملوك أوربا إلى مثل ما قام به لويس التاسع ملك فرنسا أواخر أيام الأيوبيين ، وأن فى هذين الخطرين أحدهما أوكلاهما ما يعرض الدولة المملوكية للزوال . ولهذا عمد إلى عقد المحالفات مع الدول الأوربية وغيرها استعدادا لذلك الخطر المزدوج :

فحالف ميخائيل الثامن باليولوج Michael VIII Palaelogue أمبراطور الدولة البيزنطية سنة ١٢٦٢م (٦٦٠هـ) ، وأرسل اليه – بناء على طلبه - بطريقا من الملكانية ليشرف على الملكانيين [٢] فى دولته ، وكان صحبة هذا البطريق – واسمه الرشيد الكحال – الأمير فارس الدين أقوش المسعودى ، وعدة من الأساقفة ، فلما وصلوا القسطنطينية ، احتفى بهم

---

(١) يروى أبو الفداء (المختصر فى اخبارالبشر جـ ٣ ص ٢٢٦) أن المغيث جمل إلى امرأة الظاهرة بيبرس التى قيل أنه اعتدى عليها بالكرك ، بقلعة الجبل ، فأمرت جواريها فقتلته بالقباقيب .

(٢) ملكانيون جمع ملكانىMalkaniy وهى كلمة سريانية ، وتقابلها فى العربية ملكيون وملكى Melkites وباليونانية Basilikai أى ملكى. وقد أطلق اسم ملكانية على المسيحيين العرب الذين انضموا إلى الكنيسة البزنطية متبعين مذهب الأمبراطور الرسمى راجع . Concise Encyclopaedia of Arabic Civilization p.361

الأمبراطورواكرمهم ، واطلع الأمير أقوش على المسجد الذى جدد بناءه [1] في عاصمته كي يصلى فيه المسلمون من التجار والصناع وغيرهم المقيمين أو المارين ببلاده، ولما علم بيبرس ما قام به الأمبراطور البيزنطى من التجديدات فى بناء هذا المسجد ، أمر بتأثيثه وتجهيزه بالحصر والسجاجيد والقناديل المذهبة والمباخر والمسك والعنبر والعود وماء الورد . . . الخ [2] .

كذلك حالف السلطان بيبرس امبراطور الدولة الغربية وملك صقلية ونابولى منفرد بن فردريك الثانى هو هنشتاوفن ، وارسل له فى أوائل حكمه سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١م) هدية من جملتها عدد من الزراف وجماعة من أسرى عين جالوت من التتار بخيولهم التترية وعددهم، فأعجب الأمبراطور بالهدية ، وأحسن إلى الرسل وأكرمهم ، وكان على رأس السفارة المصرية المؤرخ الحموى الكبير جمال الدين بن واصل الذى أمدنا ببعض أخبار تلك السفارة فى كتابه « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب »حيث يقول : « توجهت رسولا إلى منفريد من السلطان الأعظم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس – رحمه الله – فى شهر رمضان سنة تسع وخمسين وستمائة ، فأقمت عنده مكرما بمدينة من مدائن ابنولية [3] يقال لها برلت Barletta ، واجتمعت به فوجدته متميزا محبا للعلوم

---

(١) بنى مسلمة بن عبد الملك هذا المسجد فى سنة ٧١٤م (٩٦هـ) فى خلافة الوليد بن عبد الملك على أثر صلح بين البيزنطيين والعرب ينص على بناء مسجد بالقسطنطينية. وقد هدمه الصليبيون أثناء غاراتهم على القسطنطينية . ويقال أن صلاح الدين حاول تجديد بنائه فلم يجبه البيزنطيون إلى ذلك . (ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٤٠٢ ، العينى : عقد الجمان ورقة ٤٨١) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ص ٤٠٣ – ٤٠٢ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٧١ .

(٣) يقصد بذلك مقاطعة أبوليا فى جنوب ايطاليا .

العقلية، يحفظ عشر مقالات من كتاب اقليدس فى الهندسة . وبالقرب من البلد التى كنت نازلا بها مدينة تسمى لوجارة Lucera أهلهم كلهم مسلمون من أهل جزيرة صقلية [1]، وتقام الجمعة فيها ، ويعلن بشعائر الإسلام ، وهى على هذه الصفة من عهد ابيه الأمبراطور[2]، وكان قد شرع فى بناء دار علم بها ليشتغل فيها بجميع أنواع العلوم النظرية . وأكثر اصحابه الذين يتولون أموره الخاصة مسلمون ، ويعلن فى معسكره بالأذان، والصلاة ويضيف الصفدى فى ترجمة لابن واصل أن منفرد قال لجمال الذين فى مجلسه « ياقاضى أنا ما عندى ما أسالك عنه فى الفقة والعربية ثم سأله ثلاثين سؤالا فى علم المناظر (البصريات) ، فبات الليلة تلك وصبحه بالجواب عنها ، فصلب الانبرور على وجهه وقال : « هكذا يكون قسيس المسلمين »، لأن القاضى لم يكن معه كتب فى تلك السفرة وانما أجابه عن ظهر قلب» . «كذلك ألف ابن واصل أثناء أقامته فى ايطاليا رسالة فى المنطق سماها « الرسالة الانبرورية » وأهداها إلى منفرد .

وتروبى المصادر الاسبانية المعاصرة أن ملك قشتالة الفونسو العاشر المعروف بالعالم [1] El Sabio أرسل إلى السلطان بيبرس البندقدارى –

---

(١) يروى المؤرخون أن الإمبراطور فردريك الثانى نقل معظم عرب جزيرة صقلية إلى مدينة لوجارة فى أبوليا جنوبى ايطاليا سنة ١٢٤٩م كان ذلك على أثر مصادمات عنيفة وقعت بين العرب والمسيحيين فى صقلية ، فنقلهم الإمبراطور معه إلى مدينة لوجارة حيث كان يقضى أغلب أوقاته متخذا أياهم حرسا أمينا له . راجع (مارتينو ماريو مورينو: المسلمون فى صقلية ص ٢٥) .

(٢) يقصد الامبراطو فردريك الثانى الذى كان اتصاله بملوك وعلماء المسلمين ، وفضلة فى نشر الثقافة العربية فى اوربا حديث الكتاب والمؤرخين فى كل عصر .

(٣) سمى بالعالم أو الحكيم لأنه أشرف على كتابه الحولية التاريخية الكبرى فى تاريخ اسبانيا=

وتسميه Alvandexaverr – هدية من الخيول العربية الأصيلة ، وذلك في سنة ٦٥٩هـ (١٢٦١م) . وقد رد عليه بيبرس بهدية مماثلة من بينها زرافة ، وسن فيل، وتمساح محنط لايزال إلى اليوم معلقا في مدخل الباب الشرقي لكتدرائية أشبيلية Puerta del lagarto وتضيف الرواية أن السلطان بيبرس طلب الزواج من ابنة الملك الاسباني الفونسو العاشر ولكن طلبه لم يتحقق .

ولم تقتصر مساعي بيبرس على ملوك أوربا فحسب ، بل حالف أيضا خان القبيلة الذهبية Golden Horde (١) أو مغول القبشاق ، واسمه بركة خان ، وهو أول من اعتنق الإسلام من أولاد جنكيزخان ، وكانت بلاده تمتد من تركستان شرقا إلى شمال البحر الأسود غربا ، وتعرف ببلاد القبشاق أو القفجاق ، وعاصمتها مدينة صراى في شمال غرب بحر قزوين .

فالسلطان بيبرس تحالف مع عاهل هذه الدولة الإسلامية المغولية بركة خان وتبادل معه البعوث والهدايا (١٢٦١ – ١٢٦٣م) كما تزوج ابنته ، وأمر بالدعاء له على منابر القاهرة والقدس ومكة والمدينة (٢) ولاشك أن هذا الحلف كان موجها بطبيعة الحال ضد عدوهما المشترك

= Primera Cronica General de Espana واستعان على تأليفها بعدد من العلماء المسلمين واليهود والمستعربين المسيحيين ، واعتمد هؤلاء على عدد كبير من المصادر العربية والبيزنطية واللاتينية وعلى جميع الحوليات الأسبانية السابقة . كذلك نشطت حركة الترجمة في طليطلة في عهد هذا الملك الذى اشتهر بحبه للعلم والعلماء .

(١) يقال إن هذه التسمية ترجع إلى لون مخيماتهم .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٤٠٩ ، مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، ص ٤٥٤ – ٤٦٢ .

الممثل فى دولة ايلخانات فارس التى يحكمها هولاكو واولاده ، وكانت تشمل فارس والعراق وعاصمتها تبريز أو مراغه [١]، فيروى المقريزى أن بيبرس أخذ يحرض بركة خان على قتال هولاكو وبرغبه فى ذلك .[٢]

ولم يكتف بيبرس بذلك ، بل حالف فى سنة٦٦٠هـ (١٢٦٢م) سلطان السلاجقة الروم عز الدين كيكاوس بن كيخسرو ،ووعده بالمساعده ضد أخيه ركن الدين قلج أرسلان وضد هولاكو وأطماعه فى أسيا الصغرى . وأرسل بيبرس جنوده، إلى دمشق وحلب استعدادا لتأييد السلطان عز الدين ضد أخيه ركن الدين وضد المغول .[٣]

ومن الواضح أن المعاهدات التى أبرمت والسفارات التى تبودلت بين سلطان مصر المملوكى وبين ملوك الدول المحيطة به شرقا وغربا ، جعلت دولة المماليك فى شيء من الأمن مما يهدد كيانها من ناحية المغول والصليبين ، وأن كان من المعروف أن خلو عهد بيبرس من حمله صليبية على مصر انما يرجع لانصراف الدول الأوربية إلى شئونها ومشاكلها فى الغرب ،كما أن قله الغارات المغولية فى عهده، انما يرجع إلى ما طرأ على المغول من حالة سكون مؤقت بعد عاصفة جنكيز خان وهولاكو فى البلاد الشرقية على الأقل ..

٥ -تحصين الأطراف والثغور والعناية بالبريد :

لم يعوز الدولة المملوكية بعد ذلك دعامة من دعامات القوة والبقاء

---

(١) راجع : Barthold :Histoire de turcs D'asie Centrale p.138

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٦٥ .

(٣) راجع تفاصيل النزاع بين هذين الأخوين وتدخل هولاكو فى آسيا الصغرى (ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٤٥٥ وكذلك مقدمة ناشر الكتاب بلوشى Blocbet

سوى تأمين حدودها ضد الغزو الخارجي، وتنظيم جيوشها وتقوية اسطولها لما يتطلبه مركز الزعامة في العالم الإسلامي من هجوم أودفاع ، ولذا كان ما قام به بيبرس في هذا المضار من أهم ما تحتاجه الدولة للقيام على أساس متين، وأول ذلك أن السلطان جند العشائر العربية سنة ١٢٦١م ، (٦٥٩هـ) وهي العشائر المقيمة على الحدود الفراتية مثل عرب خفاجة وحثهم على قتال هولاكو بعد أن غمرهم بالخلع والهدايا والأموال (١) ويقال إن هؤلاء العربان قاموا بمهمتهم خير قيام حتى وصلت اغاراتهم أبواب مدينة بغداد .

ولم يكتف بيبرس بذلك ، بل أمر نوابه بحلب ١٢٦٢م ٦٦٠هـ) باحراق المروج والأعشاب التي جرت عادة هولاكو أن يعسكر على مقربة منها أثناء هجومه على الشام ، فجهزت القداحات والصوفات وآلات النار سرا ، واحرقت تلك المروج جميعها ، وهي مسيرة عشرة أيام من آمد إلى خلاط ، وبذا قطع بيبرس على هولاكو وجنوده السبل والطرق المؤدية إلى الشام (٢) وقد شرح لنا من العمرى والقلقشندى طريقة هذا الاحراق بقوله: «كان من عادة التتر أنهم لايكلفون علوفة لخيولهم بل يكلونها إلى ماتنبت الأرض، فإذا كانت تلك الأرض مخصبة سلكوها ، وإذا كانت مجدبة تجنبوها ، وكانت أرض هذه البلاد مخصبة تقوم بكفاية خيل القوم إذا قصدوا بلادنا ،فإذا أحرقوا زرعها ونباتها ضعفوا عن قصد بلادنا وحصل بذلك الدفع عن مباغتة الأطراف ومهاجمة الثغور ، وكان طريقهم في احراقها أن يجهزوا إليهم الرجال ومعهم الثعالب الوحشية

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٦٥ ، ٤٨٠ ، ٥٠١ - ٥٠٣ - ٥١٢ .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٠٥ - ٤٠٦ .

وكلاب الصيد . فيكمنون عند امناء النصاح فى كهوف الجبال وبطون الأودية ويرتقبون يوما تكون ريحه عاصفة وهواؤه زعزع ، تعلق النار موثقة فى أذناب تلك الثعالب والكلاب ، ثم تطلق الثعالب ، والكلاب فى اثرها وقد جوعت ، لتجد الثعالب فى العدو ، والكلاب فى الطلب، فتحرق ما مرت به من الزروع والنبات ، وتعلق الريح النار منه فيما جاوره ، مع ما يلقيه الرجالة بأيديهم فى الليالى المظلمة ، وعشاء الأيام المعتمة [١] .

ثم أمر بيبرس سنة ١٢٦٣م بعمارة القلاع التى خربها المغول من حمص إلى حوران وزودها بالمؤن والذخيرة ، فأقام بذلك خطا حصينا من شرق الأردن إلى نهر العاص ، فضلا عن أبراج المراقبة التى أقامها على طول الأطراف الصليبية لحفظ الطرقات من أعتداءات الفرنج [٢] .

كذلك اهتم بيبرس بعمارة سلسلة المنائر أو المناور التى تربط أطراف الدولة بالعاصمة وهى عبارة عن أبراج للمراقبة يرابط فيها الحراس والمرابطون ليل نهار ، فإذا كشفوا عدوا مقبلا من البر كالمغول، أومن البحر كالصليبيين ، أشعلوا النار على قمم هذه المناور إذا كان الوقت ليلا ، أو أثاروا فيها الدخان إذا كان الوقت نهارا ، ثم سرعان ماتنتقل هذه الاشارات النارية أو الدخانية من منارة إلى أخرى تحذر الأهالى إلى أن تصل إلى العاصمة . فهى تشبه صفارات الانذار فى وقتنا الحاضر ، وكثيرا ما استعمل المنورون أشارات نارية أو دخانية بطرق أو حركات معينة للإخبار عن حالة العدو أوعدده أو جنسيته أو غير ذلك ، وأن كانت المراجع للأسف لم تشرح لنا طريقة ارسال هذه الاشارات .

---

(١) راجع : (العمرى التعريف ص ٢٠١ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١٤ص ٤٠١).

(٢) أنظر : Wiet : Precis de l" Hitoire d'Egypte II p.25

ولعل الوصف الذى أورده، المقدسى (ق٤هـ)، و العمرى (ق٨هـ) عن دور هذه المناور فى مقاومة الصليبين والمغول ، يعطينا فكرة عن أهميتها الدفاعية فى الشرق العربى . فيقول المقدس : « وكفر سلام من قرى قيسارية كبيرة آهلة ، بها جامع على الجادة ، ولهذه القصبة رباطات على البحر ، يقع بها النفير ، وتقلع اليها شلنديات الروم وشوانيهم ومعهم أسارى المسلمين للبيع كل ثلاثة بمائة دينار ، وفى كل رباط قوم يعرفون لسانهم، ويذهبون فى الرسالات ، ويحمل إليهم أصناف الأطعمة ، وقد ضج بالنفير لما تراءت مراكبهم فإن كان ليلا أوقدت منارة ذلك الرباط ، وإن كان نهارا دخنوا ، ومن كل رباط إلى القصبة عدة منائر شاهقة ، قد رتب فيها اقوام ، فتوقد المنارة التى للرباط التى تليها ثم الأخرى فلا يكون ساعة إلا وقد انفر من بالقصبة وضرب الطبل على المنارة ، ونودى إلى ذلك الرباط وخرج الناس بالسلاح والقوة »[(١)] .

أما العمرى فيصف مناور الجبهة الشرقية المواجهة للمغول بقوله :

« والمناور هى مواضع رفع النار فى الليل، والدخان فى النهار . وذلك أن مملكة أيران لما كانت بيد هولاكو من التتار ، وكانت الحروب بينهم وبين هذه المملكة ، أن جعلوا أماكن مرتفعة من رؤوس الجبال توقد فيها النار ليلا ، ويثار الدخان نهارا ملأعلام بحركة التتار إذا قصدوا دخول البلاد لحرب أواغارة . وهذه المناور تكون على رؤوس الجبال، وتارة تكون على أبنية عالية معروفة [(٢)] من أقصى ثغور الإسلام كالبيرة والرحبة إلى

---

(١) المقدسى : كتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ١٧٧ ، نشر دى خوية (ليدن ١٩٠٦) .

(٢) أورد العمرى والقلقشندى أسماء تلك المواضع ، راجع (العمرى : التعريف ص ٢٠٠ - ٢٠١ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٣٩٩) .

حضرة السلطان بقلعة الجبل ، حتى إن المتجدد بالفرات أن كان بكرة علم به عشاء ، وأن كان عشاء علم به بكرة ، ولما يرفع من هذه النيران أو يدخن من هذا الدخان أدلة يعرف بها اختلاف حالات رؤية العدو والمخبر به بأختلاف حالاتها ، تارة فى العدد ، وتارة فى غير ذلك ، وقد أرصد فى كل منور الديادب والنظارة ، لرؤية ماوراءهم وايراء ما أمامهم ، ولهم على ذلك جوامك مقررة كانت لاتزال دارة .(١)

ولم يقتصر بيبرس على ذلك بل أمر فى سنة ١٢٦٤م بتجديد بناء القلاع التى على الحدود الفراتية ولاسيما قلعة البيرة التى آرسل إليها آلات القتال والأسلحة من مصر والشام ، وعبأ فيها كل ما يحتاج إليه أهلها فى الحصار لمدة عشر سنين كى تظل شوكة فى جنب المغول .

أما فى مصر فإن السلطان أمر بردم مصب النيل عند دمياط ورمى فيه صخورا عظيمة ليحول دون مرور سفن الصليبين وتتكرر مأساة دمياط من جديد ، كما شيد برجا للمراقبة فى رشيد، وعمر أسوار الإسكندرية وجدد بناء المنار الذى بها .

على أن بيبرس لم يكتف بتلك الاستعدادات الدفاعية لضرورة ما تتطلبه الظروف الحربية من سرعة فى تلقى الأخبار واصدار الأوامر ، ولهذا وضع للبريد (٢) نظاما ربط به جميع أنحاء ملكته بشبكة من خطوط

---

(١) العمرى : نفس المرجع والصفحة ، القلقشندى : نفس المرجع ، ص ٣٩٨ .

(٢) البريد نظام يتعلق بأمن الدولة مثل نظام المخابرات اليوم ، مهمته التجسس على عمال الدولة واعلانها وابلاغ العاصمة كل مايقع فى الولايات من أحداث ، فهو أذن بريد الدولة وليس بريد الجمهور مثل البوستة اليوم . ويقال أن أصل كلمة بريد لاتينى بيزنطى Veridus ثم أنتقل هذا النظام إلى الدولة الإسلامية فى عهد معاوية بن أبى سفيان نقلا عن الروم فى الشام =.

البريد البرية والجوية ، وكان مركز هذه الشبكة قلعة الجبل بالقاهرة ، ومنها تتفرع سائر الخطوط وتصدر المراسيم السلطانية إلى أنحاء المملكة ، وإليها ترد الرسائل من الحكام ، والتقارير من ولاة الأعمال والنيابات فى سرعة وانتظام [١] ، حتى صار البريد يصل من دمشق إلى القاهرة ومن القاهرة إلى دمشق فى ثلاثة أيام [٢] ، ولم يتأت ذلك إلا بعد أن أنفق بيبرس أموالا ضخمة فى سبيل ترتيبه ، وزود بيبرس مراكز البريد بكل ما يحتاج إليه عمال البريد من زاد وعلف ، كما راعى فيها توفر المياه أو وجود قرية بجوارها كى يستأنسوا بها ، وأعد فى كل مركز منها خيولا لا يسمح بركوبها إلا بمرسوم سلطانى ، وكان البريديون يتخبون عادة من خدم السلطان ذوى الكفايات و الذكاء لابلاغ الرسائل الشفوية عند الاقتضاء،

=وأطلق لفظ البريد فى أول الأمر على الدابة التى تركب لمهمة رسمية ثم أطلق على الراكب نفسه ثم على المسافة التى يقطعها الراكب وهذه على حسب تقدير علماء المسالك والفقهاء أربعة فراسخ . ولما كان الفرسخ ثلاثة أميال فإن مسافة البريد تكون ١٢ ميلا على هذا الأساس .

وعامل البريد كان يسمى أيضا بصاحب البريد كما كان يسمى فى الهند بملك البريد على حد قول ابن بطوطة ، أما فى المغرب والأندلس فكان يطلق عليه اسم الرقاص ، ولاشك أن ادارة البريد بما فيها من سجلات وقوائم بأسماء المحطات وتقدير المسافات ، قد أعطت الرحالة والجغرافيين العرب مادة خصبة فى كتاباتهم الجغرافية المعروفة باسم المسالك والممالك .

(١) كان يتفرع من قلعة الجبل أربعة طرق برية يمتد أحدها جنوبا إلى قوص بالوجه القبلى وما يلى ذلك من بلاد النوبة ، وآخر شرقا إلى عيذاب وسواكن على البحر الأحمر ، وثالث غربا إلى الإسكندرية وبرقة ، ورابع شمالا إلى دمياط ومنها إلى غزة حيث يتفرع البريد إلى سائر البلاد الشامية ، راجع (القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٣٧٢ - ٣٨٣) .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة بيبرس الأول .

وكانت لهم مكانة محترمة ويشرف على ادارة البريد صاحب ديوان الأنشاء إذ عهد اليه حفظ الواح [1] . البريد بالديوان ، فإذا خرج بريدى إلى جهة من الجهات ، أعطى لوحا من تلك الألوح ليعلقة بعنقه فى ذهابه وايابه .

ولم يقتصر الأمر على البريد البرى ، فهناك أيضا ما نستطيع أن نسمية بالبريد الجوى ونعنى بذلك الحمام الزاجل الذى كان يستخدم فى الحالات المتعجلة . وكان لهذا الحمام أبراج خاصة بالقلعة ومراكز معينة فى سائر أنحاء المملكة مثل مراكز البريد البرى ، لكنها ، تزيدعنها فى المسافة . فإذا نزل الحمام فى مركز منها ، نقل البراج الرسالة التى بجناحة إلى طائر آخر ليوصلها إلى المرحلة التى تليها وهكذا ، وكان الأيجاز والتركيز من أهم مميزات الرسائل التى ينقلها الحمام الزاحل ، اذ يستغنى فيها عن البسملة والمقدمات والالقاب الكثيرة ويكتفى بذكر التاريخ والساعة وايراد المطلوب فى صيغة مختصرة [2] . وكان الخط المستعمل فى هذه الرسائل هو المعروف باسم « الغبار» لأنه دقيق صغير يشبه ذرات الغبار لهذا كان حجم الرسالة فى بعض الأحيان لايزيد طولها عن سلامية الاصبع .

مما تقدم نرى أن النظام الدقيق الذى وضعه بيبرس للبريد كان من الضروريات الحربية اللازمة للوقوف على كل ما يتجدد فى أنحاء مملكته فيأخذ حذره ويستعد للطورىء .

---

(١) كانت هذه الألواح من الفضة وقد نقش على أحد وجهى كل لوح منها عبارة : لاإله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولوكره المشركون – ضرب بالقاهرة المحروسة . على الوجه الآخر : « عز لمولانا السلطان . . . سلطان الإسلام والمسلمين » راجع (القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٣٧١) .

(٢) القلقشندى : نفس المرجع جـ ١٤ ص ٣٨٩ – ٣١٤ .

٦ - تقوية الاسطول والجيش :

ولم تقف مجهودات بيبرس الحربية عند هذا الحد ، بل عمل على أنشاء قوة بحرية يستعين بها فى صد اعدائه الذين يغيرون على بلاده من جهة البحر ، ويعتبر بيبرس فى الواقع هو مؤسس اسطول المماليك ، اذ يشير المقريزى إلى كثرة ركوب هذا السلطان فى بحر النيل، وإلى اهتمامه بدور صناعه السفن التى فى الفسطاط (مصر) وجزيرة الروضة ، والإسكندرية ودمياط ، لدرجة أنه كان يشرف بنفسه على بناء الشوانى [1]، وتجهيزها بالالآت ، ولعبها فى البحر [2]،ويسوق المقريزى فى هذا الصدد رواية طريقة تدل على مبلغ - عناية بيبرس بالأسطول ، وهى أن رسل ملك قبرص جاءت إلى السلطان بيبرس سنة ٦٧٠هـ للشفاعة فى صاحب عكا ، فوجدته جالسا فى الصناعة بين الأخشاب ، والصناع والأمراء تحمل بأنفسها آلات الشوانى وهى تمد ، فراعهم ماشاهدوا[3] .

وقد حرص بيبرس على توفير اعواد الخشب التى تصلح لبناء السفن فمنع الناس من شرائها ، ويفهم من كلام المؤرخين أمثال الأسعدبن مماتى (ت ١٣٠٩م) وعثمان بن ابراهيم النابلسى (ت ١٢٥٨م) والمقريزى (ت١٤٤٢) أن حراج السنط التى كان خشبها يستخدم فى بناء السفن ،

---

(١) راجع (المقريزى ك الخطط جـ ٢ ص١٨٠ ، ٢٩٧) .

(٢) الشوانى جمع شينى أوشونى أو شونة وهى من أهم القطع التى كان يتألف منها الأسطول ، وهى مراكب حربية كبيرة كانوا يقيمون فيها أبراجا وقلاعا للدفاع والهجوم . وكانت هذه الأبراج مكونة من عدة طبقات ، تقف فى الطبقة العليا نها العساكر المسلحة بالقوس والسهام ، وفى الطبقة السفلى الملاحون بالمجاديف ، وتحتوى على مخازن الطعام ، ومستودعات لخزن المياه .

(٣) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٦٠١ .

والتى كانت توجد بكثرة فى جنوب الدلتا ، وصعيد مصر ، وشبه جزيرة سيناء على عهد الفاطميين والأيوبيين [١] ، قد أخذت تقل تدريجيا منذ أواخر العصر الأيوبى ، وأن العوام والخواص صاروا يقطعون منها مايحتاجونه من السواقى وآلات المعاصر وغيرها ، وما يوقدون به فى بيوتهم ومعاصرهم بالجمل الكثيرة [٢] بحيث لم ينته القرن الثالث عشر الميلادى إلاوكانت حراج الدلتا حول القاهرة فى المطرية وقليوب والجيزة قد اختفت تماما ، ثم تلتها حراج الصعيد فى البهنساوية والاشمونين واسيوط وأخميم وقوص ، فاختفت هى الأخرى فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى وتحولت إلى أراضى زراعية ، ثم يأتى المقريزى فى القرن الخامس عشر الميلادى فيؤيد ذلك بقوله : « وقد بطل هذا جميعه ، واستولت الايدى على تلك الأشجار فلم يبق منها شيء البتة » [٣].

من هذا نرى أن مصر حينما حكمها الظاهر بيبرس فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، لم يكن يوجد بها إلا بقايا مبعثرة من حراج السنط فى الوجه القبلى ، وحول مدينة السويس فى صحراء سيناء [٤] وهى فى مجموعها لاتكفى حاجة الدولة ، وقد يؤيد ذلك أن بيبرس احتكر الخشب المحلى الصالح لبناء السفن ومنع الناس من بيعه أو شرائه .

---

(١) الاسعد بن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٤٥ - ٣٤٧ .

(٢) عثمان بن أبراهيم النابلسى كتاب لمع القوانين المضية فى داودين الديار المصرية ص ٤٥ - ٦٠ منشور فى مجلة الدراسات الشرقية بدمشق العدد ١٦ سنة ١٩٥٨ - ١٩٦٠ .

(٣) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١١٠ ، جـ ٢ ص ١٩٤ . وكذلك : (Aly Bahgat : les Forets en Egypte, Bulletin de l'Institut Egyptien. le Caire 1900)

(٤) سعيد عاشور : مدينة السويس منذ الفتح العربى إلى بداية العصر الحديث ص ٧٧ ، (الفصل الثانى من كتاب تاريخ السويس سلسلة بلادنا) . (القاهرة ١٩٦٦) .

كما أنه اضطر إلى قطع شجر الجميز Sycamore بجزيرة الروضة لاستخدام خشبه - رغم قلة جودته - في بناء أسطول جديد عوض الأسطول الذى كان قد سيره إلى جزيرة قبرص وتحطم هناك على سواحلها سنة ١٢٧١م . ولعل العبارة التى وجهها بيبرس إلى ملك قبرص في إحدى رسائله ويقول فيها : « وأنتم خيلكم مراكب ، ونحن مراكبنا الخيل » [١]، تدل على العجز الذى كانت تعانيه البحرية المملوكية في أهم خاماتها ، وهو الخشب وكيفما كان الأمر، فإن بيبرس عمل على تلافى هذا العجز باستيراد الخشب والحديد من آسيا الصغرى [٢] وإيطاليا وتمكن بذلك من أعداد اسطول من خمسين قطعة . [٣]

ولم يكن اهتمام بيبرس بتقوية جيشة أقل من اهتمامه بالمسائل الحربية السالفة الذكر ولذا أكثر من شراء المماليك من بنى جنسه القفجاق [٤] اذ « مالت الجنسية إلى الجنسية » على قول القلقشندى ،

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٥٩٤ حاشية ٥ ، عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ص ١٩١ .

(٢) يروى ابن بطوطة (ق ١٤م) أن مدينة العلايا الواقعة على ساحل الاناضول كانت كثيرة الخشب ومنها يحمل إلى الإسكندرية ودمياط (رحلة ابن بطوطة جـ٣ ص ٢٥٧) كذلك يروى ابن اياس أنه جرت العادة أن يخرج جماعة من الأمراء والجند فى عدد من المراكب إلى مكان يسمى الجون أو اللجون لاحضار الأخشاب على العادة ، ومن المرجح أن المقصود بالجون هو مدينة بير Babar التركية الواقعة على ساحل الاناضول (آسيا الصغرى) راجع ابن اياس : صفحات لم تنشر فى بدائع الزهور ص ٣٧ ، حاشية ، بدائع الزهور جـ ٢ص ١٨٢ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٤٧ .

(٤) المعروف أن بيبرس ولد ببلاد القفجاق أو القبشاق سنة ١٢٢٣م (٦٢٠ هـ) وقضى بها شطرا من حياته الأولى إلى أن بيع لأحد النخاسين على أثر هجوم المغول على تلك البلاد سنة ١٢٤٢م (٦٤٠هـ) . راجع (دائرة المعارف الإسلامية ، مادة بيبرس الأول) .

ووقعت الرغبة فى الاستكثار من القفجاق على عهد بيبرس ؛ حتى أصبحت مصر بهم آهلة المعالم ، محمية الجوانب ، منهم زعماء جيوشها ، وعظماء أرضها ، وحمد الإسلام مواقفهم فى حماية الدين حتى أنهم جاهدوا فى الله أهليهم [١]

وبينما يروى القلقشندى أن معظم هؤلاء المماليك من أجلاب القبشاق وهو لفظ يدل على القبيلة الذهبية ، يروى المقريزى أنهم أتوا بالأخص من بلاد تركستان. ونستطيع أن نوفق بين الروايتين فى سهولة لأن القبيلة الذهبية تملكت على جزء من تركستان وهو شمال خوارزم وأراضى السهوب الشمالية ، ولهذا سماها القلقشندى « مملكة توران خوارزم والقبشاق » [٢] . ، إذا سلمنا جدلا بأن هؤلاء المماليك من أصل تركستانى ، فانهم فى الواقع أتوا إلى مصر من بلاد القبشاق جنوبى الفلجا .

وكيفما كان الأمر فالراجح أن حسن العلاقة بين بيبرس وبركة خان سهلت الحصول على أولئك المماليك القفجاق دون غيرهم . غير أن الحصول على هؤلاء المماليك تتطلب الوصول إلى السواحل الشمالية للبحر الأسود فى سهولة ، واستطاع بيبرس بسفاراته وهداياه أن يحصل من الأمبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوج على أذن لمرور سفينتين مصريتين مشحونتين بالمماليك عبر البسفور إلى البحر الأسود ذهابا وايابا مرة فى السنة[٣]

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٥٨ .

(٢) القلقشندى : نفس المرجع جـ٤ ص ٤٦٩ ، وكذلك :

Peliak:la caractere Colonial de l'Etat mamelouk
dans: ses rapports avee la Horde d'or
R.E.I.1935,p.231,CahierIII .

(٣) أنظر:

(Heyd:Histoire du Commerce du Levant au moyen age, tome II. p.556.

ثم أن بلاد القفجاق كانت أصلح البلاد للحصول على أعداد كثيرة من المماليك ، اذ كانت شعوب تلك الجهات بدائية رحل يصيفون بأرض ويشتون بأخرى لقلة المراعى وقسوة المناخ . ويعانون ضيقا فى العيش ونقصا فى المواد الغذائية . وكان من الطبيعى أن يبيع بعض الأهالى أولادهم وبناتهم أو يستبد لونهم بالغلال لسد جوعهم . يضاف إلى ذلك أن القفجاق كانوا يغيرون على جيرانهم من الشراكسة والروس والجر واللان ، ويأسرون منهم ما استطاعوا للبيع فى أسواق النخاسة البيضاء ومن ثم صارت قاعدة مملكتهم مدينة صراى [1] فرضة عظيمة للتجار ورقيق الترك والشراكسة والروس والجر واللان ، وهذا هو بعض السر فى كثرة الاجناس التى تكونت منها الطبقة المملوكية فى مصر ، ومن هذه الأجناس التى كثر فيها عنصر القفجاق ، ملأ بيبرس صفوف جيشه حتى بلغت عدته أربعين ألف فارس ، فيحدثنا المؤرخون فى هذا الصدد أن جماعات من مغول القفجاق وفدت مستأمنة إلى مصر فى عهد بيبرس وأنضمت إلى جيشه. وسميت تلك الجماعات بالوافدية والتتر المستأمنة . وصل منهم أول الأمر مائتى فارس سنة ١٢٦٢م - (أواخر سنة ٦٦٠هـ) ثم مايزيد عن الألف وثلاثمائة فارس بعائلاتهم فى سنة ١٢٦٣م هذا بخلاف أعداد أخرى جاءت إلى مصر سنة ١٢٦٤م .

---

(١) كانت صراى تقع فى شمال غرب بحر قزوين ،. وقد تم بناؤها فى عهد بركة خان. وتصفها الروايات العربية بأنها مدينة كبيرة ذات أسواق وحمامات ومساجد . وفيها طوائف مختلفة من الناس مثل الروس والمغول والروم والشركس ، كل طائفة منهم تسكن على حدة . كان التجار الغرباء من أهالى العراق ومصر والشام وغيرها يقيمون فى مكان خاص محاط بسور حفظا على أموالهم وبضائعهم ، ولما انتشر الإسلام فى تلك الجهات ، صارت هذه المدينة مقصد العلماء والأدباء أمثال قطب الدين الرازى ، وسعد الدين التفتازانى ، وغيرهم . راجع (الرمزى : تلفيق الأخبار جـ ١ ص ٤١١ - ٤١٣، القلقشندى =

وقد رحب بيبرس بهؤلاء الجند ، وخلع عليهم وأكرمهم وانزلهم فى دور بنيت لهم خصيصا بالقرب من اللوق بظاهر مدينة القاهرة وقتذاك ، ثم أمر كبراءهم ، وأنزل باقيهم فى جملة بحريته ومماليكه . وجلب هؤلاء التتار معهم نظمهم وعاداتهم التى كان لها أثر كبير فى النظم المملوكية بدليل قول المقريزى : « ثم كثرت الوافدية أيام الملك الظاهر بيبرس ، فغصت أرض مصر والشام بطوائف المغول وانتشرت عاداتهم وطرائقهم » .[1] وعلى هذا الأساس تكون جيش المماليك من عدة فئات من الغرباء يقودهم قائد منهم يعرف بأتابك العسكر. وكلمة أتابك، كما اسلفنا – معناها الأمير الأب ثم صارت تعنى قائد الجيش على اعتبار أنه أبو العساكر ، اذ أن هذا المعنى يتفق مع طابع دولة المماليك التى اعتمدت فى المقام الأول على العلاقة بين الاستاذ ومماليكه ، إما الفئات التى تكون منها الجيش فهى كالآتى :

المماليك السلطانية : وهم عبارة عن مماليك السلطان السابقين ثم مماليك السلطان القائم الذين يجلبهم لنفسه ، ولهذا عرفوا بأسم الأجلاب والجلبان ، ومنهم طائفة الخاصكية أو الاحداث وتمتاز عن بقية المماليك السلطانية بانضواء أفرادها وهم صغار السن فى خدمة السلطان ، فهو الذى يتولى تربيتهم وعتقهم . وكانت المماليك السلطانية أعظم الجنود شأنا وأشدهم إلى السلطان قربا وأوفرهم أقطاعا ، ومنهم تؤمر الأمراء .

=جـ ٤ ص ٤٥٧) .

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢١ ويضرب بولياك ، مثلا على ذلك بقولة : « أخذ المماليك المبادىء الأساسية الأقطاعية من الأمبراطورية المغولية . ومن ثم صارت قوانينهم الأقطاعية لايبت فيها بواسطة القضاة ووفق أحكام الشريعة الإسلامية ، وانما بواسطة الحجاب وعلى أساس احكام جنكيزخان – الياسة – راجع :
(Poliak : Some Notes on the Feudal system of the Mamlouks, J,R,A,S. 1937 P,97).

جند الحلقة : وهم من محترفى الجندية من أولاد المماليك ، وقد عرفوا أيضا بأسم « أولاد الناس » ، فهم على هذا الوضع أحرار وليسوا من المماليك . وهم كثرة الجيش وعامته فى حالة الحرب ، وأصحاب حرف وصناعات فى وقت السلم ، ولكل أربعين نفسا مقدم منهم ليس له عليهم حكم إلا إذا خرج الجيش إلى الحرب ، فهم أشبه باحتياطى الجيش، وبمضى الزمن صار معظم جند الحلقة من أهل مصر . كذلك كان يوجد جند حلقة فى الشام ، يؤخذون من أهل الشام ، ويوزعون على نياباتها .

مماليك الأمراء : وهم يشبهون المماليك السلطانية غير أنهم تابعون مباشرة لأمرائهم ومنهم تتكون الوحدات الحربية التى يذهب بها الأمراء مع السلطان فى حروبه .

وهكذا كان تحصين بيبرس للثغور والعواصم المملوكية بأطراف الدولة ، وتنظيمه للجيش وفئاته ، وعنايته بالأسطول والبريد ، من أهم الدعائم اللازمة لأقامة الدولة المملوكية على أسس ثابتة ، والدليل على ذلك أن بيبرس استطاع بفضل ذلك الجيش والأسطول والتحصينات ، أن يقوم بالدور الذى حلاله أن يقوم به ، وهو محاكاة صلاح الدين الأيوبى فى الجهاد ضد الصليبيين وحلفائهم فى الشام وفى النوبة فضلا عن جهاد المغول .

٧ - جهود بيبرس فى مكافحة الخطر الصليبى :

أولا : الأمارات الصليبية فى الشام :

سبقت الإشارة إلى أن اقامة الملك لويس التاسع فى فلسطين كانت توافق الأيام الأولى لقيام دولة المماليك حينما كانت مطالبة الأيوبيين بعرش مصر على أشدها والحرب قائمة بينهم وبين المماليك . واستطاع لويس التاسع بدهائه أن يستغل هذا النزاع لصالحه وإن يصلح فى هدوء ما أحدثته هزيمة المنصورة . وبفضل هذه السياسة المرنة تمكن لويس التاسع من اطلاق عدد كبير من أسرى جيشه ، والغاء ماتبقى من أموال الفدية فضلا عن حصوله على وعد من السلطان أيبك بتسليمه بيت المقدس إذا ما أنضم إلى جانبه ضد الأيوبيين . ثم جاء تدخل الخليفة العباسى الذى حسم النزاع بين الطرفين المتنازعين مخيبا لآمال الصليبيين المستعمرين واضطر لويس التاسع أن يعود إلى بلاده خائب السعى ١٢٥٤م بعد أن فشل فى تغيير الأوضاع السياسية فى فلسطين وتدعيم مركز الصليبيين فيها ، وإن كان قد استطاع باقامته هناك أن يرفع الروح المعنوية بين الصليبيين فى الشام بعد أن انقطعت عنهم سبل الامدادات العسكرية من أوربا . والفترة التى تلت رحيل لويس التاسع إلى أن تولى بيبرس سلطنة مصر والشام (١٢٥٤م - ١٢٦٠م) كانت فترة هدوء ومسالمة بين الصليبيين والمسلمين بسبب أنشغال كل فريق بمشاكله الداخلية التى فصلنا الكلام عنها فى الفصول السابقة .

على أن هذا الموقف لم يلبث أن تغير تماما فى عهد بيبرس وخلفائه ، اذ نجد أن السياسة المصرية نحو الصليبين فى الشام تتسم بطابع العنف والقسوة ، والسبب فى ذلك يرجع إلى أن الصليبين أخذوا يتعاونون مع مغول فارس ضد دولة المماليك ، ويعملون كأدلاء ومرشدين

لجيوشهم المغيرة على الأراضى الشامية . وقد ساعدهم على ذلك موقعهم الجغرافى فى الشام الذى أتاح لهم معرفة تحركات الجيوش المصرية والشامية واحاطة المغول علما بها مما سهل عليهم احباط خطط المسلمين فى كثير من الأحيان ، ولم يقتصر الأمر على ذلك النحو ، بل نجد أن بعض الإمارات الصليبية قد سمحت لعدد من الحاميات المغولية بالنزول فى حصونها من باب التعاون العسكرى أو الدفاع المشترك ضد المسلمين ؛ ولك لم تلبث هذه الحاميات المغولية أن فرضت آرادتها على الصليبيين فى كثير من الأحيان ، وصارت تملى عليهم لرادة الخان المغولى المقيم فى تبريز أو مراغة أو بغداد .

ومهما يكن من شيء فإن هذه الحركة الماكرة من جانب الصليبيين فى الشام ، كانت بلاشك السبب الحقيقى لتلك السياسة العنيفة التى اتبعها بيبرس وخلفاؤه نحو الصليبيين اذ عز عليهم أن يكونوا مراقبين من الفرنج لحساب المغول ، فصمموا على طردهم من الشام .

بدأت الحرب بين بيبرس والصليبيين على شكل مناوشات محلية ، ويفهم من كلام المقريزى أن بيبرس ذهب بنفسه إلى الشام سنة ١٢٦٣م ، وكانت حركاته وقتئذ تدل على أنه كان يتفقد قواته ويوزعها توزيعا استراتيجيا خاصا ، وعندما سارعت اليه وفود الأمارات الصليبية تطلب منه السلام والمهادنة ، قابلها بمنتهى الجفوة مما يدل على تصميمه على القتال .(١)

---

(١) قال بيبرس لرسل الصليبيين : « ردوا ما أخذ تموه من البلاد وفكوا أسرى المسلمين جميعهم فلنى لا أقبل غير ذلك » ثم طردهم من مجلسه . راجع (المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٨٥ - ٤٨٦ ، سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١١٤) .

وفى أوائل سنة ١٢٦٥م دخل بيبرس فى عمليات حربية واسعة النطاق ضد الإمارات الصليبية الساحلية ، فاستولى على مدينة قيسارية ثم على مدينة أرسوف فى جنوبها ، وفى السنة التالية ١٢٦٦م هاجم بيبرس قاعدة استراتيجية صليبية خطيرة فى الشام وهى قلعة صفد التى كانت قاعدة لفرسان الداوية وبعد قتال عنيف تمكن بيبرس من الإستيلاء عليها ، ويقال إن بيبرس استولى على صفد بعد تأمينها ثم نكث بوعده وأمر بقتل حماتها لأسباب غامضة ، مما جعل المصادرة الصليبية تتهمه بالخيانة والغدر ، ولا مجال للحكم هنا عن الخيانة والغدر مع اناس مثل الصليبيين كان الغدر هو شيمتهم طوال تاريخهم الطويل وحسبنا أن نتصفح أخبارهم لنجد أمثلة مشابهة كثيرة فى هذا المجال .

وكيفما كان الأمر ، فإن سقوط قلعة صفد فى يد المسلمين قد أصاب الصليبيين بضربة قاسية ، وحطم معنوياتهم إلى حد كبير بدليل أن بعض القوى الصليبية سارعت إلى عقد هدنة مع السلطان بيبرس على أساس مبدأ المناصفة أو المشاركة معه فى غلات بلادهم ومنتجاتها ولعل من أطرفها تلك الهدنة التى ابرمت بين السلطان بيبرس وبين ملكة بيروت ازابيلا Isabella† ابنت الملك جون الثانى ابلين John II Ibelin† ، التى تطلق عليها المراجع العربية اسم الدبونة ، وهو تعريب لأسم البيت الحاكم فى بيروت D'Ibelin .

وقد خلفت أزابيلا أباها بعد وفاته سنة ١٢٦٤م على بيروت وجبالها (لبنان) باعتبارها ابنته الكبرى. وكانت هذه الملكة قد تزوجت وهى طفلة من الملك الطفل هيو الثانى ملك قبرص الذى مات قبل أن يعقد عليها ، وحاول خليفته هيو الثالث الوصى على قبرص أن يستغلها

كوريثة لعرش قبرص لتنفيذ مشاريعه الصليبية فى الشرق ولكنه لم ينجح ، وذلك لأن الملكة ازابيلا عقدت هدنة مع السلطان بيبرس سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٨م) مدتها عشر سنوات . وصارت كلما سافرت إلى قبرص ، تذهب إلى لقاء السلطان بيبرس وتترك مملكتها وديعة بين يديه إلى حين عودتها [١] .

وقد أورد القلقشندى نصوص هذه الهدنة ، وهى فى مجموعها مفيدة لأنها تبين لنا حدود مملكة بيروت ونواحيها فى ذلك الوقت ، وتلاحظ أن كثيرا من أسماء مدنها وأحيائها ما زالت باقية إلى اليوم ، وفيما يلى نص هذه المعاهدة :

« استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ، وبين الملكة الجليلة المصونة الفاخرة ، فلانة بنت فلان ، مالكة بيروت وجميع جبالها وبلادها التحتية مدة عشر سنين متوالية ، أولها يوم الخميس سادس رمضان سنة سبع وستين ، على بيروت وأعمالها المضافة اليها ، الجارى عادتهم فى التصرف فيها فى أيام الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، وأيام ولده الملك المعظم عيسى ، وأيام الملك الناصر صلاح الدين

---

(١) تزوجت هذه الملكة سنة ١٢٧٢م (٦٧٠ هـ) رجلا انجليزيا يدعى هامو الغريب Hamo e:L'Estrange كان من اتباع الأمير الأنجليزى ادوارد (آدوارد الأول ملك انجلترا فيما بعد) على أن هذا الزوج لم يلبث أن مات فى العام التالى ، ويبدو أنه كان لايثق فى تواني هيو الثالث ملك قبرص ، فاوصى قبيل وفاته بوضع زوجته ومملكة بيروت تحت حماية السلطان بيبرس ، ولما علم هيو الثالث بذلك أقدم على محاولة جريئة وهى خطف الملكة ازابيلا كى يزوجها فى قبرص من الشخص الذى يختاره لها ، ولكن السلطان بيبرس احتج عل هذا العمل وهدد بضرورة تنفيذ وصية هامو واعادة الملكة ازابيلا إلى بيروت فى الحال واضطر الملك هيو أن يعيد ازابيلا إلى بيروت حيث اتخذت لنفسها حرسا من المماليك . وعاشت هذه الملكة بعد وفاة بيبرس وتزوجت مرتين ثم ماتت سنة ١٢٧٢م تاركة حكم بيروت إلى آختها اشيفا ، واستمرت بيروت فى حكم اسرة ابلين إلى أن سقطت نهائيا فى يد السلطان الأشرف خليل ابن قلاوون عقب سقوط عكا ١٢٩١ م .

يوسف بن العزيز ، والقاعدة المستقرة فى زمنهم إلى آخر الأيام الظاهرية بمقتضى الهدة الظاهرية ، وذلك مدينة بيروت وأماكنها المضافة إليها : من حد جبيل شمالا ، إلى حد صيدا جنوبا وهى المواضع الآتى ذكرها : جونية بحدودها ، والعذب بحدودها ، والعصفورية بحدودها ، والرواوق بحدودها ، وسن الفيل بحدودها ، والريح والشويف بحدودها ، وأنطلياس بحدودها ، والجديدة بحدودها ، وحسوس بحدودها ،والبشرية بحدودها ، والدكوانة وبرج كراجار بحدودها ، وقوينة بحدودها ، والنصرانية بحدودها ، وخلدا بحدودها ، والناعمة بحدودها ، ورأس الفقيه ، والوطاء المعروف بمدينة بيروت وجميع ما فى هذه الأماكن من الرعايا والتجار ، ومن سائر أصناف الناس أجمعين ، والصادرين منها ، والواردين اليها ، من جميع أجناس الناس والمترددين إلى بلاد السلطان بيبرس وهى :

ء الحميرة وأعمالها وقلاعها وبلادها وكل ما هو مختص بها، والمملكة الأنطاكية وقلاعها وبلادها، وجبلة واللاذقية وقلاعها وبلادها ، وحمص المحروسة وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها ، ومملكة حصن عكا وما هو منسوب اليه ، والمملكة الحموية وقلاعها وبلادها وماهو مختص بها، والمملكة الرحبية وما هو مختص بها من قلاعها وبلادها ، والمملكة البعليكيه وما هو مختص بها من قلاعها وبلادها ، والمملكة الدمشقية وما هو مختص بها من قلاعها وبلادها ورعاياها ، والمملكة الشقيفية وما يختص بهامن قلاعها وبلادها ورعاياها ، والمملكة القدسية وما يختص بها ، والمملكة الحلبية ومايختص بها ، والمملكة الكركية والشوبكية وما يختص بها من القلاع والبلاد والرعايا، والمملكة النابلسية ،

والمملكة الصرخدية ، ومملكة الديار المصرية جميعها بثغورها وحصونها وممالكها وبلادها وسواحلها وبرها ورعاياها وما يختص بها ، والساكنين فى جميع هذه الممالك المذكورة ، وما لم يذكر من ممالك السلطان وبلاده . وما سيفتحه الله تعالى على يده ويد نوابه وغلمانه، يكون داخلا فى هذه الهدنة المباركة ، ومنتظما فى جملة شروطها، ويكون جميع المترددين من هذه البلاد واليها آمنين مطمئنين، على نفوسهم وأموالهم وبضائعهم ، من الملكة فلانة وغلمانها ، وجميع من هو فى حكمها وطاعتها ، بحرا وبرا ، ليلا ونهارا ، ومن مراكبها وشوانيها، وكذلك رعية الملكة فلانة وغلمانها يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وبضائعهم من السلطان ومن جميع نوابه وغلمانه ومن هو تحت حكمة وطاعته : برا وبحرا ، ليلا ونهارا ، فى جبلة واللاذقية ، وجميع بلاد السلطان ومن مراكبه وشوانيه .

وعلى أن لا يجدد على أحد من التجار المترددين رسم لم تجريه عادة، بل يجرون على العوائد المستمرة ، والقواعد المستقرة من الجهتين ، وإن عدم لأحد من الجانبين مال أو أخذت أخيذة ، وصحت فى الجهة الأخرى ، ردت أن كانت موجودة ، أو قيمتها أن كانت مفقودة . وأن خفى أمرها كانت المدة للكشف أربعين يوما ، فإن وجدت ردت ، وإن لم توجد حلف والى تلك الولاية المدعى عليه ، وحلف ثلاثة نفر ممن يختارهم المدعى ، وبرئت جهته من تلك الدعوى ، فإن أبى المدعى عليه عن اليمين ، حلف الوالى المدعى وأخذ مايدعيه . وأن قتل أحد من الجانبين خطأ كان أو عمدا ، كان على القاتل فى جهته العوض عنه

نظيره ، فارس بفارس ، وراجل براجل ، وفلاح بفلاح . وأن هرب أحد من الجانبين إلى الجانب الآخر بمال لغيره، رد من الجهتين هو والمال ، ولا يعتذر بعذر .

وعلى أنه إن صدر فرنجى من بيروت إلى بلاد السلطان ، يكون داخلا فى الهدنة ، وأن عاد إلى غيرها لايكون داخلا فى هذه الهدنة .

وعلى أن الملكة فلانة لا تمكن أحدا من الفرنج على اختلافهم من قصد بلاد السلطان من جهة بيروت وبلادها ، وتمنع من ذلك وتدفع كل متطرق بسوء ، وتكون البلاد من الجهتين محفوظة من المتجرمين المفسدين .

وبذلك انعقدت الهدنة للسلطان ، وتقرر العمل بهذه الهدنة والالتزام بعهودها والوفاء بها إلى آخر مدتها من الجهتين ، لاينقصها مرور زمان ، ولايغير شروطها حين ولا أوان ، ولاتنقض بموت أحد الجانبين .

وعند انقضاء الهدنة تكون التجار أمنين من الجهتين مدة أربعين يوما ولايمنع أحد منهم من العود إلى مستقرة ، وبذلك شمل هذه الهدنة المباركة الخط الشريف حجة فيها ، والله الموفق فى تاريخ كذا [1].

وفى سنة ١٢٦٨م (٦٦٦هـ) أستولى بيبرس على مدينة يافا فى الجنوب ، ثم وجه ضربه حاسمة فى نفس السنة إلى أهم أمارة صليبية وهى انطاكية فى أقصى الشمال ، فيروى المؤرخون أنه هاجمها بثلاث فرق : أحداهما اتجهت إلى ميناء السويدية لقطع الصلة بين انطاكية والبحر خوفا من اساطيل العدو ، والثانية سدت الممرات بين قليقبة والشام لمنع

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ص ٣٩ - ٤٢ .

وصول امدادات من أرمينيا الصغرى ، والثالثة وهى القوة الرئيسية بقيادة بيبرس هاجمت المدينة نفسها واستولت عليها سنة ١٢٦٨م . ويفهم من كلام النويرى أن بيبرس استخدم الحيلة قبل التوجه بجيوشه إلى امارة انطاكية اذ تظاهر بأنه يريد مدينة طرابلس وحاصرها فعلا ، فهرع صاحب انطاكية بوهمند السادس بأسطوله لنجدتها ، وعندئذ ترك بيبرس خيامه ومتاعه عند طرابلس متظاهرا بالخوف والهزيمة واتجه من فوره إلى انطاكية واحتلها بالطريقة التى ذكرناها، بينما كان أهل طرابلس يلهون ويقولون « الظاهر بيبرس خاف منا [1] »، ويفهم من هذه النصوص أن بيبرس لم يحاول استخدام اسطوله عند الهجوم على انطاكية بل اعتمد فى ذلك على قوته البرية فقط، بدليل أنه عمد إلى استبعاد أسطول انطاكية من المعركة أولا ، ثم وضع فرقة عسكرية بين المدينة والبحر لتمنع عنها أى مدد من هذه الناحية ، وبذلك تم له احتلال المدينة [2]

وكيفما كان الأمر فإن سقوط امارة انطاكية كان فى الواقع كارثة كبرى على القوى الصليبية لأنها كانت بحكم موقعها الجغرافى سندا قويا للدولة الصليبية منذ أوائل الحروب الصليبية وتشير المراجع إلى الرسالة التى كتبها بيبرس إلى أميرها بوهمند السادس الذى كان مقيما وقتئذ فى امارته الثانية طرابلس فى جنوب انطاكية . وكانت هذه الرسالة مليئة بعبارات السخرية والتهكم ، وليس الذى يعنينا هنا هو السخرية أو التهكم وانما استنتاج ما وصلت إليه أحوال الصليبيين من ضعف حتى استطاع

(١) النويرى : كتاب الإلمام فيما جرت به الاحكام المقضية فى وقعة الإسكندرية ورقة ١٦٩ .

(٢) غنم بيبرس من انطاكية غنائم كثيرة حتى قيل أن النقود قسمت بين الجنود بالطاسات ، كما بلغ من كثرة الاسرى أن لم يبق غلام إلا وله غلام وبيع الصغير باثنى عشر درهما ، والجارية بخمسة دراهم ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ١٤٧ .

بيبرس أن يوجه أمثال تلك العبارت إلى صاحب أكبر أمارة صليبية فى الشام فى ذلك الوقت .

ثم أخذ بيبرس بعد ذلك فى مهاجمة امارة طرابلس سنة ١٣٧٠ (٦٦٩ هـ) فاستولى على المنافذ المؤدية إلى المدينة المحيطة بها ومن أهمها حصن الأكراد Crac de Chevallier وحصن عكار ، فأصبح فى مقدوره بذلك حصار مدينة طرابلس نفسها ، ولكن الأنباء الواردة بوصول الحملة الصليبية الثامنة من فرنسا بقيادة لويس التاسع ، أنقذت طرابلس من هذا المصير ذلك لأن السلطان بيبرس عاد أدراجه مسرعا إلى مصر ، اذ كان يخشى أن يعيد ملك فرنسا قصة المنصورة مرة أخرى، ولذا أهتم بتتبع أخبار تلك الحملة ، وأعلن حالة التعبئة والاستعداد فى الموانى والثغور المصرية .

ويبد وأن ملك فرنسا كان يريد فعلا أن يكن اتجاه هذه الحملة الصليبية نحو المعاقل الإسلامية فى الشرق العربى، لولا أن أخاه شارل دى انجو الذى كان ملكا على جزير ة صقلية ، أراد استخدام تلك الحملة فى تدعيم ملكه ، وذلك بالإستيلاء على مملكة تونس التى كانت تحت حكم الحفصيين فى ذلك الوقت ، والمراجع التونسية ترجع أسباب تلك الحملة إلى عامل الانتقام الشخصى ، فيقول أبو القاسم الرعينى القيروانى العروف بابن أبى دينار : « وسبب نزول الفرنسيس تونس قيل أنه ذكر اسمه يوما بحضرة الخليفة المستنصر بالله الحفصى ، فهضم من جانبه ، وقال هو الذى أسره هؤلاء وأطلقوه (يشر إلى المماليك) ، فبلغت هذه المقاله الفرنسيس (أى لويس التاسع) فحقد لها وعزم على غزو

تونس [1]. والواقع إن هذه الرواية - إن صحت - لا تعدو أن تكون سببا مباشرا فقط ، أما السبب الحقيقى فيرجع إلى أهمية موقع تونس بالنسبة لصقلية التى كان يحكمها شارل أخو الملك لويس كما هو معروف ، ويكفى أن نتبه الأذهان فى هذا الصدد إلى أن غزو المسلمين لصقلية قد تم من تونس فى عهد الأغالبة وعلى يد قاضى القيروان أسد بن الفرات سنة ٢١٢هـ (٨٢٧ هـ). وكل هذا يفسر مدى خطورة موقع تونس بالنسبة لصقلية ولهذا نجح شارل فى اقناع اخيه لويس تلك بتحويل الحملة إلى تونس .

ولم تكد مراكب الفرنسيين تصل إلى الشواطىء التونسية حتى أصيب الملك لويس التاسع بحمى شديدة مات على أثرها ، وتولى أخوه شارل قيادة الحملة ، فأخذ يسيرها وفق اغراضه حتى أزال عنها صفتها الصليبية ، وانتهى أمر هذه الحملة باجراء مفاوضات مع الخليفة المستنصر الحفصى الذى تعهد بدفع مبلغ من المال مقابل انسحاب الفرنسيين ، وهكذا عادت الحملة تجر أذيال الخيبة بتلك النتيجة الضعيفة التى أغضبت معظم الذين أشتركوا فيها [2] .

أما السلطان بيبرس و فإنه بعد أن اطمأن على نتائج تلك الحملة

---

(١) المرجع ١٢٩) .

(٢) يقول فى ذلك أحد الشعراء التونسيين :

يافرنسيس هذه اخت مصر فتهيا لما اليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبر وطواشيك منكر ونكير

والمقصود بالطواشى هنا صبيح المعظمى - نسبة إلى المعظم توراشاه - الذى تكفل بالملك لويس التاسع فى دار ابن لقمان بمدينة المنصورة ، راجع : (جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر ص ٦٠) .

الصليبية ،غادر مصر وعاد إلى مقاتلة الصليبيين في طرابلس من جديد سنة ١٢٧١م و فأرسل إليه أميرها بوهند السادس بطلب الصلح والمسالمة ، هذا فى الوقت الذى وصلت فيه حملة صليبية آنجليزية بقيادة الأمير ادوارد إلى عكا ، فاضطر السلطان بيبرس أن يجيب صاحب طرابلس إلى طلبه ويعقد معه صلحا لمدة عشر سنوات[1] . ومن الطريف ما يحكى فى هذا الصدد من أنه فى أثناء المفاوضات التى دارت بين رسل بيبرس وبوهند السادس، كان بيبرس نفسه مندسا بين أعضاء الوفد الذى يمثل بلاده، ومتنكرا فى زى خادم كى تتاح له حرية التنقل بين حصون طرابلس ومعرفة مواضع القوة والضعف فيها تمهيدا لفتحها فيما بعد .

هذه الجرأة التى اتصف بها بيبرس جعلته يقوم بمحاولة أخرى جريئة قبيل هذا الوقت بقليل حينما ارسل اسطولا لغزو جزيرة قبرص سنة ١٢٧٠ م وكان يحكم هذه الجزيرة الملك هيو الثالث لوزجنان الذى اشتهر باطماعه الصليبية فى الشام ، وبعداوته الشديدة لدولة المماليك . غير أن معظم هذا الأسطول تحطم للأسف عند شاطىء الجزيرة على أثر عاصفة شديدة هبت عليه .

وعلى الرغم من أن ملك قبرص حاول أن يجعل من فشل هذه الحملة البحرية نصرا صليبيا كبيرا ، إلا أنه يبدو بوضوح أن هذه الهزيمة لم تؤثر فى قوة بيبرس تجاه الصليبيين كما أنها لم ترفع من روح الصليبيين المعنوية فى الشام

---

(١) هذا الأمير ادوارد هو ادوارد الأول ملك انجلترا فيما بعد، وكان قد أتى إلى الشام على رأس قوة صغيرة من ألف محارب على أمل التعاون مع خان مغول فارس أبغا بن هولاكو على غزو مصر والشام ، ولكن هذا المشروع لم يتحقق نتيجة لانشغال أبغا بمحاربة مغول التركستان ، ولم يلبث ادوارد نفسه أن طعنه احد الحشيشية بخنجرة ولكن الطعنة لم تكن قاتلة و فاضطر إلى العودة إلى بلاده بعد أن عقد هدنة مع بيبرس مدتها عشر سنوات .

بدليل أنهم أصروا على مفاوضة بيبرس ومصالحته، واخيرا تم الصلح بين بيبرس والأمارات الصليبية بوجه عام ١٢٧١م، وكانت شروط الصلح تدل على أن كلا الطرفين كان فى حاجة إلى هدنة ، اذ اشترط كل منها على أن موت أحد الطرفين المتعاقدين ينقض ما ابرم من صلح بينهما ، واستمر الوضع على هذا الحال إلى وفاة بيبرس سنة ١٢٧٧م .

ثانيا : أرمينية الصغرى :

سميت بأرمنية الصغرى للتميز بينها وبين أرمينية القديمة ، وكانت أرمينية قديما تقع فى المنطقة الجبلية الممتدة جنوب القوقاز والبحر الأسود أى بين بلاد فارس والعراق شرقا وبلاد الروم غربا . وقد أدر عليها هذا الموقع بأرباح طائلة نتيجة لمرور طريق التجارة بين الشرق والغرب بأراضيها ، غير أن هذا الطريق لم يلبث أن تحول نحو الجنوب فى القرن العاشر الميلادى وصار يمر بحلب وانطاكية فى شمال الشام نظرا لصعوبة الطريق القديم الذى كان يمر بجبال أرميتيا إلى البحر الأسود .

ولاشك أن هذا التحول الجديد قد أفقد أرمينية أهميتها الإقتصادية فأخذت تضعف تدريجيا إل أن أستولت عليها الدولة البيزنطية فى القرن الحادى عشر الميلادى .

غير أن الأرمن وهم عنصر أقتصادى مكافح لم يستسلموا لهذا الوضع ، بل غادروا بلادهم وانتقلوا جنوبا مع انتقال الطرق التجارية من ناحية ، وتحت ضغط هجرات السلاجقة والمغول من ناحية أخرى ، واستقروا فى جنوب الأناضول وقليقية أى فى المنطقة الممتدة من الرها

شرقا إلى أطنة غربا ، وهناك فى حنوب آسيا الصغرى اسسوا مملكة أرمينية الصغرى المعروفة زمن الحروب الصليبية والمماليـك، واتخذوا مـدينـة سيس عاصمة لهـم .

ولقد لعبت هذه المملكة المسيحية دورا خطيرا ضد دولة المماليك فى مصر والشام ، اذ أنها لم تكتف بمساعدة الأمارات الصليبية فى الشام ، بل تحالفت مع مغول فارس وأخذت تحرض هولاكو وابنه أبغا أوباقا على غزو الشام ومصر ، وهذا إلى جانب الحصار الاقتصادى الذى فرضته على دولة المماليك بمنع تصدير الخشب والحديـد مـن آسـيا الصـغرى إلـى مصـر .

واضطر السلطان بيبرس أن يتبع مع مملكة ارمينية الصغرى نفس سياسة العنف والقسوة التى اتبعها مع الأمارات الصليبية فى الشام، فأرسل إليها سنة ١٢٦٦م حملة تأديبية بقيادة الأمير قلاوون ، أغارت على مدنها الرئيسية مثل سيس وأطنه وطرسوس والمصيصة ، وعاثت فيها فسادا وتخريبا مدة عشرين يوما ثم عادت بغنائم كثيرة ، وعدد كبير من الأسرى من بينهم ابن هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى[1]، واضطر الملك هيثوم لكى يطلق سراح ولده أن يتنازل للمماليك عن عدة مواقع استراتيجية هامه تتحكم فى طرق المواصلات التى تربط أرمينية بحلفائها المغول فى الجزيرة شمالى العراق من ناحية ، وبالصليبيين فى انطاكية من ناحية أخر ى. كذلك تعهد هذا الملك بدفع جزية سنوية لسلطان مصر

---

(١) يقول احد الشعراء فى تحطيم مدينة سيس قاعدة ارمينيا الصغرى :

يامالك الأرض الذى عزمه   كم عالم للكفر منه خرب

قلبت سيس فوقها تحتها   والناس قالوا سيس لاتنقلب

(تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٣١) .

والشام فى مقابل مسالمته ، وظلت أرمنيا الصغرى بعد ذلك محدودة القوى ضعيفة التأثير فى مجرى أحداث الشرق العربى إلى أن قامت بحركة عصيان أخرى فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون (ق ١٤م) انتهت بخضوعها واعترافها بسيادة سلطان مصر والشام [١] .

ثالثا : مملكة النوبة :

كانت مملكة مسيحية فى أعالى النيل تدين بالطاعة لسلطان مصر ، تؤدى له الجزية السنوية المعروفة بالبقط [٢] منذ الاتفاقية التى عقدها معها القائد العربى عبد الله بن أبى سرح سنة ٦٥٠م ، غير أن هذه التبعية كانت اسمية فى غالب الأحيان ، اذ أن هذه الدولة كانت كثيرا ما تجنح إلى العصيان وعدم دفع الجزية ، وتغير على الأراضى المصرية الجنوبية . وقد اهتمت السياسة المصرية بوضع هذه المملكة المسيحية أبان الحروب الصليبية بصفة خاصة ، عندما صارت قوافل الحجاج والتجار تتجه جنوبا عن طريق النيل إلى مدينة قوص ، ومنها إلى عيذاب وجدة فى البحر الأحمر بدلا من طريق السويس - العقبة فى سيناء الذى صار محفوفا بالمخاطر بسبب الحركات الصليبية على سواحل الشام وفلسطين وقيام الأمارات الصليبية [٣] .

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٥٥٢، سعيد عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ١١٤٨ . ويلاحظ أن أرمينيا فى الوقت الحاضر مقسمة إلى منطقتين : منطقة روسية باسم جمهورية ارمينيا الاشتراكية ، ومنطقة تركية من عدة ولايات أهمها ولاية أرضروم .

(٢) هذة الكلمة بقط اما مأخوذة من الكلمة المصرية القديمة باق Bak بمعنى عبد، أو من الكلمة اللاتينية Pactum† ومعناها عقد أواتفاق ، أوانها عربية الأصل بمعنى قطعة أو فرقة .

راجع (السيدة الكاشف : مصر فى فجر الإسلام ، ص ١٥) .

(٣) راجع : مصطفى مسعد ، الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى ص ١٤٢.

ويبدو أن صلاح الدين الأيوبى قد خشى من أن تكون هناك صلة بين غارات النوبيين على أسوان وبلاد الصعيد ، وبين غارت الصليبيين على سواحل بحر القلزم (الأحمر) حتى بلغت عيذاب وتوغلت إلى قوص لهذا أرسل صلاح الدين أخاه تورانشاه على رأس حملة تأديبية توغلت فى بلاد النوبة حتى دنقلة ثم استقر قسم منها فى قلعة ابريم (٢) لحماية قوافل الحجاج والتجارة فى هذه الأطراف المصرية الجنوبية .

وعند قيام دولة المماليك تكررت اعتداءات النوبيين على الأراضى المصرية ، وانتهز ملك النوبة المدعو داود فرصة أنشغال الظاهر بيبرس بحروبه ضد المغول والصليبيين ومملكة أرمينية الصغرى ، وهاجم ثغر أسوان سنة ١٢٧٢م . ويبدو أن داود قام بهذه الأعمال الاستفزازية مدفوعا بروح صليبية وكراهية دينية . بدليل أنه هاجم أيضا ميناء عيذاب لابقصد تهديد التجارة المملوكية فى البحر الأحمر فحسب بل لقطع طريق الحج فى هذه المنطقة .

وقد رد بيبرس على ذلك بارسال حملتين متتاليتين إلى بلاد النوبة فى سنتى ١٢٧٣م، ١٢٧٥م بقيادة الأميرين آقسنقر الفارقانى وعز الدين الأفرم، وشاركت البحرية النيلية فى هذه الحملات بنقل الجنود والالآت والأقوات حتى مدينة اسوان . وتمكن الأمير عز الدين الأفرم من اختراق الجنادل بمراكبه قرب الشلال الثانى ، والانتصار على الملك داود وأسره واقامة عمه شكنده الذى تعهد بدفع الجزية فى كل عام . هذا وكان السلطان بيبرس قد احتل مدينة سواكن المنفذ البحرى لمملكة النوبة على

---

(٢) أبريم بلدة قديمة على الضفة الشرقية للنيل فى منطقة النوبة المصرية التى عرفت فى العصر الرومانى باسم nubatai وفى المراجع القديمة باسم مريس .

البحر الأحمر سنة ١٢٦٥م مما أدى إلى تهديد المعاقل المسيحية فى بلاد النوبة فضلا عن أحكام السيطرة المصرية على البحر الأحمر وتجارته. وقد أنشأ السلطان بيبرس عقب هذه الانتصارات ديوانا خالصا للنوبة فى القاهرة تحت اشراف الوزير بهاء الدين بن حنا لمراقبة وصول الجزية من النوبة بانتظام .

يلاحظ أن الحملات المستمرة على بلاد النوبة قد شجعت القبائل العربية على مصاحبتها بغية الأستقرار إلى جوار النوبيين والاختلاط بهم وخاصة فى منطقة شمال النوبة أو ارض المريس . ونذكر على سبيل المثال عرب ربيعة الذين تزوجوا بنات رؤساء النوبيين فأصبحت لهم مصالح مادية لانتفاعهم بنظام الوراثة المعروف عند النوبيين وهو توريث ابن البنت أو ابن الأخت .(١)

وهكذا أخذت هذه المملكة المسيحية تصطبغ بالصبغة العربية الإسلامية وتفقد طابعها المسيحي تدريجيا بحيث لم يكد يمر على وفاة بيبرس نصف قرن تقريبا (ق ١٤م) حتى كان النوبيون قد اعتنقوا الإسلام ، وانتقل الملك فيهم إلى بنى كنز (١) ، فسقطت عنهم الجزية لأن بنى كنز عرب مسلمون من ربيعة وهم الكنوز الحاليون .

---

(١) مصطفى محمد مسعد : الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى ، ص ١٣٤ ، تاريخ ابن الفرات ج ٧ ص ٥١ ..

(٢) أصل هذه التسمية ترجع إلى أيام الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله حينما استعان بأمير ربيعة أبى المكارم هبه الله فى القبض على أبى ركوة الذى فر بعد هزيمته إلى جنوب مصر ، ونجح أبو المكارم فى القبض عليه سنة ١٠٠٦م فكافأة الخليفة الحاكم بلقب كنز الدولة وتوارث أبناؤه هذا اللقب وعرف بنو ربيعة ببنى كنز ، أنظر (مصطفى مسعد : نفس المرجع ص ١٣٥) .

٨ - حروب بيبرس ضد المغول :

كانت المشكلة الكبرى التى واجهت السلطان بيبرس منذ بداية حكمه هى مواجهة مغول فارس ، ذلك لأن خطرهم كان واضحا تماما خصوصا بعد واقعة عين جالوت التى تعد بداية لانهاية لعلاقات دولة ايلخانات فارس بالمماليك .ولعل بيبرس لم ينس الكلمات التى تفوه كتبغا نوين قائد المغول فى عين جالوت قبيل مصرعه على يد قطز وهى : « أنى أن هلكت على يدك ، فانى أعلم أن الله لا أنت هو الذى أراد قتلى ، فلا تنخدع بهذا النصر المؤقت، لإنه لايكاد يصل إلى هولاكوخان خبر موتى ، حتى يغلى غضبه كالبحر المضطرب فتطأ أرجل الخيل المغولية أرض البلاد ابتداء من أذربيجان إلى أبواب مصر » .(١)

فمثل هذه الكلمات الجريئة القوية تصور مدى الخطر الذى كان ينتظر دولة المماليك من هولاكو بعد أن هزم جيشة وقتل قائده ، وصهره كتبغا . ثم ازداد هذا الموقف خطورة عندما ارتبط الخطر المغولى بخطر الصليبيين الذين حاولوا استمالة المغول ومحالفتهم طمعا فى نشر المسيحية بينهم والإستعانة بهم فى غزو مصر والشام .

ولمجابهة هذا الموقف تحالف بيبرس مع مغول القفجاق وتزوج ابنة عيمهم بركة خان الذى اعتنق الإسلام وصار حربا على بنى جنسه مغول فارس . ويظهر ذلك بوضوح فى الرسالة التى بعث بها إلى السلطان بيبرس سنة ١٢٦٣م يقول فيها : « فليعلم السلطان اننى حاربت هولاكوالذى من لحمى ودمى لاعلاء كلمة الله العليا تعصبا لدين

---

(١) راجع فؤاد عبد المعطى الصياد : مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذانى ، ص٥٥ .

الإسلام »[1]

على أن بيبرس لم يعتمد فقط على هذا التحالف ، بل أخذ يحصن أطراف دولته المواجهة لدولة مغول فارس على نهر الفرات، لاسيما قلعة البيرة التى زودها بمعدات تكفيها لمقاومة الحصار مدة عشر سنوات كى تظل شوكة فى جنب المغول فى هذه الجبهة الشرقية . كذلك عمل على افساد الطرق والوديان المؤدية إلى الشام كى لايجد المغول أثناء زحفهم ما يحتاجون إليه من أقوات أو أعشاب لدوابهم .

وفى عام سنة ١٢٦٥م (٦٦٣هـ) مات هولاكوخان ، غير أن وفاة الأشخاص فى دولة فتية مثل الدولة المغولية ، لم يؤثر مطلقا فى عزم التتار على تحقيق ما بدأه هولاكو من التقدم نحو غزو دولة المماليك فى مصر والشام ، بل أن الخان الجديد لدولة ابلخانات فارس واسمه أباقا أو أبغا (١٢٦٥ - ١٢٨٢- ٦٦٣ - ٦٨٠ هـ) زاد على سياسة أبيه هولاكو بأن اهتم بمسألة الحلف مع الصليبيين ، فكان يعطف على المسيحين ويتبادل السفارات والهدايا مع البابوات وملوك أوربا . وكان الهدف المشترك من تلك المفاوضات هو تنظيم حملة مشتركة للقضاء على دولة المماليك والإستيلاد على بيت المقدس . وقد ظهر أثر ذلك التحالف واضحا عندما انتهز أباقا خان فرصة انشغال بيبرس بمحاربة الصليبيين للاغارة على الحدود الإسلامية ، مثال ذلك ما حدث سنة ١٢٦٦م حينما أغارت الجيوش المغولية على مدينة الرحبة على الحدود الفراتية فى الوقت الذى كانت فيه جيوش بيبرس تهاجم مدينة صفد الصليبية .

(١) العينى : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان (الجزء الخاص بحوادث ٦٥٦=٦٧٣ هـ) ص ٤٩٤، سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، ص ٤٠ .

ولكن على الرغم من هذا الجو العدائى،فإنه يبدو وأن باقا خان حاول أن يجرى الصلح مع بيبرس على شروط تلائم المغول أو بمعنى آخر حاول أن يستخدم الأساليب الدبلوماسية فى بسط سيطرته على دولة المماليك فأرسل إلى الظاهر بيبرس رسالة سنة ١٢٦٨ م يعرض عليه الصلح ويطلب منه الخضوع والرضوخ ، مثل قوله « فأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت منا ، فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحا » غير أن هذه اللهجة المغولية الآمرة فى طلب المصلح لم تعجب بيبرس فرد على الرسول المغولى بقوله « اعلم أنى وراءه بالمطالبة ، ولاازال انتزع من يده جميع البلاد التى استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض ».

وفى سنة ١٢٧٢م توجه بيبرس لملاقاة التتر علي أرضهم ، فحمل معه عدة مراكب مفصلة أجزاء علي ظهور الجمال ، وأنزلها فى نهر الفرات لتعبر بها جيوشة ، واستطاع بيبرس وجنوده عبور النهر والانتصار على الجيوش المغولية ومطاردة فلولها فى الأراضى العراقية سنة ١٢٧٣م. ويبدو أن نجاح بيبرس فى هذه الحملة مكنه من جذب عدد من كبار رجال الدولة المغولية إلى جانبه ، اذ يروى مؤرخ المغول رشيد الدين أن أباقا خان نكب أسرة الجوينيين الدين كانوا يحكمون العراق فى عهده بتهمة الاتصال بملك مصر الظاهر بيبرس ، والإتفاق معه على تسليم العراق له ، ومن بين هولاء المؤرخ عطا ملك الجوينيينى حاكم العراق وأخوه الخراجة شمس الدين محمد وزيره ، وأبناؤهما . وكلهم أهل فضل وأدب ، وأرباب جود وكرم ، وكانت مجالسهم محط رجال الأدباء والكتاب

والشعراء ومناط آمالهم ، بذلوا كل ما فى وسعهم لتعمير ما خربه المغول ولم يتأخروا عن تنفيذ كل ما هو نافع وصالح ."[1]

هذه الحادثة التى تذكرنا بنكبة البرامكة أيام هارون الرشيد ، تدل بوضوح على أن بيبرس استطاع أن ينتصر على أعدائه فى هذه الجبهة ، وأن يؤمن بذلك حدوده الشرقية من الخطر المغولى .

على أن الصراع بين دولتى المغول والمماليك لم يقف عند هذا الحد اذ سرعان ما انتقل إلى ميدان آخر وهو بلاد آسيا الصغرى فى الشمال والسبب فى هذا التحول هو أن بيبرس بعد أن أمن حدوده الشرقية أراد تأمين حدوده الشمالية المتاخمة لبلاد السلاجقة الروم فى آسيا الصغرى وكانت هذه البلاد تابعة للمغول منذ أن انحاز ملوكها إلى هولاكو وكانت مقاليد الحكم فى يد الوزير معين الدين سليمان البرواناه ، والبرواناه ، لفظ فارسى معناه الحاجب .

وكان هذا البراوناه يعمل إلى جانب أصحاب السيادة فى البلاد وهم المغول ، فلما تغلب بيبرس على المغول ، مال الببرواناه إلى جانب المنتصر وأخذ يراسل بيبرس معلنا أنضمامه إليه ، فتقدم بيبرس بجيوشة إلى آسيا الصغرى ، وانتصر على الجيوش المغولية انتصارا ساحقا عند بلدة أبلستين أو أبلستان [2] سنة ١٢٧٧م (٦٧٥ هـ) ، إذ فقد من المغول فى تلك المعركة ما يقرب من ٧٠٠٠ نفس . ثم دخل بيبرس مدينة قيصرية عاصمة سلاجقة الروم حيث نزل بدار السلطنة وجلس على عرش سلاجقة الروم وخطب له على المنابر واستقبله الأهالى استقبالا رائعا ، ثم

(١) فؤاد عبد المعطى الصياد : مؤرخ المغول رشيد الدين ، ص ٥٨ – ٥٩ .

(٢) تقع ابلستين فى شرق مدينة قيصرية أو قيساوية الروم .

عاد بيبرس إلى الشام .[1]

ولما علم أبا قاخان بيما حل بجيشه فى الاناضول ، سارع إلى ميدان المعركة في ابلستين ويقال أنه بكى عندما شاهد أشلاء القتلى من جنوده ، ثم صب جام غضبه على أهالى البلاد فقتل منهم عددا كبيرا لترحيبهم بسلطان مصر ، كما أمر بقتل البرواناه أيضا بعد أ ن قام نساء القتلى من المغول بثورة كبيرة مطالبين بدمه لأنه كان السبب فى هذه الكارثة .

ويأخذ بعض المؤرخين على بيبرس أنه لم يعد إلى بلاد سلاجقة الروم لحمايتها وطرد المغول منها بحكم أنها صارت تابعة لدولة المماليك رسميا ، ولكن ربما كان السبب فى ذلك أن بيبرس فى ذلك الوقت تولاه التعب أو المرض بدليل أنه مات فى نفس تلك السنة[2] بعد مقتل البرواناه بوقت قصير سنة ١٢٧٧م (٦٧٦هـ) و دفن بدمشق .

وهكذا تنتهى حياة السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البند قدارى الصالحى الذى تصفه المراجع بأنه كان طويل القامة ، أسمر اللون ، أزرق العينين ، جهورى الصوت ، شجاعا بطلا هماما ، عسوفا عجولا ، فى عينه أثر بياض بقدر خرم ابرة ، وكان هذا من أسباب عدم الإقبال على

---

(١) يقال فى هذا الصدد أن أو ل ما فتحه بيبرس قيسارية الشام وآخر ما فتحه قيسارية الروم(تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٨٤) هذا وقد أورد القلقشندى نص الرسالة التى من أنشاء القاضى محى الدين بن عبد الظاهر إلى الوزير بهاء الدين آين حنا يصف فيها فتح قيسارية الروم من أيدى التتار واستيلاء بيبرس على ملكها وجلوسه على تخت بنى سلجوق .
(صبح الأعشى جـ ١٤ ، ص ١٣٩ - ١٦٥) .

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٨٥ - ٨٧ حيث ترد روايات المؤرخين حول أسباب وفاته ويعتقد البعض أنه مات مسموما .

شرائه . ثم اشتراه الأمير ايدكين البند قدارى فبقى فى خدمته إلى أن أخذه منه الملك الصالح نجم الدين أيوب .

كذلك يؤثر عن السلطان بيبرس أنه كان خفيف الركاب يقضى طول أيامه راكبا على الهجن وخيول البريد دايرا على الممالك والقلاع حتى أنه كان يلعب الكرة (البولو) فى الجمعه يومين ، يوم بمصر ويوم بدمشق ، وفى ذلك يقول سيف الدولة المهمندار يمدحه :

.يوما بمصر ويوما بالحجازويو ما بالشام ويوما فى قرى حلب

ولاشك أن هذا السلطان العظيم استطاع بأعماله واصلاحاته الواسعة النطاق أن يحول دولة المماليك ، من دولة ناشئة إلى دولة قوية مدعمة الأركان ، وأن يمهد الطريق لخلفائه من بعده كى يتموا رسالته، ويصلوا إلى الهدف المنشود و هو القضاء على المغول والصليبيين .

لهذا بعد صيته ، واشتهرت سيرته دونا عن سائر السلاطين لدرجة أن أخبار، أمتزجت فيها حقائق التاريخ بخيال القصص ، ونذكر على سبيل المثال تلك الملاحم الشعبية المعروفة بالسيرة الظاهرية أو سيرة الظاهر بيبرس [1] التى تصور شخصية بيبرس وكأنها شخصية عصر أكثر مما هى شخصية إنسان، اذ تنعكس فيها صورة هذا الوضع الجديد أو هذه النقلة الجديدة التى تحولت فيها دولة المماليك فى مصر والشام إلى دولة قوية راسخة الأقدام .

---

(١) للظاهر بيبرس سيرتان أحدهما للقاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ، والأخرى لمحمد بن شداد ، وقد أورد ابن الفرات نماذج منها فى تاريخه . اجع (تاريخ ابن الفرات جـ ٧ص ٨٤ - ٨٨ نشر قسطنطين زريق) وتجدر الأشارة هنا إلى السيرة الظاهرية التى كتبها حديثا المرحوم بيرم التونسى .

أبناء الظاهر بيبرس

انتهت الحوادث التى تلت وفاة بيبرس انتهاء مملوكيا عاديا اذ أقيم فى السلطنة على التوالى أبنان له وهما الملك السعيد محمد المدعو بركة خان ثم الملك العادل سلامش .وفى خلال ذلك وقعت أحداث مختلفة أدت إلى عزلهما وتولية أقوى أمير مملوكى فى ذلك الوقت وهو الأمير سيف الدين قلاوون الصالحى الألفى سلطانا على مصر والشام .

كان الأبن الأول لبيبرس وهو الملك السعيد محمد فى سن تؤهله لأن يملأ منصب السلطنة اذ يبلغ من العمر ١٧ سنة . وتشيد المراجع المعاصرة بدماثة خلقه وحسن طباعه وعدم ميله إلى سفك الدماء . ولكن يبدو أن هذه الصفات كانت سببا فى عزلة لأنها لم تكن تلائم روح هذا العصر ، فالملك السعيد لم تكن له دراية بمؤامرات المماليك ودسائسهم ، مما اضطره إلى أن يحيط نفسه بحرس خاص من مماليكه و هو ما يعرف فى المصطلح الرسمى المملوكى باسم الخاصكية (حرس خاص). وبطبيعة الحال تحيز الملك السعيد لمماليكه فأغدق عليهم الأموال وأطلق أيديهم فى ادارة شئون الدولة . وقد أثار هذا العمل استياء كبار المماليك ولاسيما الأمراء الصالحية الذين كانوا يرون أنهم أحق بالملك منه ، فكتبوا اليه قائلين :

« أنك أفسدت الخواطر وتعرضت إلى أكابر الأمراء ، فاما أن ترجع عما أنت عليه، وإلا كان لنا ولك شأن آخر »[١] .

وانتهى هذا النزاع بخلع المماليك للملك السعيدبعد حكم دام سنتين ، وأجلسوا مكانه أخاه بدر الدين سلامش الذى كان طفلا فى السابعة من عمره .

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ القسم الثانى ص ٦٤٥ .

وتنبغي الإشارة هنا إلى أن بعض أمراء المماليك عرضوا على الأمير سيف الدين قلاوون أقوى شخصية مملوكية فى ذلك الوقت ، أن يتولى السلطنة بدلا من سلامش ، ولكن قلاوون رفض هذا العرض وقال :

« أنا لم أخلع الملك السعيد طمعا فى السلطنة ، ولكن حفظا للنظام وأنفة لجيوش الإسلام أن يتقدم عليها الأصاغر ، والأولى ألا يخرج الأمر من ذرية الملك الظاهر بيبرس »[1] .

وقد يبدو من عبارة الأمير قلاوون أنه حريص على وجوب تطبيق المبدأ الوراثى للعرش وذلك بأبقاء منصب السلطنة فى بيت بيبرس ، ولكن الحقيقة غير ذلك بالمرة ، فإن الأمير قلاوون أراد بهذه العبارة المعسولة أن يخفى مطامعه ومشاريعه حتى يمكن لنفسه أولا ، ولا أدل على ذلك من أن قلاوون نفسه هو الذى خلع الابن الثانى لبيبرس وهو سلامش بعد أن تخلص من مناوئيه وصفا له الجو ثم تسلطن من بعده عام ١٢٧٩م ، وفى ذلك يقول أبو المحاسن وخاف قلاوون من ثورة المماليك الظاهرية عليه لأنهم كانوا يوم ذاك هم معظم عسكر الديار المصرية . . . فلما مهد أمره تسلطن .

ومن الغريب أننا نلاحظ أن قلاوون بالرغم من عدم احترامه لمبدأ الوراثة إلا أنه وأبناءه من بعده قد نجحوا فى تطبيق المبدأ الوراثى مدة طويلة فقد ولى بعده ابنان له وهما الأشرف خليل والناصر محمد ثم تداول أبناء الناصر محمد وأحفاده عرش السلطنة المملوكية حتى نهاية دولة المماليك الأولى فى مصر .

ولكن ليس معنى هذا أن مبدأ التوريث قد لقى قبولا من أمراء

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٦٥٧ .

المماليك وانما الواقع هو أن قلاوون وأولاده من بعده قد استطاعوا أن يقاوموا جميع مؤامرات المماليك ، وأن يتغلبوا على محاولاتهم فى انتزاع السلطنة منهم .

ولما كان عصر الناصر محمد بن قلاوون هو أطول عهد عرف بين سلاطين المماليك ، فإن شخصيته قد توطدت وتأثلت فى الدولة وفى عقلية الناس، فكان من السهل على أبنائه من بعده أن يتداولوا السلطنة فيما بينهم طيلة القرن الرابع عشر الميلادى .

الفصل السابع

دولة بني قلاوون حتى نهاية دولة المماليك الأولى

السلطان المنصور سيف الدين قلاوون

(١٢٧٩-١٢٩٠م=٦٧٨-٦٨٩هـ)

واسمه بالكامل المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي الألفي، ويعتبر من أعظم سلاطين المماليك بعد الظاهر بيبرس ، كما أنه يشابهه من حيث الأصل، فهو رقيق من بلاد القفجاق ، جيء به إلى مصر منذ صغره وبيع للملك الصالح أيوب ولهذا لقب بالصالحي ، أما تسميته بالألفي فأشارة إلى حادثة شرائه بألف دينار وفي ذلك ما يدل على أن هؤلاء السلاطين لم يخجلوا أو يأنفوا من أصلهم الوضيع . وقد تدرج قلاوون في الرقي حتى بلغ مرتبة الأتابك أو نائب السلطنة في عهد بيبرس ثم في أيام ولديه السعيد وسلامش .

وفي بداية حكم السلطان قلاوون حدثت بعض الأحداث المعتادة كالتي تحدث دائما في أوائل عهود معظم سلاطين المماليك ، وهي معارضة الأمراء لسلطنته . وقد جرت العادة أن يتخذ أولئك الأمراء المعارضون من حادثة خلع ابن السلطان ذريعة للمعارضة والاحتجاج والدفاع عن مبدأ الوراثة وواجبات الولاء نحو السلطان المتوفى ونحو العهود والمواثيق التي قطعت له بصدد تولية ابنه من بعده . والواقع أن هذه الحركة التي يقوم بها بعض الأمراء كانت لاتخرج عن مجرد الرغبة في المعارضة

واستغلال الظروف لمصالحهم الشخصية ، فلو أن واحدا من هؤلاء الأمراء المعارضين تمكن من خلع قلاوون والوصول إلى السلطنة لما اخترم مبدأ الوراثة الشرعية ولما راعى حقوق الولاء لابن السلطان المتوفى فالمعارضة هنا مسألة شكلية لتغطية ما بنفوسهم من أطماع وطموح نحو العرش .

والذى حدث فعلا فى أوائل أيام السلطان قلاوون ، أن الأمير شمس الدين سنقر الأشقر نائب السلطان فى دمشق أعلن نفسه سلطانا على الشام بمجرد سماعه بسلطنة قلاوون وعزل سلامش وتلقب بالملك الكامل ، وانضم اليه عدد كبير من المماليك الظاهرية كما قام إلى جانبه سليل أيوبى وهو صاحب حماة ، كذلك شيوخ القبائل العربية المقيمة على حدود الشام والعراق .

ولقد استطاع قلاوون القضاء عل هذا الحلف فى واقعة الجسورة بالقرب من دمشق فى يوليو سنة ١٢٨٠م وفر سنقر إلى قلعة بالحدود الشامية تسمى صهيون بيتما استولى السلطان قلاوون على دمشق وعفا عن أهلها الذين كانوا قد انضموا إلى سنقر ونذكر من بينهم قاضى المدينة شمس الدين بن خلكان صاحب كتاب وفيات الأعيان وكان قد أفتى بصحة سلطنة سنقر [١] .

أخذ السلطان قلاوون بعد ذلك يسير على سياسة بيبرس نحو الخطرين الرئيسيين المحيطين بدولة المماليك وهما المغول والصليبيون .

وكان الخطر المغولى هو الخطر الأكبر ، فإنه مهما قيل عن الصليبيين وقوتهم فلا يجب أن ننسى أن الصليبيين قد تضاءلت قوتهم منذ أن تضاءلت الامدادات الواردة إليهم من أوربا .

---

(١) المقريزى : السلوك حـ ١ ص ٦٧٦ - ٦٨٧ .

ورأى قلاوون مهادنة الصليبيين مؤقتا وتركيز قواه ضد المغول فالفترة التي بين ١٢٨١ إلى ١٢٨٢ كانت فترة معاهدات مع القوى الصليبية الباقية فى الشام رهى :

(١) مملكة بيت المقدس الوهمية ومركزها عكا (وملكها فى ذلك الوقت شارل أنجو Anjou وتولى نائبه Odo مفاوضة السلطان فى الهدنة) .

(٢) هيئة الفرسان الاسبتارية ومركزها حصن المرقب جنوب اللاذقية .

(٣) هيئة الفرسان الدواية ومركزها فى طرسوس .

(٤) امارة طرابلس وبها الباقية للأمراء النورمان وأميرها فى ذلك الوقت بوهمند السابع .

وبمقتضى هذه المعاهدات تقررت الهدنة بين الفريقين لمدة عشر سنوات[1] .

وعلى الرغم من أن قلاوون كان هو الساعى بعقد تلك المهادنات فإن معظم شروطها كان فى صالحه وفى صالح الدولة المملوكية ومثال ذلك تعهد القوى الصليبية بعدم بناء أسوار وقلاع جديدة والسماح للسفن الإسلامية بالحرية التامة فى الموانى الصليبية . وهذا يدل على أن الصليبيين كانوا يأملون من وراء تلك المعاهدات المحافظة على كيانهم فقط .

حروب قلاوون مع ايلخانات فارس :

قلنا أن مغول فارس استمرت انظارهم متجهة نحو احتلال مصر والشام والإنتقام لهزيمة عين جالوت (لاتزال هذه القرية موجودة باسم جالود من قضاء نابلس ولايتجاوز عدد سكانها عن مائة وخمسين نفسا - النجوم جـ ٨ ص ٥٦ حاشية) .

---

(١) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون فى مصر ص ٢٢٢

ولقد انتهز ملكهم أباقا أو أبغا بن هولاكو ما حدث فى الدولة المملوكية من انقسام واضطراب بسبب ثورة نائب دمشق سنقر الأشقر ضد قلاوون ، فأخذ يعد العدة من جديد لغزو الأراضى الشامية والمصرية معتقدا بأن سنقر سوف يعمل على مساعدته وتأييده فى هذا الغزو . وكان سنقر قد راسل المغول ووعدهم بالمساعدة ضد سلطان مصر ولكنه عاد أخيرا وعدل عن موقفه حينما راسله اخوانه مماليك مصر قائلين :

«وهذا العدو قد دهمنا وما سببه إلا الخلف بيننا وما ينبغى هلاك الإسلام» .

وكانت النتيجة أن أنضم سنقر إلى قلاوون وعادت وحدة المماليك من جديد ، وهذه شيمتهم دائما أبان الأخطار والأزمات .

عبرت الجيوش المغولية نهر الفرات بقيادة منكوتمر بن هولاكو (أخو أباقا) واستولت على حلب ، وتقدم قلاوون بجيوشه حتى التقى بالمغول بالقرب من مدينة حمص عند قبر خالد ابن الوليد. وهناك دارت موقعة كبيرة سنة ١٢٨١ انتهت بهزيمة التتار وانسحابهم إلى نواحى الفرات ، واراد قلاوون أن يقضى عليهم قضاء مبرما فأرسل بطريق الحمام الزاجل إلى عماله وقواده عند الحدود الفراتية للوقوف فى وجه التتتر الهاربين ، كما أمر بأن تضرم النار بالأجمة والحشائش النى على الفرات فاحترق من المغول خلق كبير ، وعاد منكوتمر جريحا حزينا إلى بغداد حيث وبخه أخوه أباقا بقوله ، لم لامت أنت والجيش ولا أنهزمت[١] .

والواقع أن واقعة حمص هذه كان لها أثر كبير فى تاريخ العلاقات بين المغول والمماليك اذ نجم عنها هدنه طويلة الأمد وأيقن المغول أنه لاقبل

---

(١) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٦٩٠ .

لهم بالمماليك ولو إلى حين .

هذا وقد جاء هذا النصر فى وقت كانت فيه حركة الأتصال بين المغول والصليبيين لتكوين جبهة متحدة ضد مصر ، تسير سيرا حسنا ، فلما قضى قلاوون على الخطر المغولى فى وقعه حمص زالت معه قيمة ذلك الحلف الصليبى المغولى .

ثم حدث أن توفى أباقا خان سنة ١٢٨٢م ، أى فى العام التالى للهزيمة ، وخلفه على السلطنة المغولية أخوه تكودار الذى كان قد اعتنق الإسلام قبل سلطنته وسمى نفسه تكودار أحمد سلطان . ويستنتج من هذا أن المحاولات التى قام بها المسيحيون لتنصير المغول والتحالف معهم، كان يصاحبها أيضا حركة تبشيرية من جانب المسلمين لنشر الإسلام بين المغول .

على أن أنتشار الإسلام بين مغول فارس ولو بصفة مبدئية لم يكن معناه زوال ما بين الدولتين المغولية والمملوكية من عداء ومشاكل سياسية. كما أن وجود سلطان مسلم على العرش المغولى لم يحل دون الأستمرار فى السياسة العدائية نحو مصر على اعتبار أن هذه السياسة كانت تعد أساسا تقليديا للمحافظة على مصالح وأطماع دولة مغول فارس ، والرسائل العدائية التى أرسلها تكودار أحمد إلى السلطان قلاوون تدل على ذلك (القلقشندى جـ ٨ ص ٦٥ - ٦٨) .

على أن السلطان أحمد لم يستطيع القيام بأى نشاط عسكرى فى خارج مملكته بسبب الأضطرابات الداخلية التى عمت بلاده ، ولهذا كانت سياسته نحو مصر سياسة سلمية هادئة .

غير أن هذه السياسة السلمية التى سلكها السلطان أحمد مع المصريين والشاميين جعلت امراء المغول يتهمونه بالتهاون مع المسلمين بسبب إسلامه فثاروا وانتهى الأمر بقتله وتولية ابن أخيه المسمى أرغون بن أباقا سنة ١٢٨٤م . على أن أرغون لم يستطيع هو الأخر القيام بأى عمل خطير ضد مصر والشام طوال عهد قلاوون .

هذا من ناحية مغول فارس ، أما من ناحية مغول القفجاق أو القبيلة الذهبية ، فإن السلطان قلاوون حافظ على العلاقات والصلات الودية القديمة التى تربط بلاده بهذه الدولة المغولية الشمالية .

حروب قلاوون مع الصليبين :

بعد أن انتهى السلطان قلاوون من الخطر المغولى بانتصاره المعرف فى واقعة حمص، انقلب إلى حرب الصليبيين ، ولم يلتفت إلى المعاهدات والمهادنات التى ابرمها معهم ، بل شن هجوما فجائيا على مركز الفرسان الاسبتارية وهى قلعة المرقب جنوبى اللاذقية وذلك فى عام ١٢٨٥م . ولم يستطع الفرسان الأسبتارية مقاومة هذا الهجوم فسلموا حصنهم بعد حصار دام شهرا وانتقلت فلولهم إلى عكا وطرابلس .

وخافت الأمارات الصليبية الأخرى أن يكون مصيرها مماثلا فهرع بوهمند السابع صاحب امارة طرابلس إلى مهادنة قلاوون مقدما له بعض الحصون والأموال لترضيته ، وفعلت مثله أمارة صور ودولة ارمينيا الصغرى وكل هذا أن دل على شيء فانما يدل على مقدار ما شعرت به تلك الأمارات الصليبية من خطر تجاه قلاوون .

وفى عام ١٢٨٧م أى بعد سنتين من سقوط حصن المرقب،

أستولى قلاوون على مدينة اللاذقية التابعة لأمارة طرابلس . وقد برر قلاوون هجومه هذا بوفاة بوهمند السابع على اعتبار أن هذه الوفاة تعفيه من التمسك بشروط الهدنة . كما تنص على ذلك المعاهدة التى ابرمت بينهما .

ولم يقتصر قلاوون على ذلك بل حاصر مدينة طرابلس نفسها واستولى عليها سنة ١٢٨٩م (٦٨٨ هـ) فيروى المؤرخون أنه اطبق عليها بجيوشه ومجانيقه من جهة البر لدرجة أن الكثيرين من سكانها الصليبيين فروا من ناحية البحر على ظهر السفن إلى جزيرة قريبة من الساحل تعرف بجزيرة القديس نيقولا ، ولكن المماليك لحقوا بهم وقتلوهم عن آخرهم . ويذكر المؤرخ المعاصر أبو الفداء أنه ركب سفينة من طرابلس إلى هذه الجزيرة بعد أن فرغ الناس من نهبها ، ولكنه لم يستطيع البقاء فيها من رائحة جيف القتلى[١] .كذلك يلاحظ أن السلطان قلاوون أمر بهدم مدينة طرابلس وأقام مكانها عددا من الأبراج على طول الساحل حول الميناء ونقل مدينة طرابلس إلى سفح الجبل فى الداخل بعيدا عن الشاطىء حول قلعة صنجيل (سان جيل) خوفا من تهديد الأساطيل الصليبية[٢] هذا وفى الوقت نفسه رفع قلاوون من شأن طرابلس فجعلها نيابة سلطانية يحكمها نائب للسلطان بمرسوم سلطانى. وكان من أهم اختصاصاته شد البحر وشد الشوانى (أى الأشراف على البحر واعداد السفن) بموانى نيابته وهى طرابلس واللاذقية وانطرطوس وجبيل (جوبله)

ويبدو أن أمارة عكا قد أحست بيأس موقفها تجاه التوسع المصرى وخصوصا بعد أن فقدت الأمل فى مجىء حملة صليبية تساعدها على

---

(١) ابو الفداء : المختصر فى اخبار البشر حـ ٣ ص ٣٠ .

(٢) الأمير صالح بن يحى : تاريخ بيروت ص ٢٢ .

البقاء ، ولهذا رأت أن تلجأ إلى خطة دفاعية يائسة وجريئة فى نفس الوقت وهى أن تبدأ هى بالهجوم وتنقض ما بينها وبين قلاوون من هدنة، معتمدة فى ذلك على مناعة حصونها وكثرة ما لديها من مال وسلاح وقد بدأت فعلا فى تنفيذ خطتها بالأعتداء على تجار المسلمين وقوافلهم المارة من هناك. وقد رأى قلاوون من هذه الحركة مبررا كافيا لأعلان الحرب على عكا وشرع فى أعداد العدة للزحف عليها ولكنه مات قبل أن يحقق مشروعه فى أواخر عام ١٢٩٠م (٦٨٩هـ) وهو فى سن السبعين .

مما تقدم نرى أن سياسة قلاوون الخارجية كانت استمرارا لسياسة سلفه بيبرس نحو المغول والصليبيين وقد عرف قلاوون كيف يملأ هذا الفراغ الذى تركه بيبرس بكل جدارة واستحقاق .

سياسة قلاوون الداخلية :

بخصوص سياسة قلاوون الداخلية نرى أنه اهتم مثل سلفه بيبرس بتنظيم الجيش المملوكى فيستكثر من شراء صغار المماليك من أهالى البلاد الشمالية مثل أرمينيا والقوقاز ، وشبه جزيرة القرم والقفجاق ويقال إن عددهم بلغ ما يقرب من الأربعة آلاف مملوك .

وخصص قلاوون لهذه الفرقة المملوكية الجديدة ابراج القلعة ولذا سموا بالبرجية واعتنى قلاوون بتربيتهم واعدادهم اعدادا عسكريا اسلاميا كما اعتنى بملابسهم وهندامهم ويقال إنه أحدث تغييرا فى شكل بعض ملابسهم بحيث صار مختلفا عن شكل ملابس المماليك البحرية ، كذلك أحدث تغييرا فى طريقة حركاتهم العسكرية ولاسيما فى طريقة اللعب بالرمح فصار المماليك يقومون بحركات متنوعة فى هذا الفن

تختلف عن ذى قبل .

ويروى المقريزى أن قلاوون كان يخرج دائما فى ميعاد حضور الطعام للمماليك ويأمر بعرض هذا الطعام عليه ليختبره بنفسه فإذا رأى فيه عيبا اشتد على الاستادار وهو المشرف على القصور السلطانية كلها) وأنزل به العقاب الرادع .

وكان يقول : كل الملوك عملوا أشياء يذكرون بها ما بين مال وعقار وأنا عمرت أسوارا وعملت حصونا مانعة لى ولأولادى وللمسلمين وهم المماليك (خطط جـ ٢ ص ٢١٣ بولاق) .

ولقد بقيت هذه الفئة المملوكية الجديدة وحدة متماسكة حتى بعد وفاة قلاوون ، وكان لها أثر كبير فى توجيه سياسة الدولة حتى نهاية الدولة المملوكية الأولى حينما استطاع أولئك البرجية أنفسهم انتزاع السلطنة من أسرة قلاوون وتأسيس دولة مملوكية جديدة فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى على يد الظاهر برقوق .

الأعمال الأنشائية أو العمرانية التى قام بها الملك المنصور قلاوون عديدة ولاتزال بقاياها موجودة إلى يومنا هذا بشارع النحاسين (المعز لدين الله) بالقاهرة ومن أهم تلك المنشآت قبة قلاوون المدفون بها ومدرسته ثم البيمارستان المنصورى الذى يعرف الأن بمستشفى قلاوون. والأبنية الثلاث ملحقات فى بناء واحد ، والبيمارستان لفظ فارسى مركب من بيمار أى مريض وستان يعنى مكان أى المكان الذى يحل به المرضى على اختلاف أنواعهم ثم تطورت هذه الكلمة واقتصرت على المكان المعد لإقامة المجانين فقط ومنها الكلمة العامية المورستان (راجع كتاب تاريخ

البيماوستانا فى الإسلام لأحمد عيسى ص ٩٣) .

ولم يكن مستشفى قلاوون هو أول مستشفى بنى فى مصر فقد شاهدت مصر أنواعا من المارستانات أيام الطولونيين والأخشديين والفاطميين والأيوبيين ، فمن المعروف أن أحمد أبن طولون بنى مارستانا لمعالجة المرضى والحق به صيدلية لصرف الأدوية وقد سمى فيما بعد بالمارستان العتيق تمييزا له عن المارستانات الأخرى التى بنيت بعد ذلك.

ثم هناك المارستان المنسوب لكافور الأخشيدى ، وفى أيام الخلافة الفاطمية نسمع عن خزانة الأشربة وكانت كالعيادة الخارجية فى المستشفيات الحديثة وقد حولها صلاح الدين مارستانا للمرضى ويروى الرحالة بن جبير الأندلسى أنه رأى بمصر مارستانين لصلاح الدين أحدهما بالقاهرة والثانى بالأسكندرية .

هذا وينبغى أن نشير كذلك إلى المارستان النورى بدمشق الذى بناه السلطان نور الدين محمود زنكى الذى نشأ صلاح الدين فى بلاطه .

ويقال أن هذا المستشفى النورى نزل فيه قلاوون بقصد العلاج أثناء حروبه بالشام وأنه نذر بأن ينشىء مثله فى القاهرة إذا أبل من مرضه وكانت النتيجة أنه بنى مارستانه الذى تم فى ١٢٨٤م (٦٨٣ هـ).

والواقع أن مستشفى قلاوون بلغ القمة فى أنظمته الدقيقة كالتى نراها فى مستشفيات الوقت الحاضر فقد كان مقسما إلى عدة أقسام خصص كل قسم منها لنوع من الأمراض مثل الحميات والرمد وأمراض النساء والدوسنتاريا والممرورين (المجانين)وهكذا . وكانت به قاعة

للمحاضرات يحاضر فيها الأساتذة فى فنون الطب المعروفة فى ذلك الوقت . كما ألحق به معمل كيمائى معد بكافة الأنواع للأجهزة الطبية المعروفة فى ذلك الوقت . فهو لهذا يعتبر النواة الأولى لدراسة الطب فى مصر ، هذا ولم يكن لهذا المستشفى أى صبغة دينية أو طبقية خاصة فقد كانت أبوابه مفتوحة لجميع المذاهب والطبقات .

ولدينا وصف لهذا المارستان كتبه مؤرخ معاصر بل وموظف من موظفى ذلك المارستان ، وهو المؤرخ المعروف النويرى المتوفى سنة ١٣٣٢م ولهذا جاء وصفه على جانب كبير من الأهمية فضلا عن أنه يلقى ضوءا على بعض النواحى الإجتماعية فى ذلك العصر . (هذا الوصف جاء فى كتابه نهاية الأرب فى فنون الأدب وقد نقله الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زياده فى نهاية الجزء الأول من كتاب السلوك للمقريزى (جـ١ ص ٩٩٧) .

أما الناحية الأقتصادية فقد اهتم بها قلاوون اهتماما كبيرا اذ عمل على توسيع نطاق الأفق التجارى للدولة المملوكية ، وقد ساعده على ذلك موقع مصر الجغرافى بين الشرق والغرب مما جعلها تلعب دورا هاما فى الحركة الدولية التجارية ، وفى هذا المجال عقد قلاوون المحالفات مع الدول الأوربية مثل الأمبراطورية البيزنطية وفرنسا ومملكتى قشتالة وأراجون باسبانيا ومملكة صقلية وكانت تابعة لأراجون والجمهوريات الأيطاليه مثل جنوا وبيزا والبندقية . وكانت مصر تفرض على البضائع المارة بثغورها ضريبة تقدرعادة بخمس قيمتها وتعرف بضريبة الخمس .

كذلك استغل قلاوون فرصة أمن الملاحة فى البحر الأحمر بعد أن

زال عنها الخطر الصليبي وعمل جاهدا على اجتذاب التجار من ا... الأسيوية إلى مصر ، ويشهد على ذلك المنشور الرسمي الذى أذاعه السلطان قلاوون على التجار الوافدين على بلاده من الصين والهند والسند واليمن والعراق ، يؤكد لهم فيه الحماية والرعاية على أنفسهم وأموالهم عندما يقيمون فى بلاده وهو مرسوم جميل يذكرنا بالدعاية السياحية فى الوقت الحاضر ، اذ يقول فيه :

« ومن يؤثر الورود إلى بلادنا الفسيحة أرجاؤها ، الظليلة أفياؤها، فليعزم عزم من قدر الله له فى ذلك الخير والخيرة . ويحضر إلى بلاد لايحتاج ساكنها إلى مسيرة ولا ذخيرة ، لأنها فى الدنيا جنة عدن لمن قطن ، ومسلاة لمن اغترب عن الوطن ، ونزهة لايملها بصر . والمقيم بها فى ربيع دائم ، وخير ملازم ، ويكفيها أن من بعض أوصافها أنها شامة الله فى أرضه . . . فمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن والهند والصين والسند وغيرهم ، فليأخذ الأهبة فى الارتحال اليها، والقدوم عليها ، ليجد الفعال من المقال أكبر ، ويرى احسانا يتقابل فى الوفاء بهذه العهود بالأكثر ، ويحل منها فى بلدة طيبة، وفى سلامة فى النفس والمال، وسعادة تمول الآمال ، ولهم منا كل ما يؤثرونه . . . (القلقشندى: صبح الأعشى ج ١٣ص ٣٤٠ - ٣٤٢) .

السلطان الأشرف صلاح الدين خليل (١٢٩٠-١٢٩٢م) (٦٨٩- ٦٩٢هـ)

حاول قلاوون كما حاول بيبرس من قبل اقامة أحد أبنائه فى ولاية العهد أثناء حياته فاختار ابنه الأكبر علاء الدين ولقبه بالملك الصالح ١٢٨٠م وأنابه عنه فى حكم مصر أثناء غيابه فى حروب المغول

والصليبيين ، غير أن ولى العهد هذا توفى فى حياة أبيه سنة ١٢٨٨ ويقال أن أخاه الأشرف خليل وهو الأبن الثانى للسلطان قلاوون هو الذى قتله بأن دس له السم لكى تؤول اليه ولاية العهد من بعده. وكيفما كان الأمر فى صحة الرواية فالمهم هنا أن السلطان قلاوون كان يشك فى كفاية ابنه خليل هذا وأهليته للحكم ويقال أنه ظل ممتنعا عن التوقيع على التقليد الخاص بمبايعة خليل بولاية العهد إلى أن مات ويؤثر عنه أنه قال فى هذا الصدد : أناما أولى خليلا على المسلمين (١)

على أن خليل رغم ذلك تسلطن بعدوفاة أبيه فى أواخر سنة ١٢٩٠ وكان أول عمل قام به هو الأنتقام من رجال أبيه ومصادرة أموالهم وقد أبدى من صنوف والقسوة ما حقق مخاوف أبيه غير أنه إلى جانب عيوبه هذه كان رجلا شجاعا ومحاربا ممتازا وقد سارمنذ أول حكمه على سياسة أسلافه نحو الصليبيين ، تلك السياسة التقليدية التى كانت تهدف دائما إلى اخراج الصليبين من الشام . وكانت امارة عكا فى ذلك الوقت هى البقية الباقية من دولة الصليبيين بالشام .

حاصر السلطان خليل مدينة عكا فى ربيع عام ١٢٩١ وهنا تشيد المراجع المعاصرة بقوة استعداده وكفاية آلات الحصار التى اقامها حول أسوارها والتى بلغت على ما يقال نحو ٩٢ منجنيقا .

والواقع أن مدينة عكا كانت تمتاز بسمعتها الدفاعية المشرفة منذ حروب صلاح الدين وقد اهتم الصليبيون منذ أيامهم الأولى بتحصين أسوارها حتى صار يضرب بها المثل فى مناعة حصونها ، والسبب فى هذا

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٥٠ .

الأهتمام يرجع إلى أن عكا كانت تعد منفذا أساسيا من المنافذ الساحلية للدولة الصليبية لبيت المقدس .

ولما سقطت المدن الصليبية المختلفة فى أيدى المصريين أيام بيبرس وقلاوون صارت عكا ملجأ لجميع العناصر الصليبية التى هاجرت إليها من تلك المدن سواء أكانوا من الاسبتارية أو الداوية أو من أمارة طرابلس وغيرها .

وكان من المنتظر أن يكون ذلك التركيز للعناصر الصليبية سببا فى أن تزداد مدينة عكا قوة فوق قوة حصونها ولكن الحقيقة جاءت على عكس ذلك لأن هذه العناصر المختلفة عملت على أن تعيش كجاليات مستقلة بشئونها ولها حكوماتها الخاصة بها ، وعلى هذا الأساس صارت عكا فى أواخر ايامها أى فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى عبارة عن مجموعة من الدويلات الصغيرة المتناقضة المصالح بعضها يعمل باسم ملك فرنسا والبعض الأخر باسم ملك انجلترا والبعض الثالث باسم ملك بيت المقدس المقيم فى قبرص هذا إلى جانب التنافس التقليدى القديم بين الاسبتارية والداوية الذى استعرت نيرانه من جديد فى ميادين عكا. ولهذا كان من العسير جدا أن توجد بعكا قيادة موحدة لتعمل على توحيد وتوجيه هذه القوى المتعددة نحو هدف واحد .

لهذا لم تستفد عكا من مناعة حصونها أو من النجدات التى وصلت اليها من قبرص (وكانت قبرص فى ذلك الوقت يحكمها ملوك اسرة لوزجنان الذين سموا أنفسهم ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية) .

وفى يوم الجمعة ١٨ مايو سنة ١٢٩١م (٦٩٠هـ) دخل

المسلمون مدينة عكا عنوة بعد حصار دام ثلاثة وأربعين يوما ، فتحولت المقاومة إلى القلاع والإبراج وقد كان من المنتظر أن تستمر هذه القلاع فى المقاومة مدة طويلة لولا أن بعض أهالى المدينة هرعوا اليها للاحتماء بها فتسبب عن ذلك حدوث هرج فى تلك المناطق الدفاعية وصار من الصعب تنظيم مقاومة طويلة الأمد . هذا وفى الوقت نفسه شرع معظم الأهالى إلى ميناء المدينة وتكتلوا على ظهر السفن الراسية هناك بغية الهروب إلى قبرص أو إلى أى مكان آخر وقد تسبب عن ذلك الزحام الشديد غرق بعض المراكب وحدوث اضطراب فى جميع أنحاء الميناء التى كان يجب أن تظل مفتوحة لامداد المدينة بوسائل المقاومة من معدات وأغذية وخلافه .

ويلاحظ أن من بين هؤلاء الهاربين كان الملك هنرى الثانى ملك قبرص وبيت المقدس الذى أسرع إلى مملكته بجزيرة قبرص ولحق به عدد كبير من الزعماء وفرسان الاسبتارية .

على أنه رغم ذلك بقى بقلاع المدينة عدد كبير من المدافعين ولاسيما فرسان الداوية الذين ظلوا يقاومون الهجوم المصرى حتى هلكوا عن آخرهم بعدأن أحرقت المدينة ودمرت تماما سنة ١٢٩١م/ ٦٩٠ هـ.

وهكذا سقطت آخر المعاقل الصليبية فى الشرق وقد تلى ذلك سقوط المرافىء الصليبية القليلة الباقية مثل صور وصيدا وحيفا وبيروت وقد سلمت جميعها دون مقاومة ما عدا بيروت التى حاولت المقاومة فكان نصيبها التدمير وذبح سكانها [١].

وهكذا ينتهى الفصل الختامى من تاريخ الحروب الصليبية فى الشام وقد وصف المؤرخ الانجليزى ادوارد جبون Gibbonهذه الحالة بقوله :

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ص ٨ ص ٨ وما بعدها .

« وخيم السكون على امتداد الساحل الذى ظل زمنا طويلا ميدانا نسمع في صليل سيوف النضال » [1] .

وهنا ينبغى أن نشير فى هذا الصدد إلى أن مصر طوال هذه الحروب الصليبية قد قامت بدور ايجابى فعال كانت فيه محور المقاومة الإسلاميه حتى تم على يديها أخيرا سقوط عكا واخراج الصليبين من الشام .

ولاشك أن هذا الأنتصار الكبير قد أكسب السلطان خليل ودولة المماليك مجدا وعطفا من جميع أنحاء العالم الإسلامى .

وقد انتهز السلطان خليل هذا الحماس المتدفق الذى أوجده سقوط عكا بين صفوف المسلمين وحاول أن يستغله فى محاربة الخطر الثانى وهو الخطر المغولى ، فأمر الخليفة (واسمه وقتئذ الحاكم بأمر الله) أن يعلن الجهاد العام على المنابر ، ثم خرج السلطان بجيوشه نحو الحدود الفراتية فاستولى على قلعة الروم من أيدى التتار وغير اسمها بقلعة المسلمين ثم أعلن على الملأ عزمه على طرد المغول من العراق وارجاعهم إلى مواطنهم الأصليـة .

ويبدو أن سلطان مغول فارس أراد السخرية من هذه الدعايات التى يقوم بها الأشرف خليل ضد المغول فأرسل اليه خطابا يطلب منه تسليم مدينة حلب للاقامة بها كما كان يفعل ايلخانات فارس من قبل . فرد عليه السلطان خليل بخطاب مثله مطالبا هو الأخر بتسليم بغداد للاقامة بها أيضا ونقل الخلافة العباسية اليها .

على أن هذه المظاهرات الحربيـة التى قـامت بين دولتى المغـول

---

(1) Gibbon : Decline and Fall of the Romam Empire

والمماليك لم تنته إلى شيء ايجابي وذلك بسبب وفاة الأشرف خليل قتيلا على يد نائب سلطنته الأمير بدر الدين بيدرا وذلك أثناء خروجه للصيد عام ١٢٩٣م وهذا يذكرنا بمأساة قطز مع بيبرس حينما قتله هذا الأخير سنة ١٢٦٠م ولكن مع فارق واحد هو أن بيبرس اعتلى عرش مصر بعد ذلك أما بيدرا فإنه وقع فريسة في أيدى مماليك الأشرف الذين قتلوه شر قتلة [1].

---

(١) المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٧٧٨ .

السلطان الناصر محمد بن قلاوون
(٦٩٣-٧٤١هـ-١٢٩٣-١٣٤٠م)

ولى السلطنة بعد وفاة أخيه الأشرف خليل ، وكان لايزال طفلا فى التاسعة من عمره ، وقد لقب بالسلطان الناصر محمد .

ولايفهم من هذا التعيين أن أمراء المماليك أقاموا ابن استاذهم قلاوون احتراما لمبدأ الوراثة ، فالمماليك طوال تاريخهم لم يعترفوا بهذا المبدأ وأن كانوا فى بعض الأحيان قد تظاهروا باحترامه تغطية لمطامعهم ، وكل ما فى الأمر أن امراء المماليك بعد مقتل الأشرف خليل ، لم يجدوا من بينهم أميرا قويا يفرض شخصيته عليهم ويرتضون به سلطانا . ولهذا أقاموا هذا الطفل مؤقتا إلى أن استقر أمرهم على واحد منهم . وكانت نتيجةهذا العمل أن عزل السلطان الناصر محمد مرتين بواسطة هؤلاء الأمراء الطامعين .

سلطنة الناصرالأولى١٢٩٣-١٢٩٤م(٦٩٣-٦٩٤هـ) :

حكم فيها لمدة عام واحد ثم عزل ونفى إلى حصن الكرك جنوبى الأردن سنة ١٢٩٤م . وكان المغتصب هو نائب سلطنته واحد مماليك أبيه وهو الأمير حسام الدين لاجين المنصورى . وقد ظل السلطان لاجين يحكم مصر والشام مدة أربع سنوات قام خلالها بعدة أعمال اصلاحية أهمها تجديد عمارة مسجد ابن طولون ومئذنتة ورفع الكثير من المكوس (الضرائب) عن كاهل الشعب مما جعله محبوبا من الناس ، غير أن لاجين مع ذلك لم يستطع ارضاء جميع امراء المماليك خصوصا بعد إعادة مسح وتوزيع الاقطاعات والأراضى الزراعية لتقدير الخراج المستحق عليها وهو مما يعرف بالروك الحسامى ، كما انتشرت الوساطات والمحسوبيات على أيامه مما أثار حقد الأمراء عليه فقتلوه واستدعوا الناصر محمد ثانية سنة ١٢٩٨م .

سلطنة الناصر الثانية ١٢٩٨ - ١٣٠٨م (٦٩٨ - ٧٠٨هـ) :

استمرت سلطنة الناصر الثانية مدة عشر سنوات تقريبا ، ظل فيها نفوذ الأمراء قويا ، ولم يستطيع السلطان الشاب أن يسيطر على الموقف لصغر سنه ، فوقف حائرا امام المنافسة الشديدة التى قامت بين اثنين من كبار الأمراء وهما الأمير بيبرس الجاشنكير (١) والأمير سلار . وقد لقى السلطان منها الكثير من أنواع الأساءة والتضييق المالى ، فيروى على سبيل المثال أنه طلب من الأمير بيبرس الجاشنكير خروفا مشويا وحلوى باللوز فرفض أن يجيبه إلى طلبه ، واضطر الناصر آخر الأمر أن يعتزل العرش وأن يغادر البلاد إلى حصن الكرك بعيدا عن السياسة ومؤامرات المماليك. وتروى المصادر أن عددا كبيرا من الأهالى خرجوا لــــوداعه وهم يبكون على فراقــه .

وانتهز الجاشنكير فرصة رحيل السلطان وأغتصب العرش لنفسه ملقبا نفسه بالسلطان المظفر ركن الدين بيبرس ، أما الأمير سلار فإنه قبل بأن يظل نائبا للسلطنة واستمر الأمر على هذا الوضع سنة واحدة ثار بعدها الأهالى والأمراء ، وصاروا يهتفون فى الطريقان : « ياناصر يامنصور ، الله يخون من يخون ابن قلاوون » (٢). وانتهى الأمر بعودة الناصر محمد إلى عرشه فى احتفال شعبى كبير سنة ١٣٠٩م . و لم يتردد الناصر فى هذه المرة من الأنتقام من كل من بيبرس وسلار ، فأمات الأول جوعا حتى إنه أكل أحد أصابعه ، كما أعدم الثانى شنقا .

---

(١) الجا شنكير هو الأمير الذى يتذوق الطعام قبل السلطان خوفا من أن يدس له فيه السم .
(٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٧٣ .

سلطنة الناصر الثالثة ١٣٠٩ - ١٣٤٠م (٧٠٩ - ٧٤١ هـ) :

هذه الفترة الثالثة من حكم الناصر محمد تعتبر بحق سلطنته الحقيقية وقد أمتدات حتى وفاته . وإذا نظرنا إلى مدة هذه الفترات الثلاث التى حكم فيها الناصر محمد وجدنا أن عهده يعتبر أطول عهود سلاطين المماليك (حوالى ٤٣ سنة) .

ولاشك أن السلطان الناصر محمد قد استفاد من الحوادث السابقة بتجارب متنوعه عرفته بأخلاق المماليك ومؤامراتهم وكيفية معاملتهم . كما أن سنه فى ذلك على الوقت قد بلغ مرحلة النضج إذ بلغ الخامسة والعشرين وقد ساعدة ذلك تثبيت قدمه فى الحكم وتركيز الإدراة فى يده.

ولقد سار السلطان الناصر محمد على سياسة أسلافه نحو المشاكل الرئيسية التى أحاطت بمملكته وهى مشاكل الصليبيين والمغول . ومس المعروف أن هذه المشاكل قد تطورت تطورا كبيرا فى صالح المسلمين فى ذلك الوقت نظرا لجلاء الصليبيين عن الشام نهائيا وضعف الحماس الصليبى فى أوربا . كما أن دولة المغول فارس قد أخذت فى الضعف هى الأخرى نتيجة للحروب التى خاضتها مع المماليك من جهة ومع مغول القفجاق من جهة أخرى .

سياسة الناصر محمد مع المغول :

حينما دب النزاع بين امراء المماليك فى آخر أيام السلطان لاجين (الذى اغتصب عرش الناصر محمد) لجأ بعضهم إلى خان المغول واسمه غازان أو قازان محمد بن أرغون . وكان قد اعتنق الإسلام على المذهب الشيعى ، فشرحوا له سوء الأحوال فى مصر والشام وحرضوه على غزو تلك البلاد . وراق لغازان أن يقوم بالدور الذى قام به أجداده من

قبل وأن يحقق المشروع الذى فشلوا فى تحقيقه وهو القضاء على دولة المماليك والإستيلاء على مصر والشام .

ثم عبر غازان نهر الفرات متجها إلى الشام ، فخرج السلطان الناصر محمد لملاقاته وكان قد عاد إلى ملكه فى ولايته الثانية بعد مقتل لاجين. وجرت المعركة بين الفريقين عند وادى الخازندار بين حماة وحمص وذلك فى سبتمبر ١٢٩٩م (٦٩٨هـ) وفى هذه الموقعة هزم الجيش المصرى وهرب كبار قواده وبقى السلطان الشاب يبكى فى مكانه ولم ينقذه من الموت سوى توقف المغول من مطاردة المماليك خوفا من أن يكونوا قد أعدوا لهم كمينا جريا على عاداتهم فى الحروب .

وانسحب الناصر محمد إلى بعلبك ومنها إلى مصر ، أما غازان فقد بسط نفوذه على شمال الشام ثم واصل زحفه إلى دمشق واستولى عليها [1] .

غير أن أمراء المماليك لم يستسلموا لهذه الهزيمة بل عادوا إلى التكتل ثانية بالقاهرة ثم خرجت جموعهم إلى الشام لأخذ الثأر من المغول . ولما علم غازان باقتراب جيوشهم من دمشق أنسحب منها بجنوده تاركا المدينة فى حماية من انضم اليه من أمراء المماليك . وقد ظن أنه بهذه الوسيلة يستطيع أن يشطر المماليك إلى حزبين متلوئين يضرب كل منهما الأخر .

غير أن الذى حدث كان على عكس ما توقعه غازان ، اذ أن هؤلاء المماليك الذين سبق أن أعلنوا له الولاء من قبل عادوا ثانية وانضموا إلى جيوش اخوانهم المماليك القادمين إلى الشام . وهذه الظاهرة – ظاهرة التكتل – نلاحظها بكثرة فى تاريخ المماليك ابان الأزمات التى هددت

---

١) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٦٣٥ – ٦٤ نشر بلوشيه .

كيانهم . وهكذا زال سلطان المغول عن الشام وعادت الوحدة من جديد بين مصر والشام تحت سلطنة الناصر محمد .

ولقد فوجيء غازان بهذه النتيجة التى لم يكن يتوقعها ، وفكر فى ارسال حملة جديدة نحو الأراضى الشامية ، غير أن قيام ثورات داخلية فى بلاده أجبرته على تأجيل هذا المشروع بعضا من الوقت . وقد حاول غازان أن يثبط عزائم المصريين بعقد صلح معهم ، غير أن أمراء المماليك فطنوا لخديعته فرفضوا هذا الصلح وعملوا على الأستفادة من هذا التأجيل فى تقوية صفوفهم وتوحيد كلمتهم .

وفى عام ١٣٠٣م (٧٠٢هـ) أرسل غازان جيوشه نحو البلاد الشامية بقيادة قائده قطلوشاه ، فخرج السلطان الناصر محمد بجيوشه لملاقاته . وتقابل الفريقان عند مرج الصفر جنوبى دمشق فى شهر رمضان، وكان النصر النهائى للمصريين ، وارتدت فلول المغول إلى الفرات بعد أن فقدت ما يقرب من عشرة آلاف جندى بين قتيل وأسير [١] .

وغضب غازان لهذه الهزيمة غضبا شديدا وانزل بقواده عقوبات صارمه ، ولم يلبث هو الأخر أن مات كمدا فى السنة التالية ١٣٠٤م ولما يبلغ من العمر الثانية والثلاثين ، وهذه هى المرة الرابعة على الأقل التى استطاع فيها المصريون الأنتصار على أشد وأخطر عدو عرفوه منذ الفتح الإسلامى .

على أن المهم هنا هو أن هذا الأنتصار الأخير على المغول يعتبر الحلقة الأخيرة فى سلسلة الوقائع الكبرى التى دارت بين الدولتين الايلخانية المغولية والمملوكية ، ذلك لأن العلاقات بين هاتين الدولتين قد

---

(١) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ٤٩ ويلاحظ أن أبا الفداء حضر هذه الموقعة بنفسه .

أخذت تتحسن بعد ذلك ، وعقد صلح بين الناصر محمد وايلخان مغول فارس الجديد أبى سعيد كما أخذ الإسلام ينتشر بين أفراد الدولة ملوكا وشعبا ويمكننا القول بأن الخطر المغولى بعد موقعة مرج الصفر قد زال نهائيا عن مصر والشام حتى أوائل القرن الخامس عشر الميلادى عندما عاود الظهور من جديد على يد القائد المغولى تيمورلنك .

وتجدر الأشارة هنا إلى أن هذا الصلح الذى أبرم ببين دولتى مغول فارس والمماليك لم يؤثر مطلقا على الصداقة التقليدية القديمة التى تربط دولة المماليك بدولة مغول القفجاق أو القبيبلة الذهبية فى شمال البحر الأسود ، وكان زعيمها فى ذلك الوقت يدعى أوزبك خان .

ومن المعروف أن هذه الدولة المغولية الشمالية كانت على عداء مستحكم مع مغول فارس ، وكثيرا ما قامت بينهما حروب طاحنة وقفت فيها مصر بجانب حلفائها مغول القبيلة الذهبية ، ولكن لما انتهى العداء بين مصر ومغول فارس ، لم يستطيع الناصر محمد مناصرة صديقه أوزبك خان زعيم القبيلة الذهبية ضد ايلخان فارس أبى سعيد ، وأوضح له موقفه الجديد من هذه الدولة ، ولكنه عمل فى نفس الوقت على ازالة ما بين دولتى المغول من عداء وقد كلل مسعاه بالنجاح اذ عقد صلح بين أبى سعيد وأوزبك خان وانتهت بذلك هذه المشكلة [1].

سياسة الناصر محمد مع الصليبيين :

الواقع أن الأعمال الحربية التى قام بها الناصر محمد ضد الصليبيين ، وهى فى الحقيقة اعمال بسيطة تعتبر من ذيول أو مخلفات المشكلة الصليبية التى انتهت منذ أيام أخيه الأشراف خليل .

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوا المبتدأ والخبر حـ ٥ ، ص ٤٣١ ؛ المقريزى : السلوك حـ ٢ ص ٢٠٤ - ٢١١ .

فمن بقايا هذه المشاكل الصليبية مسألة عصيان أرمينيا وتحريضها لمغول فارس وملوك أوربا على غزو مصر والشام . وكانت هذه الدولة المسيحية تدفع لمصر جزية سنوية منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس فى مقابل مسالمة دولة المماليك . وقد أضطر الناصر محمد أن يرسل إلى ارمينيا علة حملات تأذيبية انتهت بخضوع هذه الدولة واعترافها بسيادة سلطان مصر والشام .

ومن بقايا المشاكل الصليبية أيضا مسألة فرسان الداوية أو المعبد وكانت بعض فلولهم بعد استيلاء الأشرف خليل على عكا قد أنسحبت واستقرت فى جزيرة أرواد الواقعة على بعد ثلاثة أميال فى البحر أمام بلدة أنطرطوس شمالى طرابلس ، واتخذتها قاعدة يشنون منها الغارات على الموانى الشامية ولا سيما مدينة طرابلس القريبة منها ، ومن ثم قرر الناصر محمد احتلال تلك الجزيرة و فأعد الأسطول وشحنه بالمقاتلة والسلاح والنفط ، وأسند قيادته إلى أمير البحر سيف الدين كهرداش الزراق المنصورى. ثم أبحر الاسطول سنة ١٣٠٢م (٧٠٢ هـ) متجها إلى طرابلس حيث أنضم إليه .الأمير اسندمر كرجى ببعض القطع البحرية ، ثم أطبقت الحملة على جزيرة أرواد واستولت عليها عنوة بعد أن حطمت أسوارها وقتلت الفا من أهلها وأسرت نحوا من خمسمائة ، وهكذا خلت السواحل من الصليبيين ولم يبق منهم أحد بالشام الا من هو أسير أو نصرانى ذمى (١) .

علاقات الناصر محمد الدبلوماسية :

من المعروف أن مشكلة الصليبيين كانت قد انتهت منذ عهد السلطان الأشرف خليل ،غير أن فكرة الحروب الصليبية ظلت باقية فى

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ ٨ ص ١٥٦ .

أذهان الكتاب والدعاة وبعض الملوك والبابوات فى أوربا وكانت أخبار تلك المشروعات الصليبية تصل إلى القاهرة مما جعل سلاطين المماليك يتخذون الاحتياطات الحربية والدبلوماسية اللازمة لدرأ هذا الخطر .

فمن الناحية الدبلوماسية نجد أن السلطان الناصر محمد قد حرص على توطيد علاقاته مع ملوك الدول الأوربية والاسلامية شرقا وغربا، فامتلأ بلاطه بسفراء تلك الدول بشكل لم يحدث من قبل ولا من بعد.

ومن هؤلاء نذكر خايمى الثانى JaimeII (جام فى المصادر العربية) ملك مملكة أراجون فى شمال شرق اسبانيا وكان هذا الملك يحرص على أن ينال شرف رعاية مصالح المسيحيين فى الشرق الاسلامى وكانت هذه المصالح أما دينية مثل تأمين الحجاج واطلاق سراح الأسرى وحماية المسيحيين المقيمين بمصر والشام ، واما مصالح تجارية تتعلق بتأمين التجار المسيحيين على تجارتهم وأموالهم وأرواحهم أثناء اقامتهم بالثغور المصرية ولا سيما مدينة الأسكندرية ، فسفارات ملك أراجون كانت تدور حول هذه المصالح ، وفى مقابل ذلك كان هذا الملك الاسبانى يتعهد بحماية المسلمين المقيمين فى مملكته وبعدم التدخل فى شئونهم الدينية . وقد أطلق على المسلمين الخاضعين للحكم الاسبانى اسم المدجنين (١) Mude jares.

أما ملك فرنسا فيليب السادس ، فقد كان من دعاة أحياء فكرة الحروب الصليبية بل أنه أبدى استعداده لقيادة حملة صليبية على مصر ، ولكنه تبين له آخر الأمر استحالة هذا المشروع خصوصا بعد أن شغل بحروب المائة عام التى قامت بين فرنسا وأنجلترا .

ورأى ملك فرنسا أن يلجأ إلى سياسة المفاوضات فى حل المسألة

---

(١) Atiya (A,S.) : Egypt amd Aragon P.35 .

الصليبية، فأرسل إلى السلطان الناصر محمد سنة ١٣٣٠م سفارة ضخمة من مائة وعشرين سفيرا ، وقد حاول هؤلاء السفراء اقناع السلطان بتسليم بيت المقدس للمسيحيين ولكن السلطان قابل هذا الطلب بالاستياء والاهمال [1]. أما سفارات امبراطور الدولة البيزنطية فكانت تدور حول عقد تحالف مع دولة المماليك ضد الدولة العثمانية الناشئة فى آسيا الصغرى ، وكانت هذه الدولة العثمانية قد أخذت توسع حدودها غربا فى الأراضى البلقانية التابعة للدولة البيزنطية كما أخذت فى الوقت نفسه تهدد الحدود الشمالية للدولة المملوكية بالضغط على الدويلات التركمانية المنتشرة فى جنوب آسيا الصغرى مثل القرمانية وذى القادرية التى كانت فى حلف مع المماليك . ولهذا وجدت هذه السفارات البيزنطية تجاوبا من السلطان الناصر لوجود مصالح مشتركة بين الجانبين .

أما سفارات ملوك الدول الاسلامية فنذكر منها سفارة سلطان دولة الهند الاسلامية فى دلهى فى عهد محمد بن طغلق شاه سنة ١٣٢٥م/ ٧٢٦هـ وكان غرضها عقد حلف مع الناصر محمد ضد مغول فارس على أن تقوم مصر والهند بالهجوم عليهم من الشرق والغرب فى وقت واحد . ولقد فشل هذا المشروع بسبب تحسن العلاقات بين مصر ودولة ايلخانات فارس كما سبق أن بينا .

كذلك اهتم السلطان الناصر محمد بتوطيد علاقاته بدولة بنى مرين أو بنى عبد الحق فى المغرب الأقصى. وكان سلطانها فى ذلك الوقت هو السلطان أبو الحسن المرينى فتشير المصادر إلى السفارات والمراسلات المتبادلة بين الدولتين ونخص بالذكر تلك السفارة التى أرسلها السلطان أبو

(١) محمد جمال الدين سرور : دوللة بنى قلاوون فى مصر ص ٢٧٧ .

الحسن المرينى سنة ١٣٣٧م (٧٣٨ هـ) وكان يصحب هذه السفارة ركب الحج المغربى وعلى رأسه السيدة الحرة احدى زوجات أبيه ، ويصفها المقريزى بابنة السلطان، وقد حملت الهدايا المرسلة من سلطان المغرب إلى سلطان مصر على ثلاثين قطار من بغال النقل سوى الجمال. وكان يوما مشهودا وصفه المقريزى فى كتابه الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك (نشر المرحوم جمال الدين الشيال) .

اعمال الناصرمحمد الداخلية :

سار الناصر محمد على سياسة والده قلاوون العمرانية فبنى المدرسة الناصرية سنة ١٣٠٤م ، التى لاتزال بقاياها موجودة إلى اليوم بالنحاسين بالقاهرة ومن مبانيه أيضا القصر الأبلق بقلعة الجبل (المقطم) سنة ١٣١٣م ويسمى بالأبلق لأن أحجاره كانت بيضاء وسوداء (من هذه التسمية جاء اسم الطائر الأبلق والبلقاء فى جنوب الشام) ثم هناك مسجده الذى بناه بالقلعة أيضا سنة ١٣١٨م وزينه بمواد نقلها من كاتد رائية عكا . هذا إلى جانب الحمامات والمساجد والزوايا والروابط والقناطر والترع والقنوات بجميع أنحاء البلاد وأهمها تعمير المجرى الذى ينقل الماء عليه من النيل إلى القلعة على السور (مجرى العيون).

ولقد قام الناصر محمد بمسح الأراضى المصرية وتقسيمها تقسيما جديدا عرف فى التاريخ باسم الروك الناصرى . والروك مصدر الفعل الثلاثى راك ومعناه قاس أو مسح الأرض الزراعية لتقدير الضرائب أو الخراج المستحق عليها وهذه العملية عرفت أيضا باسم فك الزمام .

والمعروف أن أرض مصر مسحت فى العصور الوسطى الإسلامية ست مرات قبل عصر الناصر[1] محمد. وهذا يدل على أن الناصر محمد

---

(١) على ابراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ص ٣٣٢ .

لم يعمل عملا جديدا بهذا الروك الجديد ولكن يبدو أنه كان يهدف من ورائه اضعاف قوة المماليك عن طريق الأقلال من اقطاعاتهم عند توزيعها من جديد. كذلك أعادة الناصر حفر خليج الإسكندرية سنة ٧١٠ هـ فبادر الناس بالزراعة على جانبيه كما اهتم بعمارة طريق الحج من القاهرة إلى مكة والمدينة المنورة .

أما عن شخصية الناصر فيمكن أن نأخذ فكرة عنها من اللمحات القصيرة التى وردت فى المراجع المختلفة نذكر منها أنه كان قصير القامة ، أبيض اللون وفى عينيه حول وبرجله عرج فلايمشى الا متكئا على عصا ، أو خادم وذلك بسبب حادث وقع له فى أيامه الأولى وهو منفى بحصن الكرك (دخلت شوكة فى رجله) وكان ولوعا بالصيد ومغرما باقتناء الخيول الأصيلة والأحجار الكريمة وأن كان لم يلبس من هذه الأحجار شيئا ، اذ يؤثر عنه البساطة فى مظهره وملبسه ، كذلك اهتم الناصر بالعلم والعلماء ، وكانت تربطه بالمؤرخ الملك المؤيد أبى الفداء صاحب كتاب المختصر فى أخبار البشر صداقة متينة .و ابو الفداء كما هو واضح من لقبه « الملك المؤيد » ينتمى إلى الملك شاهنشاه الأيوبى أخو صلاح الدين. وقد عمل الناصر محمد على تكريمه فأعاد اليه ملك أجداده وهى ولاية حماه بالشام ، وأمر الولاة بأن يعاملونه كذلك ، وقد صحبه معه إلى الحجاز عند تأدية فريضة الحج ، وكان لا يناديه ألا بأخى .

هذا ، وكان السلطان الناصر محمد رجلا شجاعا حازما الا أنه كان كثير التخيل والظن والشك ، ولهذا قتل عددا من الأمراء لأنه اشتبه فى اخلاصهم ، بل أنه كان يغار على ملكه حتى من أبنائه ، فلم يعين وليا لعهده ، وفى أواخر أيامه نفى ابنه الأكبر أحمد إلى حصن الكرك

لسؤ أخلاقه ، ولم يكن ابنه الثانى آنوك أحسن حالا من أخيه وتوفى فى أواخر أيام والده ، ولهذا اضطر الناصر قبل وفاته بيومين إلى تولية ابنه الثالث سيف الدين أبى بكر فى السلطنة ، وتوفى السلطان الناصر محمد عام ١٣٤٠م (٧٤١ هـ) عن ثمان وخمسين سنة .

دولة المماليك الأولى بعد وفاة الناصر محمد حتى نهايتها : (١٣٤٠ - ١٣٨٢م) (٧٤١ - ٧٨٤ هـ) :

تركت وفاة الناصر محمد فراغا كبيرا لم يستطيع أحد من أولاده وأحفاده أن يملأه من بعده .

غير أنه يلاحظ أن البيت القلاوونى كان قد تأصل تماما فى قلوب الناس بدليل أن أبناء الناصر وأحفاده هم الذين تداولوا العرش بعده حتى نهاية دولة المماليك الأولى (دولة المماليك البحرية) سنة ١٣٨٢م . أما أمراء المماليك فقد كان صراعهم فى ذلك الوقت يدور حول الاستئثار بالنفوذ والأموال دون الالتفات إلى السلطنة وعرشها .

وفى هذه الفترة التى تلت وفاة الناصر محمد حتى نهاية الدولة المملوكية الأولى ، وهى فترة تقدر بحوالى اثنتين واربعين سنة (١٣٤٠ - ١٣٨٢م) تولى عرش مصر والشام أثنا عشر سلطانا ثمانية من أبناء الناصر ، واثنان من أحفاده ، واثنان من أبناء هؤلاء الأحفاد .

وجميع هؤلاء السلاطين لم يحكموا الا بالاسم فقط ، أما السلطنة الحقيقية فكانت بيد كبار الأمراء وكان هؤلاء السلاطين أطفالا صغارا لم يدم حكمهم سوى بضع سنوات أو شهور قليلة .

ولم يشذعن هذه القاعدة سوى اثنين من هؤلاء السلاطين :

الأول هو السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد ، وقد تسلطن مرتين : الأولى دامت أربع سنوات (١٣٤٧ - ١٣٥١م) والثانية سبع سنوات (١٣٥٤ - ١٣٦١م) . وكان هذا السلطان شغوفا بالعمارة مثل والده ، وينسب اليه المسجد الضخم الجميل الذى يحمل اسمه « جامع السلطان حسن » الذى لايزال يرابض كالقلعة المنيفة فى شارع محمد على (بجوار مسجد الرفاعى) . وقد قتل السلطان حسن على يد نائب سلطنته يلبغا الخاصكى .

اما السلطان الثانى فهو السلطان الأشرف شعبان وهو من أحفاد الناصر محمد ، وقد استمرت سلطنته ثلاث عشرة سنة (١٣٦٣ - ١٣٧٦م) . وفى عهده حدثت غارة ، القبارصة المشئومة على مدينة الاسكندرية سنة ١٣٦٥م .

وعلى الرغم من ضعف وتفاهة معظم شخصيات سلاطين هذه الفترة التى تلت وفاة الناصر محمد، الا أن الدولة المملوكية استمرت قوية مهابة . وهذا راجع إلى حسن الادارة المصرية والشامية التى بلغت ذروتها من حيث النظام والدقة بحيث صارت من أحسن الادارات الحكومية فى عصرها سواء فى الشرق أو الغرب . ولهذا نجد أن ضعف السلاطين بعد الناصر محمد لم يحل دون استمرار مظاهر الحياة المملوكية كما كانت من قبل مثل بناء المساجد الجميلة والقصور الفخمة ، واستقبال الوفود والسفراء فى بلاط السلطان الذى استمر على أبهته وفخامته السابقة .

وتتميز هذه الفترة التى تلت وفاة الناصر محمد بحدثين هامين كان لهما أثر كبير فى نهاية هذه الدولة المملوكية الأولى :

الحدث الأول داخلى :

وهو انتشار وباء الطاعون أو الموت الأسود فى البلاد المصرية والشامية وغيرها من البلاد الافريقية والاسيوية والأوربية ، وذلك فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى أو الثامن الهجرى . ولاشك أن هذا الوباء الذى هلكت فيه ملايين من البشر إلى جانب ما صاحبه من طواعين الأبقار والآفات الزراعية ، قد نتج عنه مجاعات وأزمات اقتصادية ترتب عليها أيضا أزمات واضطرابات سياسية سادت نواحى كثيرة من العالم ومن بينها مصر وقد أعطانا الرحالة الطنجى ابن بطوطة الذى كان موجودا فى القاهرة فى ذلك الوقت وصفا مهما عن هذا الوباءوالأثار السئية التى ترتبت عليه[1] . كذلك عبر عن هذه الحالة المؤرخ المعاصر عبد الرحمن ابن خلدون بنظرته الفلسفية الشاملة عندما قال فى مقدمته تعقيبا على هذا الوباء: [2]

« وكأنى بالمشرق قد نزل به مثلما نزل بالمغرب . . . وكأنما نادى لسان الكون فى العالم بالخمول والانقباض فبادر بالأجابة ، والله وارث الأرض ومن عليها ، واذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره وكأنه خلق جديد » .

أما الحدث الثانى :

فهو حدث خارجى ويتعلق بالغارة البحرية الوحشية التى شنها ملك قبرص بطرس الأول لوزجنان على مدينة الاسكندرية سنة ١٣٦٥م (٧٦٧ هـ) بمساعدة فرسان رودس الاسبتارية والجنوبين والبنادقة .

ولقد اختار هذا اللعين وقتا مناسبا لغارته ، فالوقت كان موسم فيضان

---

(١) تجدر الاشارة هنا إلى أن والدة هذا الرحالة ابن بطوطه ماتت فى مدينة طنجة بهذا الوباء ودفنت هناك .

(٢) المقدمة ص ٢٣ ، ويلاحظ أن ابن خلدون قد فقد ، والديه فى هذا الوباء أيضا .

النيل ، والطريق بين القاهرة والاسكندرية مملوء بالطين ولا يصلح لمجيء نجده عسكرية سريعة لانقاذ المدينة ، بل كان على هذه النجدة أن تسلك طريقا آخر عبر الصحراء وهو طريق طويل شاق، وكان الوقت موسما للحج وحاكم المدينة صلاح الدين بن عرام غائب عنها لتأدية فريضة الحج وكان نائبه جنفرا رجلا سيء التدبير عديم المعرفة أى أنه كان رجلا ضعيفا مترددا لا يصلح لمثل هذه المواقف الخطيرة ، يضاف إلى ذلك أن سلطان مصر كان طفلا فى الثانية عشرة من عمره وهو الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد بينما كانت السلطة الحقيقية فى يد نائب سلطنته الأمير يلبغا الخاصكى وهذا أدى إلى اضطراب الحالة الداخلية فى مصر فالظروف كلها كانت مهيأة لخدمة العدو .

وظن السكندريون فى أول الأمر أن السفن الصليبية هى سفن البنادقة الآتية للتجارة على عادتها فى كل سنة ، ففرحوا لرؤيتها وخرجوا لاستقبالها ، ولكنهم قوبلوا بوابل من السهام فأدركوا أنهم أمام خطر صليبى، عندئذ بدأت الاستعدادات على عجل لاغلاق الابواب وشحن القلاع بالمقاتلة واستدعاء عرب البحيرة للدفاع ، غير أن هذه الاستعدادات المرتجلة لم تمنع الصليبيين من اقتحام المدينة ، اذ استطاع بعضهم أن يدخل من فتحة قناة الخليج التى تصب فى البحر من تحت السور فى الميناء الشرقية ، وأن يتسلق الحائط من سلمه الداخلى ويشعل النار فى باب الديوان (الجمرك) المجاور لها وبذلك تمكن الصليبيون من دخول الاسكندرية ونهبها وحرقها وقتل وأسر عدد كبير من رجالها ونسائها ، ولم يفرقوا فى ذلك بين المسلمين والنصارى واليهود المقيمين

فى المدينة . وبعد أربعة أيام من السلب والنهب والدمار اضطر الملك بطرس أن يقلع بأسطوله قبل أن تلحق به جيوش النجدة المصرية قانعا بما أصابه من غنائم .

كانت هذه الغارة بمثابة ضربة قاتلة لمدينة الاسكندرية اذ أخذ نشاطها التجارى ومكانتها الاقتصادية فى الأفول منذ ذلك الوقت وقد علق المقريزى على هذه الحالة بقوله : « وكانت هذه الواقعة من أشنع ما مر بالاسكندرية من الحوادث ، ومنها اختلت أحوالها ، واتضع أهلها ، وقلت أموالهم ، وزالت نعمهم » [1] .

ولاشك أن هذه الكارثة التى أصابت أهم ميناء تجارى مصرى ، كانت عواقبها وخيمة على الاقتصاد المصرى بصفة عامة ، وقد يؤيد ذلك كثرة المنازعات بين امراء المماليك بصورة أقوى من ذى قبل ، ووقوع مصر فى أزمات مالية عديدة حتى قيل أن الدولة لم تستطيع اخراج المحمل إلى الكعبة أكثر من مرة لفقرها .

لم تستمر طويلا الدولة المملوكية الأولى المعروفة بالبحرية بعد هاتين الأزمتين اللتين مرت بهما وهما وباء الطاعون وغارة القبارصة ، اذ تمكن فى النهاية أمير مملوكى اسمه برقوق من أن يسدل الستار على هذه الفترة المضطربة وعلى أسرة قلاوون بأسرها . ففى سنة ١٣٨٢ هـ (٧٨٤هـ) خلع برقوق السلطان حجى آخر سلالة الناصر محمد بن قلاوون ، وأعلن نفسه سلطانا على مصر والشام باسم الملك الظاهر سيف الدين برقوق .

وبهذا السلطان الجديد تبدأ دولة المماليك الثانية المعروفة بالبرجية (نسبة إلى أبراج القلعة) وبالجراكسة أو الشراكسة من باب التسمية

---

(١) راجع تفاصيل هذه الغارة فى (أحمد مختار العبادى والسيد عبد العزيز سالم : البحرية الإسلامية فى مصر والشام ص ٣١٢) .

العنصرية. غير أن هذه التسميات فى رأى استاذنا المرحوم زيادة غير دقيقة لأن الدولة لم تعتمد على جنس الشراكسة فقط بل اعتمدت على عناصر مملوكية أخرى مختلفة كالتركمان والقفجاق والروم . كذلك كانت أبراج القلعة بالمقطم مأوى لفئات المماليك أيام دولة المماليك الأولى ولذلك نرى أن التسمية الصحيحة التى ينبغى أن نطلقها على هذه الدولة هى التسمية العددية أى دولة المماليك الثانية [1] .

وهذه الدولة فى الواقع ما هى الا استمرار لدولة المماليك الأولى فى سياستها وتقاليدها وأنظمتها بوجه عام . والأمر الذى جعلها تعتبر دولة منفصلة يرجع إلى أن مؤسسها وهو السلطان برقوق ، استطاع أن يقضى على سلطنة أسرة قلاوون ويستأثر بالسطنة لنفسه فكان ذلك هدما للمبدأ الوراثى الذى حاولت دولة المماليك الأولى تطبيقه فى أواخر أيامها كوسيلة للبقاء والاستمرار .

(١) محمد مصطفى زيادة : بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك فى مصر . مجلة كلية الآداب ، القاهرة سنة ١٩٣٦ .

ضـــمائم

ضميمـــة رقم (١)

خطاب التهديد الذى أرسله هولاكوخان إلى السلطان سيف الدين قطزسلطان مصر قبيل موقعة عين جالوت [(١)]

من ملك الملوك شرقا وغربا ، القـان الأعظم .

باسمك اللهم باسط الأرض ، ورافع السماء . يعلم الملك المظفر قطز الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الأقليم [(٢)] ، يتنعمون بانعامه ، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك . يعلم الملك المظفر قطز ، وسائر امراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال ، أنا نحن جند الله فى أرضه ، خلقنا من سخطه . وسلطنا على من حل به غضبه ، فلكم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم ، وأسلموا الينا أمركم ، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ ، فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكى ، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد ، وطهرنا الأرض من الفساد ، وقتلنا معظم العباد ، فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب ، فأى أرض تأويكم ، وأى طريق تنجيكم ، وأى بلاد تحميكم ،؟ فما لكم من سيوفنا خلاص ، ولا من

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٢٧ - ٤٢٩ ، وراجع ما قلناه عن هذه الرسالة فى موضعه .

(٢) اشارة إلى أصل قطز ، وقد تقدم القول بأنه كان من الخوارزمية .

مهابتنا مناص ، فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال ، فالحصون لدينا لاتمنع ، والعساكر لقتالنا لاتنفع ، ودعاؤكم علينا لا يسمع ، فانكم أكلتم الحرام ، ولا تعفون عند الكلام ، وخنتم العهود والايمان ، وفشا فيكم العقوق والعصيان ، فأبشروا بالمذلة والهوان ، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، فمن طلب حربنا ندم ، ومن قصد أماننا سلم ، فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم ، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا ، وأن خالفتم هلكتم ، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم ، فقد حذر من أنذر ، وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة ، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة ، وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة والاحكام المدبرة ، فكثيركم عندنا قليل ، وعزيزكم عندنا ذليل . وبغير الأهنة ما لملوككم عندنا سبيل ، فلا تطيلوا الخطاب ، وأسرعوا برد الجواب ، قبل أن تضرم نار الحرب نارها ، وترمى نحوكم شرارها ، فلا تجدون مناجاها ولا عزا ، ولا كافيا ولاحرزا ، وتدهون منا بأعظم داهية وتصبح بلادكم منكم خالية ، فقد أنصفناكم اذ راسلناكم ، وأيقظناكم اذ حذر ناكم ، فما بقى لنا مقصد سواكم . والسلام علينا وعليكم ، وعلى من أطاع الهدى ، وخشى عواقب الردى وأطاع الملك الاعلى .

ألا قل لمصرها هلاوون [1] قد أتى — بحد سيوف تنتضى وبواتر
يصير أعز القوم منها أذلة — ويلحق أطفالا لهم بالأكابر

(١) هلاوون صيغة لاسم هولاكو ترد كثيرا فى المصادر القديمة المعاصرة .

ضميمة رقم (٢)

رواية صارم الدين أزبك بن عبد الله الاشرفى، فى وصف التتار وعاداتهم وموقعة عين جالوت (١)

قال الأمير شهاب الدين قرطاى العزى الخازندارى فى تاريخه ما صيغته :

قال الصارم أزبك مملوك الملك الأشرف الأيوبى صاحب حمص لما نزل هلاوون على حلب كنت غائبا عنها ، فتخبأت فى مغارة من مغارات حلب مدة ثلاثة أيام ، وأنا أسمع حنين حوافر الخيل فوق رأسى . فلما انقطع الحنين ، طلعت من المغارة ، فوجدت على بابها رجلا من التتار

---

(١) راجع ما قلناه عن هذه الموقعة فى موضعه من الكتاب، هنا وقد ورد هذا النص فى تاريخ قرطاى العزى الخازندارى الذى لا نعرف عن صاحبه سوى أنه كان من كبار أمراء المماليك وشغل عدة وظائف كبيرة مثل أمير دمشق وحاجب حلب ونائب طرابلس ومات فوق سن الستين سنة ٧٣٤ هـ (١٣٣٣م) ، وقد كتب تاريخا نقله المؤرخ المصرى ناصر الدين محمد بن الفرات (ت ٨٠٧ هـ = ١٤٠٥م) فى تاريخه الكبير « الطريق الواضح المسلوك الى معرفة تراجم الخلفاء والملوك » . الذى لم يستطيع اتمامه . ويوجد من هذا التاريخ الكبير لابن الفرات تسعة أجزاء (تشمل أخبار سنى (٥٠١ - ٧٩٩ هـ) نشر منها الدكتور قسطنطين زريق الأجزاء ٧، ٨، ٩ التى تضم أخبار سنى ٦٧٣ - ٧٩٩ هـ أما الجزء الذى يهمنا هنا فهو الجزء السادس الذى يضم أخبار سنى ٦٢٥ - ٦٥٩ هـ ويتضمن تاريخ قرطاى العزى وأخبار صارم الدين أزبك التى وردت هنا فى المتن . وهذا الجزء موجود بمكتبة الفاتيكان وقد نشر منه المستشرق ليفى دلافيدا أخبار صارم الدين فى Levi Della Vida : L'invasione dei Tartari in Syria nel 1260 di un testimone oculare. Orientalia Vol. Iv Roma 1935

ميتا ، فلبست قماشه ، وتزيأت بزى التتر ، وقصدت دهليز هلاوون . ومن جملة عدل التتار أنهم اذا نزلوا بأرضء نصبوا قريبا من الدهليز الذى للملك صاريا ، وفى رأس الصارى وضعوا صندوقا صغيرا معلقا بالحبال ، وعند الصارى وقف من يحرسه وهم جماعة من أكبر أمناء التتار . فإذا كان لرجل شكوى أو ظلامة ، يكتب ظلامته فى قصة ويختمها ويضعها فى ذلك الصندوق ، فإذا كان يوم الجمعة ، يطلب الملك الصندوق إلى بين يديه ، ويفتحه بمفتاح من عنده ويكشف ظلمات الناس ، قال الصارم : فكتبت قصة شرحها : « المملوك الصارم » ولم أقل أزبك ، وخفت أن أكتب فى قصتى أزبك فلا ينادونى التتر يؤمئذ « يا صارم » ، بل ينادونى « يا أزبك» . فكتب فى القصة : المملوك الصارم مملوك الملك الاشرف صاحب حمص ، يقبل الأرض ويسأل الحضور بين يدى القان . فلما طلبنى وحضرت بين يديه ، رأيت ملكا جليل القدر عظيم الشأن، كثير الحرمة ، قصير القامة . كبير الوجه ، جهر الصوت ، حنون عينيه على وجهه ، والخواتين جالسات إلى جانبه ، والست طقز خاتون عن شماله ، قال الصارم : لما وقفت بين يدى هلاوون ، تكلم معى من حجاب أربعة ، وقال لى فى جملة كلامه : « أنت مملوك الملك الأشرف صاحب حمص ، بهادر المسلمين ؟ - يعنى فارس المسلمين - قلت نعم وجعل يحدثنى من حاجب إلى حاجب، والحاجب الرابع يتحدث معى بلسان التركية . فلما رآنى فصيح اللسان ، قوى الجنان ، سريع الجواب ، قربنى اليه ، وأمر أن لا يكون بينى وبينه غير حاجب واحد . ثم قال لى : « تشرب الخمر» قلت نعم ، فأمر لى بهناب (كأس) مملوء خمرا ،

وأشار إلى الحاجب فناولني. فقبلت الأرض ورقصت وعملت أشياء كان يعملها الحرفاء بين يدى ملوك الاسلام لما كانت البلاد لهم . فأعجب ذلك الخواتين وأنشرحن وتبسمن ، فأما هلاوون ، فانه لم يرفع رأسه من الأرض، ثم أمر لى بالجلوس فجلست ، وبالشرب فشربت، وبالأكل فأكلت فلما رآني أى أمر أشار به امتثلت ، أمرني بالجلوس فوق ندمائه فى أعز مكان وأعلاهم مرتبة . وصار لا يأكل الا وأنا حاضر ، ولا يشرب الا وأنا حاضر ، وأن نام هلاوون طلبتني الست طقز خاتون زوجته ، فأقمت على تلك الحال أول ليلة وثاني ليلة وثالث ليلة ، ونحن نحاصر حلب ، ثم سألني هلاوون عن أمر من الأمور ، فجاوبته جوابا كذبا وددت لو ابتلعتني الأرض ولم أنطق به . سألني على لسان حاجبه : فى كم من الوقت نملك هذا البلد؟ - يعني حلب - قلت فى عشر سنين. فأطرق هلاوون برأسه الى الأرض غضبا مني . وقال لحاجبه اسئله : فى كم مقدار ما نملك هذه القلعة؟ - يعني قلعة حلب قلت : فى ثلاثين سنة وقصدت فى كلامي أن هلاوون اذا سمع هذا الكلام يرحل عن حلب . فتبسم هلاوون وقال لحاجبه : لولا سابق خدمته لى ضربت عنقه ، اما يستحى من هذا الكلام ؟ أيكون هذا همة ملوكهم - يعني ملوك المسلمين - المختلفة آرائهم ، المشتغلين ببعضهم البعض ؟ « كل هذا بلسان التتار ، وأنا لم أعلم ما يقول . وقال الصارم : فسكت ، وندمت على جوابي له ، وذلك لما رأيت من الغيظ الذى تبين فى وجهه فلم يفرغ هلاوون من كلامه الا وقد دخل عليه رجل من التتار ، وفى يده رأس مقطوعة من رؤوس بنى آدم ، معلقه بشعر ، وهى مخضبة

بالدم ، فرماها بين يدى هلاوون وتحدث معه بلسان التتار ، ثم أخذ الرأس وخرج، فالتفت الحاجب نحوى وقال لى: ياصارم تعرف ما هذه الرأس،وما هذا الرجل، قلت: لا . قال : هذا أكبر مقدمى التتار ، وكان فى نقب من بعض النقوبات التى تحت القلعة ، وخرج يزيل حقنه ، وجعل ولده مكانه فكشفهم الحلبيون وهجموا عليهم فى النقب ، فهرب ولده ومعه جماعة من التتار ، فبلغ ذلك أباه، فعبر النقب وقطع رأس ولده بيده ، وجاء بها إلى القان قال الصارم : فعند ذلك علمت أن التتار لابد لهم من حلب ،وأن بنيننا وبناتنا ومن يلينا فى أيدى التتار ، وهذا آمر أراده الله تعالى فلا راد لمشيئته .

وكنت ليلة عند هلاوون ونحن نشرب ، اذ وردعليه جماعه من مقدمى التتار ومعهم اصناف كثيرة من جملتها زبيب وحب قطن وقمح وبجارة خشب وفحم وخروب ، فجعل هلاوون ينظر اليهم ويتبسم ، ولا اعلم ما فى نفسه . ثم أمر لنا بأن نشرب بالاقداح الكبار وبالزبادى . فلما خرجت أقضى شغلا، لحقنى الحاجب وكان يحبنى وأحبه محبه عظيمة، وقال ياصارم : أتدرى ماهذا الذى جاء بهاالمقدمون؟ قلت: لاوالله قال : أنهم قد وصلوا فى النقيب تحت القلعة الى أن وصلوا إلى هذا الذى رأيتـه .

ثم إن هلاوون سأل المقدمين :كم يسع النقب ؟ قالوا بسع ستة آلاف وجل . قال: إوسعوه حتى يسع عشرة آلاف، وإن غدا بعد الظهر تأخذ التتار قلعة حلب ، وتصبح بناتكم ونساؤكم وبنات الملوك اللواتى تحصن بهذه القلعة جوارى لهذه الست ظقز خاتون ، فانظر يا صارم

الدين ماذا تفعل » .

قال الصارم : والله لما سمعت هذا الكلام ، صحوت من السكر، ودخلت المجلس ، وجلست بين يدى هلاوون ، وقلت بطريق المصخركية : والله أن ملوك التتر مثل الحمير . فنظرت ظقز خاتون نحوى وهى تبتسم وقالت : كيف هذا ياصارم ؟ قلت : « أن ملوك المسلمين، كانوا اذا شربوا الخمرة يكون نقلهم الفستق ، وشراب الحماض، وأقرص الليمون ، فى الزبدى الصينى . وقماقم الماورد والريحان والبنفسج والآس المنثور والنرجس ، وما يناسب هذه الأشياء العظيمة ، وانتم التتار ، تشربون الخمر على الفحم وحب القطن والزبيب ونشارة الخشب وهذه الأشياء القبيحة » .

وتبسم هلاوون وضحكت الخواتين . قال الصارم : ثم سبقت منى كلمة كان جزائى فيها أن تضرب عنقى ، فقلت : « أنا أعلم من اين جاؤا هؤلاء المقدمون بهذه الأصناف » . فغضب هلاوون وقال : من أين تعلم هذا ؟ فقبلت الأرض وقلت : « يحفظ الله القان ، وحق رأس الملك، أنا ادخرت هذه الذخائر كلها بيدى فى هذه القلعة خوفا من التتر واستعدادا للحصار » وسكن هلاوون من غيظه ، وكان قد اعتقد فى نفسه أن الحاجب أوحى إلى شيئا من هذا الكلام ، وكان الأمر كذلك .

ثم نهضت قائما وقبلت الأرض، وقلت : « نصر الله القان ، أن حرمتك عظيمة ومملكتك واسعة ، والملوك تخشاك ، ولا يقدر أحد منهم أن يقف بين يديك. والله والله ياخوند ، الملوك يودون لو كانوا

وقوفا بين يديك مثل مماليكك هؤلاء الوقوف ، ولكن يخافون من سطوتك » . فأعجب هلاوون كلامى وقال لى :

ياصارم ، قلت : لبيك . قال : « تقدر أن تأتينى بأستاذك الملك الأشرف صاحب حمص ؟ قلت : نعم . قال : اركب وآتنى به قلت: بعد يومين . قال: نعم . فأمر لى هلاوون بالخيل وقال: أركب ولا تقعد ، قلت : بشرط . قال : وما هو ؟ قلت أن لا تفتح هذه القلعة الى أن يحضر الملك الأشرف بين يدى القان ، قال: نعم . فركبت وأخذت معى عشرة أكاديش ، وعلقت فى عنقى الطغمة - يعنى لوح البريد - وسقت ووصلت الى غزة . فبلغنى أن الملوك هاربين فى البرية ، مشتتين محيرين مبعثرين . وكان قد بلغ ملوك المسلمين منزلتى عند هلاوون ، فسقت ولحقت الملوك على منزلة تعرف ببركة زيزة .

فلما رأتنى الملوك ، نزلوا عن خيولهم وقبلوا يدى كما كنت أقبل أيديهم . وقبل الملك الأشرف أستاذى يدى فعظم ذلك على واستحييت من أستاذى ومن الملك الناصر ، ثم قلت للملك الأشرف : « القان يطلبك » . فخاف ، فقلت : ممن تخاف؟ قال: من القان. قلت: « الضمان على ، تعود ملكا جليلا على ما فى نفسك ولا يصل اليك مكروه » . فالتفت الملك الناصر نحوى وقال : وأنا ياصارم الدين؟ قلت: مالى معك كلام ، فبكى الملك الناصر .

ولما أخذت الملك الاشرف ومضيت الى هلاوون ، وحضر بين يديه ، رسم له بشقة ينزل فيها ، وخروف وقدر وحطب ، والله أن الشقة التى ضربها هلاوون للملك الأشرف ، لا ترضى الكلاب أن تنزل فيها والخروف لا يرضى الذئب أن يأكله والحطب لا يرضى المشاعلى أن

يقده في مشعله ، وهكذا عيش التتر دائما ، فتركت الملك الأشرف في الشقة ، ومضيت الى خدمة هلاوون ، فأجلسني على جارى عادته ، وأمرني أن آكل فأكلت ، وأمرني أن أشرب فشربت ، وسألني عن أحوال الملوك وما هم فيه ، وكيف تركتهم ، قلت : في أنحس الأحوال، هاربين مشتتين محيرين في البرارى لا يستلذون بالنوم خوفا من حرمة القان، فأعجب هلاوون بكلامي ، وقال: كيف تركت استاذك ياصارم ؟ قلت : مالى استاذ الا القان ، قال : لا ، ألا أستاذك الملك الأشرف ؟ قلت : ما أعلم شيئا عن حاله . قال : كيف تركته وحده ؟ قلت : ما أفارق وجه القان نصره الله. فأطرق هلاوون برأسه زمانا وقال : « لا تقل هذا ياصارم ، بل أمضى الى أستاذك ، وانظر أى حال هو عليه » . فأتيت الى الملك الأشرف ، فرأيته ويده تحت خده وهو حزين ، والخروف مربوط بحبل، والحطب ملقى على الأرض فقلت : ما بالك ياخوند ؟ فقال : ألا ترى هذا الحال ياصارم الدين؟ وبكى . قلت : لا تبك ياخوند، والله والله هذا عيش التتر دائما ، وهذا حالهم . والله ياخوند ما فعلوا هذا استقلالا بك، ولكن هذا خيار عيشة التتر « فتبسم الملك الأشرف وقال : « هكذا تكون الملوك ، وبهذا الحال والرجال تملك الملوك البلاد » .

وبينما أنا أتحدث مع الملك الأشرف ، اذ ورد مرسوم هلاوون بحضوره بين يديه ، فوالله لقد رأيت الملك الأشرف تغير لونه ، وما رأيت الملك تغير لونه قبلها ، ولقد كسر الملك الأشرف الخوارزمية وهم ستة آلاف وهو في ألف وخمسمائة فارس ولم يتغير لونه ، ولقد كسر التتار

فى وقت كان التتر فى ألفى وخمسمائة فارس والملك الأشرف فى ثمانمائة فارس ولم ويتغير لونه .

ولما وقف الملك الأشرف بين يدى هلاوون، وأنا ماسك بشماله والحاجب ماسك بيمينه . والله لقد رأيت الملك الأشرف وهو يرتعد مثل القصبة ، ولم يستطع الوقوف على رجليه وذلك خوفا من هلاوون .

وكان الملك الأشرف شابا حسن الوجه ، أسمر اللون بحمرة ، تام القامة بوجهه شامات متفرقة . وكان لابسا قباء تتريا أخضر ببنود أطلس أحمر ، وخف بلغارى بكوابج ذهب وتخفيفة مزركشة . فنظرت طقز خاتون للملك الأشرف، ونظرت إلى هلاوون وقالت : « أن هذا شاب مليح وفارس المسلمين ، وهكذا تكون الملوك » ، فنظر هلاوون نحوها وتبسم وقال : « انما نحن الملوك الذين نحضر هذه الملوك بين أيدينا وقوفا أذلة خائفين من سطوتنا » كل هذا والملك الأشرف واقف بين يدى هلاوون لا يدرى ما يصنع به الدهر ، ثم رفع هلاوون رأسه وقال : « يا أشرف، تمنن ما تختار ؟ » فقبل الملك الأشرف الأرض ثلاث مرات ، قال الصارم فقلت له : اطلب منه أن يهبك هذا البرج الذى فى القلعة الذى فيه أمك وأخواتك وبناتك وحريم الملوك وبنات الملك الناصر يوسف وحريمه ومتى لم تطلب منه هذا البرج فى هذه [illegible] هذه الليلة تملك التتار قلعة حلب وتصبح حريم [illegible] جوارى لهذه الست طقز خاتون . قال الملك الأشرف : لا يجوز [illegible] فقلت له : أن التتر لا يقتلون من يكون عندهم بمنزلة الضيف .

ثم قال هلاوون لثانى مرة : « اطلب ما تختاره ياأشرف سلطان »

. فقال الملك الأشرف : « اتمنى على القان أن يهب لى هذا البرج الذى فيه حريمى وحريم الملك الناصر وحريم الملوك الذين هم هاربون من سطوة القان » . فأغضب هلاوون ذلك ، وأطرق الى الأرض وقال : « أطلب غير هذا » . فسكت الملك الأشرف ، فنظرت طقزخاتون إلى الملك هلاوون وقالت : « ما تستحى يطلب منك هذا الملك هذا البرج ، وتمنعه عنه ، والله لوطلب منى حلب ما منعتها عنه ، فإنه فارس المسلمين » . قال هلاوون : « انما منعته ذلك لأجلك، لتكون بنات الملوك ونساؤهم جوارى بين يديك » ، قالت « أنا قد أعتقتهم لوجه الله تعالى ولأجل الملك الأشرف » فعند ذلك رسم هلاوون للملك الأشرف بما طلب ، وقبل الأشرف يد هلاوون ثلاث مرات .

قال الصارم : لما قبل الملك الأشرف يد هلاوون ورجع الينا ووقف بيينا وآراد أن يقبل الأرض ، وأنا ماسك بشماله والحاجب بيمينه، ووالله لقد قبل الملك الأشرف الأرض وأراد القيام فلم يستطع القيام وذلك خوفا من هلاوون ، فأقمته أنا والحاجب بباطية ، وقلت له تثبت وقرأت « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الأخرة » .

قال الصارم أزبك الأشرفى : قال لى هولاكو فى جملة كلامه : « ياصارم ، تختار أن تكون مع الملك الأشرف استاذك أو تكون معى ؟ » فقبلت الأرض وقبلت يده ، وقلت : « ما افارق وجه القان » . وكان كذبا منى ثم رسم هولاكو بالتوجه الى الشرق ، وجعل كتبغا نوين نائبا له بحلب وأعمالها ، وبيدرا نائبا له بدمشق وأعمالها . وتوجه الى الشرق واستصحب الصارم صحبته ، والمماليك الترك البحرية الذين كانوا محبوسين

بقلعة حلب وهم : سنقر الأشقر ، وسكز ، ويرامق ، وبكمش المسعودى . وكانوا سبع نفر وقيل تسعة .

قال الصارم : لما وصل هولاكو إلى اعزاز ووصل الى بلاد الموصل طلبنى ، وقال ياصارم ، تختار المقام عندى وأنا أعطيك طبلخاناه [1] . أو تختار المقام بأرضك بالشام ؟ » فقبلت يده وقلت : « ما أفارق وجه القان » .

قال : لا ، الشام أحب اليك ، فإن اهلك واولادك واملاكك بالشام « وأ ىرلى بالخيول والأموال والانعام، ورسم للملوك والأمراء الذين عنده وفى خدمته أن يعطينى كل منهم على قدره ، فوالله العظيم لما انفصلت من بين يدى هولاكو ، لم أعلم ما كان حصل لى من الأموال والتحف ، لكن الذى عرفته من علة الخيل ألف وخمسمائة فرس ، ومن القماش عشرة آلاف تفصيلة ما بين مروزى وكمخى ونسيج أطلس وعتابى وغير ذلك . ولما أمرنى أن اتوجه الى الشام ، قال لى فى جملة كلامه : ياصارم أنت تعلم ما فعلنا معك من الخير ، أولادى عندك كتبغا وبيدرا هما عندى أعز من أولادى ، يكونان تحت نظرك ، ويكون حسبك عليهما « كل هذا وأنا أقبل الارض وأقبل يده ثم قال لى : « ياصارم اذا وصلت

---

(١) لا نعلم شيئا عن نظام امرة طلبخاناة فى العهد المغولى ، ولعله كان على غرار النظام المتبع فى العهد المملوكى حيث كان صاحب امرة طبلخاناة ممن يقتنون اربعين فارسا من المماليك ، ليساهم بهم فى حروب الدولة . ومن ميزات هذا الأمير عمن دونه مرتبة ، ان تكون له فرقة موسيقى حربية تسمى الطلبخاناة تدق بألاتها على باب داره ، ومن امراء الطلبخاناة كان ولاة الأعمال - المديرون - وصغار كبار الموظفين مثل نائب الدوادار ووالى القلعة ومقدم المماليك .

راجع (القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٨، ١٣، ١٥، ٥٠) .

الى كتبغا ، أمسك رقبته بيدك ». ومسك هولاكو رقبتى بيده ، وقال لى : « قل لكتبغا أن بعلبك ودمشق وبلاد الشام بلادى وتحت مملكتى ، فما يحل لنا أن نظلم الرعية . كيف تجرأت وأخذت صندوق ذهب من رجل من أهل بعلبك ؟ أردد اليه ذهبه وإلا تموت. ولا ترد يدك من رقبته الى أن يرد الى صاحب الذهب ذهبه » .

قال لى هولاكو لما ودعته : « ياصارم اذا وصلت الى كتبغا وبيدرا ساعدهم على فتح بخش الفار[1] – يعنى بذلك الديار المصرية – فانى أمرتهم أن يفتحوا مصر » قال الصارم : أن التتار مثل مصر عندهم مثل بخش الفأر ، اذا عبر من مكان لا يخرج إلامنه وذلك لضيق المسلك . ولما أمرنى هولاكو بما أمرنى به امتثلت أمره بالسمع والطاعة ، ثم توجهت الى الشام ، فوجدت التتار قد اجتمعوا على نهر الأردن ، فلما رأونى نزلوا عن خيولهم ، وقبلوا بين عينى ، وذلك اجلال كون عينى قريبة من النظر الى وجه الملك هولاكو . ثم أبلغت كتبغا ما كان من أمر الصندوق الذهب ، وأن الملك هولاكو رسم أنك ترد الصندوق إلى صاحبه فامتثل الأمر بالسمع والطاعة برد الصندوق الى صاحبه والله أعلم .

قال الصارم : لما ودعت الملك هلاوون من بلاد الموصل ، قال لى

---

(١) يعنى جحر الفأر . وكانت مصر تعرف عند التتار باسم كروان سراى ، ففى الخطاب الذى وجهه هولاكو إلى الملك الناصر يوسف صاحب الشام يقول : وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بأموالهم وحريمهم الى كروان سراى ، فإن كانوا فى الجبال نسفناها . . . الخ . والمقصود بكلمة كروان سراى هو محط الرحال أو فندق المسافرين . ولعل تسمية مصر بهذا اللفظ يرجع الى انتهاء معظم الطرق التجارية اليها من سائر جهات الشرق والغرب فى القرون الوسطى .
راجع المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤١٦ حاشية رقم ٣) .

في جملة كلامه : « ياصارم ، أشكر نعمتي عليك » . قلت : ياخوند، أيد الله القان ، لك على نعم كثيرة من الله تعالى ومنك . قال : تعرف كيف جئتني؟ قلت : نعم . قال عظمتك في أعين الملوك إلى أن صرت تشفع فيهم عندى ، ويقبلوا يدك كما كنت تقبل أيديهم . ثم قال : « ياصارم ، أشكر نعمتي » . فقبلت يده وقلت يحفظ الله القان. نعمتك على كثيرة . قال : « ولا مثل هذه النعمة ؟ » قلت: ما هي؟ قال في ليلة كذا وكذا ، ونحن على حلب ، تحدثت معك بلسان التركية ثلاث كلمات ، والله لم يكن جرى منى هذا قبلها لأحد ، وما فعلت معك هذا الكلام كله الا لكى تتوصى بأولادى كتبغا وبيدرا ، وتعمل معهما كما فعلت معك ، ولا يجيئنى كتابك ان شاء الله تعالى الا بعد أن تكونوا فتحتم مصر .

قال الصارم : لما قدمت الشام ، وجدت التتار مجتمعين على نهر الاردن ، وقد خرجوا قاصدين الديار المصرية . وقد خرج المسلمون للقائهم . فلما علمت أن التتار لابد لهم من الديار المصرية ، بعثت غلاما لى في صفة جاسوس ، وأمرته أن يجتمع بالملك المظفر قطز ، والأمير بيبرس البند قدارى ، وبلبان الرشيدى ، وسنقر الرومى، ويعرفهم أن التتار لاشىء ، فلا تخافوا منهم ، وان تكون ميسرة المسلمين قوية بالخيل والرجال ، وعرفهم بأن التتار في عسكر قليل ، وأوصيته ان يوصى المسلمين أن يكون الملتقى عند طلوع الشمس ، فلما وصل غلامى إلى عسكر المسلمين وجدهم خائفين من التتار خوفا عظيما ، فاجتمع يبعض الأمراء الدين عرفته بهم ، وعرفهم ما أوصيتهم به وكنت قلت في جملة كلامى : قل للأمراء لا تخافوا ، هاانا وأصحابى والملك

الأشرف نهزم بين أيديهم ، والله وكذلك كان ، فلما سمع الأمراء كلام غلامى ، قال بعضهم لبعض : لا يكن هذا معمولية على المسلمين .

فلما كان ملتقى الجمعين على عين جالوت ، طلعت الشمس عاينا ، وظللت عساكر الإسلام . وكان أول سنجق سبق ، أحمر وأبيض ، وكانوا لا بسين العدد المليحة . وأشرقت الشمس على تلك العدد فطلبنى كتبغا وقد بهت هو والتتار الذين معه من كثرة تلك العساكر وحسن ما عليهم ، وجمالهم وهم منحدرون من الجبل . فطلبنى كتبغا وقال لى : ياصارم ، هذا رنك [1] من؟ قلت : سنقر الرومى . ثم ظهرت سناجق صفر . قال : هذا رنك من؟ قلت : بلبان الرشيدى . ثم تتابعت الأطلاب أولا فأولا ، وانحدروا من سفح الجبل . ودقت الكوسات [2] والطبلخانات ، وامتلأ الوادى والبر من العياط ، وغابت الفلاحين وأهل القرى والبلدان من كل جانب. وكنت غرا بمعرفة رنوك المسلمين ، فصار كتبغا يسألنى : هذا رنك من؟ فصرت أى شىء طلع على لسانى قلته .

ثم أن التتار انحازوا الى الجبل ، وفتح الله ونصر هذه الملة المحمدية بالمماليك الترك البحرية ، ولم يسلم من التتر من يرد خبر الى هلاوون ، ولكن قتل الجميع ، ولم يرد خبرهم الا من كان مقيما بدمشق أو

---

(١) سبق أن اشرنا الى أن كلمة رنك معناها شعار فيه رسوم تدل على الوظيفة التى يشغلها صاحب هذا الشعار ، وكان من عادة كل أمير مملوكى كبير لو صغير أن يكون له رنك يخصه وبينما كانت رنوك المسلمين فى الشرق تدل على الوظائف ، اذا بها فى اوربا العصور الوسطى ترمز للأسرة الأقطاعية . فكل أسرة لها شعار خاص تتميز به عن غيرها .

(٢) الكوسات آلات نحاسية مثل الصاجات .

حلب . انتهى ما ذكره قرطاى [١] .

ضميمة رقم (٣)

رسالة السلطان قطز إلى ملك اليمن يبشره بهزيمة التتار

قال القلقشندى : [٢]

وهذه نسخة كتاب ، كتب بها عن الملك المظفر قطز - إلى صاحب اليمن يومئذ المنصور [٣] - بالبشارة بهزيمة التتار . وأظنها من انشاء القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر [٤] ، وهى : أعز الله تعالى أنصار المعز الشريف العالى ، المولوى ، السلطان ، الملكى المنصورى ، وأعلا مناره ، وضاعف اقتداره ، نعلمه انه لما كان النصف من شهر رجب [٥] ، فتح الله بنصر المسلمين على أعداء المسلمين .

. . . . . أما النصر الذى شهد الضرب بصحته ، والطعن بنصيحته ، فهو أن التتر خذلهم الله تعالى ، استطالوا على الأيام ، وخاضوا

---

(١) يلاحظ أن هذا النص فضلا عن الحيوية التى يشتمل عليها ، والاشارات القيمة التى يتضمنها فإن له أهمية خاصة للتاريخ السياسى والحضارى على السواء وقد بالغ صارم الدين أزبك فى الدور الذى قام به خلال أحداث تلك الفترة ، ولكن يبدو أنه لم يخرج عن جوهر الحقائق التاريخية .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٧ ص ٣٦٠ - ٣٦٢ .

(٣) لعله الملك المنصور نور الدين عمر بن على سلطان الدولة الرسولية باليمن .

(٤) صاحب ديوان الانشاء أيام قطز وبيبرس وقلاوون والأشرف خليل وتوفى سنة ١٢٩٢م . وله كتاب تشريف الأيام والعصور فى سيرة المنصور تحقيق مراد كامل (القاهرة ١٩٦١) .

(٥) هذا التاريخ يتعارض مع ما ورد فى المراجع العربية الأخرى من أن موقعة عين جالوت حدثت يوم الجمعة ١٥ رمضان سنة ٦٥٨ هـ - ٣ سبتمبر ١٩٦٠ م .

بلاد الشام ، واستنجدوا بقبائلهم على الاسلام:

سعى الطمع المردى بهم لحتوفهم ومن يمسكن ذيل المطامع يعطب

فأ قلعت بهم طرائق الضلال ، وسارت مراكب أمانيهم فى بحار الآمال ، فتلك آمال خائبة ، ومراكب للظنون عاطبة . . . هذا وعساكر المسلمين مستوطنة فى مواطنها ، جاذبة عقبانها فى وكور ظباها ، رابضة آسادها فى غيل أقناها ، ما تزلزل لمؤمن قدم الا وقدم ايمانه راسخه ، ولا ثبتت لأحد حجة الا وكانت الجمعة ناسخة ، ولا عقدت برجمة ناقوس الا وحلها الأذان ، ولا نطق كتاب الا وأخرسه القرآن .

ولم تزل أخبار المسلمين تنتقل الى الكفار ، وأخبار الكفار تنتقل الى المسلمين ، الى أن خلط الصباح فضته بذهب الأصيل ، وصار اليوم كأمس ، ونسخت آية الليل بسورة الشمس ، واكتحلت الأعين بمرود السبات ، وخاف كل من المسلمين أصدار البيات :

ينام باحدى مقلتيه ويتقى بأخرى الأعادى ، فهو يقظان نائم

الى أن تراءت العين بالعين، واضطرم نار الحرب بين الفريقين فلم تر الاضربا يجعل البرق نضوا ، ويترك فى بطن كل من المشركين شلوا ، حتى صارت المفاوز دلاصا ، ومراتع الظبا للظبا عراصا ، واقتضت آساد المسلمين المشركين اقتناصا ، ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مناصا ، فلا روضة الا درع ، ولا جدول الاحسام ، ولا غمامة الا نقع ، ولا وبل الا سهام ، ولا مدام الا دماء ، ولا نغم الا

صهيل ، ولا معربد الا قاتل ، ولا سكران الا قتيل ، حتى صار كافور الدين شقيقا ، وتلون الحصباء من الدماء عقيقا ، وضرب النقع فى السماء طريقا ، وازدحمت الجنائب فى الفضاء فجعلته مضيقا ، وقتل من المشركين كل جبار عنيد، ذلك ما قدمت أيديهم، « وما ربك بظلام للعبيد » .

وقلت : [1]وهذه النسخة تلقفتها من أفواه بعض الناس ، ذكر أنه وجدها فى بعض المجامع فحفظها منه ، وهى فى غاية من البلاغة ، الا أنها لا تخلو من تغيير وقع فى بعض أماكنها ، ولعله من الناقل لها ، من حيث أنه ليس من أهل هذه الصناعة ، ولم يسعنى ترك ايرادها لما فيها من المحاسن ، ولا نفرادها باسلوب من الأساليب التى كتب بها الى ملوك اليمن ، فأوردتها على ما هى عليه ، وجزى الله خيرا من ظفر لها بنسخة صحيحة فقابلها عليها وصححها وأصلح ما فيها .

---

(١) هذا كلام القلقشندى معلقا على الرسالة .

بعض المصادر العامة فى تاريخ الأيوبيين والمماليك

(١) ابو علـى محيى الدين اللخمـى المعروف بالقاضى الفاضل (ت ٥٩٦ هـ) .

ولد بعسقلان ونشأ فى مصر وعمل فى ديوان الأنشاء بالقاهرة أواخر الدولة الفاطمية وبعد سقوط هذه الدولة عمل كاتبا لشيركوه ثم لصلاح الدين . وقد أخلص القاضى الفاضل فى تعليم صلاح الدين أسرار الحكم وقواعده العسكرية والادارية والمالية ، فلم يلبث صلاح الدين أن جعله وزيره ومستشاره الأول ، وصار لا يستطيع الاستغناء عن مشورته ونصائحه .

وقد دون انقاضى الفاضل مشاهداته كلها على شكل رسائل مرتبة على الأيام ، فهى أشبه بجريدة رسمية يومية لديوان الأنشاء . وهى تشتمل على المراسلات التى دارت بين صلاح الدين وبين ملوك الصليبيين وأمراء المسلمين، وهى كلها من انشاء القاضى الفاضل

وهذه الرسائل للأسف لم تجمع فى كتاب واحد بل هى مفرقة فى كتب المؤرخين الذين جاءوا بعده مثل أبى شامة فى كتاب الروضتين والقلقشندى فى صبح الأعشى .

(٢) عماد الدين محمد الأصفهانى (ت ٥٩٧ هـ)

يلقب بالكاتب لأنه عمل كاتبا لنور الدين ثم لصلاح الدين بعد ذلك . وكان العماد يصحب صلاح الدين فى كل تنقلاته فكان مؤرخا حربيا نقل الينا فى كتبه العديد أخبار حروب صلاح الدين وانتصاراته .

يحكى أن العماد قابل يوما القاضى الفاضل وهو على فرسه فقال له : سر فلا كبابك الفرس فرد عليه القاضى الفاضل : دام علا العماد . وكل

منهما يقرأ مقلوبا وصحيحا . ومن أهم كتب العماد الأصفهاني :

١ - البرق الشامي : يتحدث فيه عما وقع له أثناء خدمته لنور الدين وصلاح الدين كما يتحدث عن فتوحات هذين البطلين فى الشام ، وهذا الكتاب لا يزال مخطوطا .

٢ - الفتح القسي في الفتح القدسي : اقتصر فيه على فتح صلاح الدين لبيت المقدس وصراعه مع الحملة الصليبية الثالثة . طبع في القاهرة ١٣٢١ هـ .

٣ - خريدة القصر وجريدة العصر - القسم الأول عن شعراء مصر - يتكلم فيه عن شعراء عصره ولكنه فى نفس الوقت يصور أعمال صلاح الدين وحروبه فهو مصدر تاريخى أدبى . نشر هذا القسم فى القاهرة فى جزاين (١٩٥١ - ١٩٥٢م) نشره أحمد أمين وشوقى ضيف واحسان عباس .

٤ - دولة آل سلجوق : وهو تاريخ عام للسلاجقة وأتابكياتهم . نشر هذا الكتاب فى القاهرة ١٩٠٠م .

(٣) اسامة بن منقذ (ت ٥٨٣ هـ) ١١٨٧م .

أحد أمراء بنى منقذ أمراء قلعة شيزر على نهر العاصى فى شمال الشام ومازال هذا المكان يعرف الى اليوم باسم سيجر على بعد خمسة عشر ميلا شمالى حماه على الضفة الغربية لنهر العاصى . لم يستطع الصليبيون الاستيلاء على قلعة شيزر لحصانتها والتفاف نهر العاصى حولها. ولهذا استطاع أسامة بحكم جواره للصليبيين أن يكون شاهد عيان لكثير من الحوادث التى جرت فى تلك المنطقة . هذا فضلا عن أنه طاف بمعظم العواصم الاسلامية بالشرق العربى كما زار فلسطين أيام أن

كانت خاضعة للصليبيين واتصل ببعض ملوكهم وكانت له معهم نوادر ومشاكل وصداقات . وقد دون كل مشاهداته أو مذكراته عن هذه البلاد فى كتابه الذى أسماه « كتاب الاعتبار » وهو يعتبر وثيقة تاريخية هامة عن فترة الحرب الصليبية فى تلك الأونة سواء من ناحية الجانب الاسلامى أو الجانب المسيحى فضلا عن أنه يتضمن صورا مقارنة بين عادات المسلمين والفرنجة شاهدها وعاينها أسامة بنفسه ولقد كان أسامه موضع اطراء معاصريه فسماه الذهبى بأحد أبطال الاسلام ، ووصفة ابن الأثير بأنه كان فى غاية الشجاعة، أما العماد الاصفهانى فقد مدح شاعريته وأدبه فى كتابه خريدة القصر كذلك أشار أبو شامة الى أن صلاح الدين كان يحتفظ بديوان شعر لأسامة وانه كان معجبا بشعره ، وتوفى أسامة سنة ٥٨٣ هـ بدمشق فى نفس السنة التى استرجع فيها صلاح الدين بيت المقدس عن سن تناهز التسعين وقد ترك عده كتب أهمها كتاب الاعتبار الذى نشره أولا المستشرق الالمانى درنبورغ ثم أعاد نشره فيليب حتى بعد تصحيح أخطاء كثيرة ثم ترجمه الى الانجليزية الى جانب ترجمة درنبورغ الالمانية وشومان الفرنسية .

ولعل أسامة كان بقصد من عنوان كتابه « الاعتبار » أن يعتبر القارىء بما حل بغيره وأن ركوب المخاطر لا يقدم ولا يؤخر الأجل المكتوب .

٤) الرحالة الأندلسى ابن جبير (ت٦١٣ هـ) ١٢١٧م محمد بن احمد

زار الشام فى أواخر القرن السادس الهجرى (١٢م) ووصف رحلته

فى كتابه المسمى « تذكرة بالأخبار عن اتفاقيات الأسفار» وقد نشر عدة مرات تحت اسم رحلة ابن جبير ومن أهم ما ورد فيه وصف التعاون الزراعى والتجارى والصناعى بين المسلمين والصليبيين فى الامارات الصليبية وذلك لأن الصليبيين أدركوا بأن استمرار بقائهم فى اماراتهم يتوقف على التعاون والاندماج مع أهالى المنطقة والذوبان فيها ، وقد مات ابن جبير فى الاسكندرية ودفن بها .ويقال إنه مقام سيدى جابر حاليا وأن العامة حرفت اسمه.

(٥) بهاء الدين بن شداد (ت ٦٣٢ هـ)١٢٣٤م:

عاصر صلاح الدين الأيوبى وكتب عنه كتابا يتناول سيرته بعنوان : « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » . نشره أول مرة شولتنز سنة ١٧٥٥م ثم أعيد نشره فى القاهرة سنة ١٣١٧هـ ثم نشرة أخيرا سنة ١٩٦٤ المرحوم جمال الدين الشيال . كذلك ترجم كوندر هذا الكتاب الى الانجليزية سنة ١٨٩٧ .

وينبغى أن نفرق بين بهاء الدين بن شداد وبين سميه عز الدين محمد بن شداد الذى عاش بعده بخمسين سنة وفى نفس مدينة حلب وتوفى بها سنة ٦٨٤هـ ١٢٨٥. وقد ألف هو الآخر كتابا عن سيرة سلطانه فى ذلك الوقت هو الظاهر بيبرس بعنوان « الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر » .

(٦) كتاب مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، لجمال الدين بن واصل الحموى المتوفى عام ٦٨٧ هـ ١٢٩٧م .

أهمية هذا الكتاب أن مؤلفه عاش فى مصر وعاصر سقوط الدولة

الأيوبية وقيام دولة المماليك في مصر فروايته لحوادث هذه الفترة لها قيمتها بحكم كونه شاهد عيان لها ، ولقد نشر الدكتور جمال الدين الشيال الجزء الأول والثاني والثالث من هذا الكتاب وتناول أخبار الأيوبيين حتى نهاية عصر صلاح الدين الأيوبي أما الجزء الأخير من هذا الكتاب ويشمل الجزأين الرابع والخامس فقام بنشرها د . ربيع حسنين، د. سعيد عاشور .

(٧) شهاب الدين أبوشامة الدمشقي ، المتوفى في عام ٦٦٥هـ ١٢٦٨م .

هذا المؤرخ كان معاصرا لابن واصل وكان مقيما بالشام ولذا اهتم بصفة خاصة بأخبار الشام . ولما كانت الشام ومصر تكونان دولة واحدة أيام الأيوبيين والمماليك ، فإن أحداث الشام ارتبطت ارتباطا وثيقا بأحداث مصر وهذا يفسر لنا أهمية مؤلفات أبي شامة ، ولقد كتب هذا المؤرخ كتابين :

أ – كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (النورية والصلاحية) . ويقع في جزأين ويتناول تاريخ دولة نور الدين محمود زنكي ودولة صلاح الدين الأيوبي (القاهرة ١٢٨٧ هـ) .

ب – كتاب الذيل على الروضتين : يتناول فترة الانتقال بين الأيوبين والمماليك وقد نشره عزت العطار الحسيني بعنوان تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجري (القاهرة ١٩٤٧).

(٨) الملك المؤيد أبو الفدا : كتاب المختصر في أخبار البشر (أربعة أجزاء في مجلدين):

مؤلف هذا الكتاب أمير من سلالة الأيوبيين ، وصاحب مدينة حماة أيام السلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون . وكانت تربطه بهذا السلطان صداقة متينة وكثيرا ما خرج معه الى الحجاز لأداء فريضة الحج . وكان السلطان الناصر لا يناديه إلابأخى ، وقد استطاع أبو الفداء بحكم مركزه ونفوذه أن يطلع على الوثائق والكتب الهامةوأن يكتب لنا تاريخا صحيحا على جانب كبير من الأهمية وهو كتاب المختصر فى أخبار البشر، وتوفى أبو الفداء فى عام ٧٣٢ هـ ١٣٣١م .

هناك كتب عامة على شكل موسوعات تاريخية تناولت تاريخ مصر الأسلامية ، وكتبها مؤرخون مصريون عاشوا فى القرنين الثامن والتاسع القرن التاسع الهجرى فهم متأخرون نسيا الا أن كتبهم على جانب عظيم من الأهمية لأنها حفظت لنا تراث ومجهودات المؤرخين المعاصرين الذين ضاعت كتبهم على مر السنين ولم تصل الينا .

ومن أهم هؤلاء المؤرخين الذين أرخوا للعصر المملوكى نذكر المؤرخ المصرى:

(٩) تقى الدين أحمد المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ ١٤٤٢م أى فى العصر المملوكى الثانى :

يعتبر بحق شيخ المؤرخين المصريين فى العصور الوسطى ، ويكفى أن نشير الى أنه قد تتلمذ على يد فيلسوف مؤرخى العرب قاطبة عبد الرحمن بن خلدون صاحب المقدمة المشهورة والمقريزى مؤرخ مصرى قاهرى ؛ ولد بالقاهرة وتوفى بها ، أما لفظ المقريزى فينسب الى حارة لمقارزه بمدينة بعلبك حيث كانت أسرته من قبل ثم انتقلت الى مصر فى حياة أبيه .

المقريزى ألف كتبا كثيرة فى تاريخ مصر الإسلامى ، يهمنا منها فى

دراسة عصر المماليك :

أ - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك : ويتناول تاريخ مصر الأيوبي والمملوكي حتى عام ٨٤٤ هـ . وقد نشر منه المرحوم محمد مصطفى زياده الجزأين الأول والثاني الذى ينتهي بعصر الناصر محمد ابن قلاوون أى حتى عام ٧٤١ هـ ثم نشرد . سعيد عاشور الجزأين الثالث والرابع.

ب - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار : ويعرف بالخطط على سبيل الاختصار ، وهذا الكتاب يعطينا فكرة واضحة عن حضارة المماليك وآثارهم فى مصر كما يصور لنا المجتمع المصرى فى أيامهم .

والكتاب يقع فى جزئين من طبعة بولاق بالقاهرة كما توجد طبعة أخرى لمطبعة النيل فى أربعة أجزاء ، والأولى أدق .

هذا وقد ترجم المستشرقون أجزاءا كثيرة منه لأهميته كما اعتمد عليه على باشا مبارك فى القرن الماضى فى موسوعته المعروفة بالخطط التوفيقية فى مصر والقاهرة .

جـ - اغاثة الأمة بكشف الغمة : يستقصى فيه المقريزى الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية مفسرا بها الأحداث التاريخية التى حلت بمصر ولاشك أن المقريزى فى هذا الاتجاه قد تأثر بطريقة أستاذه عبد الرحمن بن خلدون فى مقدمته .

نشر كتاب الاغاثة الدكتور محمد مصطفى زياده والدكتور جمال الدين الشيال وقدم له الدكتور حسين فهمى بمقدمة اقتصادية هامة .

د - البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب : كتاب صغير به اشارة الى ثورة الأعراب التى قامت بمصر أيام السلطان أيبك نشر محمد عابدين.

(١٠) أبو المحاسن بن تغرى بردى : المتوفى سنة ٨٧٤ هـ-١٤٦٥م .
وهو من تلاميذ المقريزى ، وقد كتب موسوعة عامة فى تاريخ مصر السياسى فى العصور الوسطى من الفتح لاسلامى حتى العصر الذى عاش فيه وهو : كتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ويهمنا منه الأجزاء ٧ ، ٨ ، ٩ ويمتاز هذا الكتاب بحسن العرض والتبويب ، أفرد المؤرخ لكل سلطان مملوكى ترجمة مستقلة خاصة به وفى نهاية كل ترجمة يعرض لنا الأحداث التى مرت بالعالم الاسلامى فى عهد صاحب الترجمة مرتبة على طريقة السنوات ولأبى المحاسن كتاب آخر لا يزال مخطوطا بدار الكتب وعنوانه : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى : وهذا الكتاب مهم جدا لأن المؤلف أورد أحداثا لم ترد فى كتابه النجوم الزاهرة كما صحح فيه بعض الأخطاء التى وقع فيها فى كتابه السالف الذكر .

(١) جلال الدين السيوطى: عاش فى أواخر عصر المماليك وتوفى ٩١١ هـ/ ١٥٠٥م وله كتابان مهمان فى دراسة الفترة التى نحن بصددها :

أ - كتاب حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة (جزءان فى مجلد) .

ب - تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين (من القرن الأول الهجرى الى عهد السلطان الأشرف قايتباى ٩٠١هـ) .

(١٢) ابن اياس المصرى : عاش كذلك فى نهاية الدولة المملوكية وعاصر سقوطها على يد العثمانيين وتوفى فى عام ٩٣٠ هـ ١٥٢٣م وقد كتب تاريخا عاما لمصر حتى ايامه وهو : بدائع الزهور فى وقائع الدهور (٣ أجزاء) .

(١٣) القلقشندى : احمد بن على (ت ٨٢١ هـ/ ١٤١٨م)مؤرخ مصرى من بلدة قلقشندة من أعمال محافظة القليوبية وضع موسوعة تاريخية أدبية اسماها : صبح الأعشى فى صناعة الانشا وتقع

فى ١٤ جـزء . يهمنا منها الجزء الرابع الذى يتضمن الكلام عن نظم الحكم المختلفة فى الدولة المملوكية مثل الجيش والبريد والقضاء والزى والملابس والمواسم والأعياد والمواكب . . . الخ .
وقد اعتمد عليه المستشرقون لأهميته نذكر منهم على سبيل المثال :

Gaudefroy Demombynes : La Syrie a L'Epoque des mamelouks.

(١٤) مفضل بن ابى الفضائل : (ت ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣م).
النهج السديد وترجمه إلى الفرنسيه مع مقدمة دراسية بلوشى E. Blochet (باريس ١٩١٢).
(١٥) ابن الفوطى : كمال الدين عبد الرزاق احمد الشيبانى (ت ٧٢٣ هـ / ١٢٢٣م)
الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة (بغداد ١٣٥١هـ).
(١٦) ابن بطوطة : محمد عبد الله اللواتى الطنجى (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧م)
تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الأسفار ، ٤ أجزاء ، تحقيق وترجمة دفريمرى وسانجونتى (باريس ١٩٢٢)
(١٧) الخزرجى : على بن حسن (القرن الثامن الهجرى)
العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية باليمن . جزءان (مجموعة جب الجزء الثالث)
(١٨) ابن الفرات : محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٥م)
الطريق الواضح المسلوك فى معرفة تراجم الخلفاء والملوك ٩٠ أجزاء حقق معظمة قسطنطين زريق وآخرون (بيروت ١٩٣٩).
(١٩) النويرى : شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢م) .
نهاية الأرب فى فنون الأدب . ١٨جزء (القاهرة ١٩٢٣-١٩٣١).
(٢٠) النويرى : محمد بن قاسم بن محمد النويرى الاسكندرانى (ت ٧٧٥ هـ / ١٣٧٢م)
الإلمام بالاعلام فيما جرت به الأحكام المقضية فى وقعة الإسكندرية . ٧ أجزاء تحقيق عزيز سوريال عطية واتيين كومب (المطبعة العثمانية بحيدر أباد الدكن بالهند ١٩٦٨ - ١٩٧٦ م)

مراجع حديثة

أحمد مختار العبادى :

* قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام (بيروت ١٩٦٩)

* الصقالبة فى أسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية (مدريد ١٩٥٣) .

* دراسة حول كتاب البارود والأسلحة النارية للدافيد أيالون (هسبريس ١٩٥٩) .

* تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام بالأشتراك مع عبد العزيز سالم (بيروت ١٩٧٢) .

أرشيبالد : لويس

* القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط (ترجمة محمد عيسى) .

الباز العرينى:

* مصر فى عصر الأيوبيين (القاهرة ١٩٦٠) .

جمال الشيال :

* تاريخ مصر الاسلامية. جزءان .

جوزيف نسيم :

* لويس التاسع فى الشرق الأوسط (القاهرة ١٩٥٩) .

* العدوان الصليبى على مصر (الاسكندرية فى ١٩٦٨) .

حسن حبشى :

* نور الدين والصليبيون (القاهرة ١٩٤٨) .

* الحرب الصليبية الأولى (القاهرة ١٩٤٧) .

حسن السندوبى :

* ابو العباس المرسى ومسجده الجامع بالاسكندرية (القاهرة ١٩٤٤) .

حسنين ربيع :

* النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين .

جمال سرور :

* عصر الظاهر بيبرس (القاهرة ١٩٣٨)

* دولة بنى قلاوون (القاهرة ١٩٤٧)

دراج أحمد :

* المماليك والفرنج فى القرن الخامس عشر الميلادى .

زترستين :

* تاريخ سلاطين المماليك (ليدن ١٩١٩) .

سعاد ماهر :

* البحرية فى مصر الاسلامية .

سرهنك باشا :

* حقائق الأخبار عن دولة البحار ، جزءان .

سعيد عبد الفتاح عاشور :

* الحركة الصليبية ، جزءان .

* مصر فى عصر دولة المماليك .

* العصر المماليكى فى مصر والشام .
* قبــــرص والحـرب الصليبـــية .
طرخـــان : ابراهيم :
* مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة (القاهرة ١٩٥٩) .
عبد الرحمن زكى :
* معركة المنصورة وأثرها فى الحروب الصليبية .
* القلاع والحروب الصليبية .
* موســوعة مدينــة القاهـرة .
عبد العزيز سالم :
* تاريخ الاسكندرية فى العصر الاسلامى (١٩٦٨) .
* طرابلس الشام فى التاريـخ الاسلامـى (١٩٦٧) .
عبد المنعم ماجد :
* نظم دولة سلاطين المـماليك ورسومـهم فى مـصـر (القـاهرة ١٩٦٤).
* الناصر صلاح الدين الأيوبى (القاهرة ١٩٠٨) .
عمــر كــمال تـوفـيق :
* مملكة بيت المقدس الصليبية (الاسكندرية ١٩٥٨) .
علـى ابراهيـم حســن :
* دراسات فى تاريخ المماليك البحرية (القاهرة ١٩٤٢) .
فواد عبد المعطى الصياد :

* مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين الهمذانى (القاهرة ١٩٦٧) .

محمد حمدى المناوى :

نهر النيل فى المكتبة العربية .

محمد رمزى :

* القاموس الجغرافى للبلاد المصرية (القاهرة ١٩٥٣) .

محمد مصطفى زياده :

* الغزوة الكبرى الأولى لاستيلاء الصليبيين على مصر (كتاب كفاحنا ضد الغزاة) .

* المصريون فى قبرص (من رسائل وزارة الدفاع الوطنى) .

* بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك فى مصر (مجلة كلية آداب القاهرة ١٩٣٦) .

* نهاية سلاطين المماليك (مجلة الجمعية التاريخية المصرية ١٩٥١)

محمد رزق سليم :

* سلاطين المماليك (٣ أجزاء) .

محمود سعيد عمران :

* الحملة الصليبية الخامسة (حملة جان دى بريى على مصر) (الإسكندرية ١٩٧٨)

مصطفى مسعد :

* الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى (القاهرة ١٩٦٠) .

مراجــع اوربيــه

Blochet :E

Histoire des Sultans mamlouks (Paris 1912).

- Cambride medieval History, Vols Iv,vI.

Creswell :

TheWorks of Sultan Bibars in Egypt.

. Bullet in de l' Institut Francaise d'archeolgoie tome 26 fasc.3.

- Grousset :

Histoire des Croisades, 3 Tomes (Paris 1936).

- Heyd

Histoire du commerce du Levant au moyen age, 2 Vols. (Leipzig 1889).

- Howorth :Henry.History of the Mongols, Vols I, III. (London 1880).

- Joinville : Jean : Histotre de Saint Louis (Paris 1874).

- King : E :The Knights Hospitallers in the Holy Land (London 1931)

- Lane Poole:History of Egypt in the Middle ages (London 1925).

- Runc iman : A History of the Crusades 3 vols (London 1958)

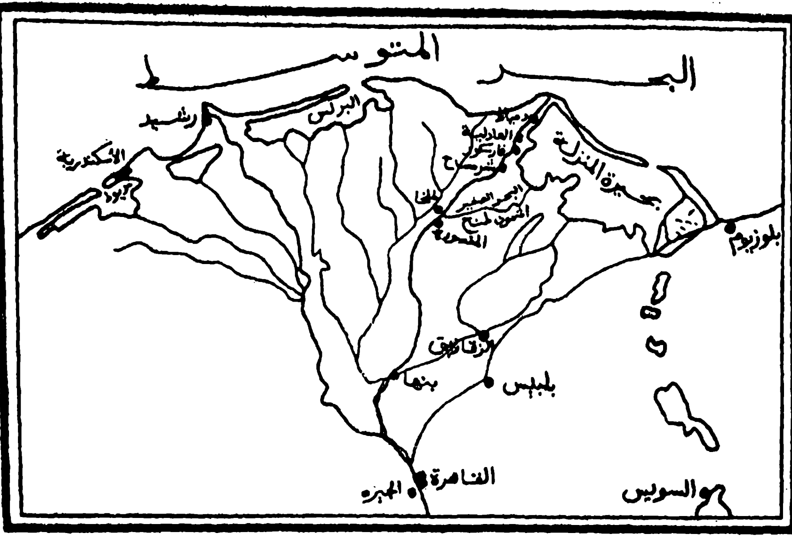
ترجمة المرحوم الباز العريني تحت عنوان « تاريخ الحروب الصليبية » في ٣ أجزاء (بيروت ١٩٦٩)

- Wiet : Gaston . Histoire de la nation Egyptienne t. IV]Paris, 1926)

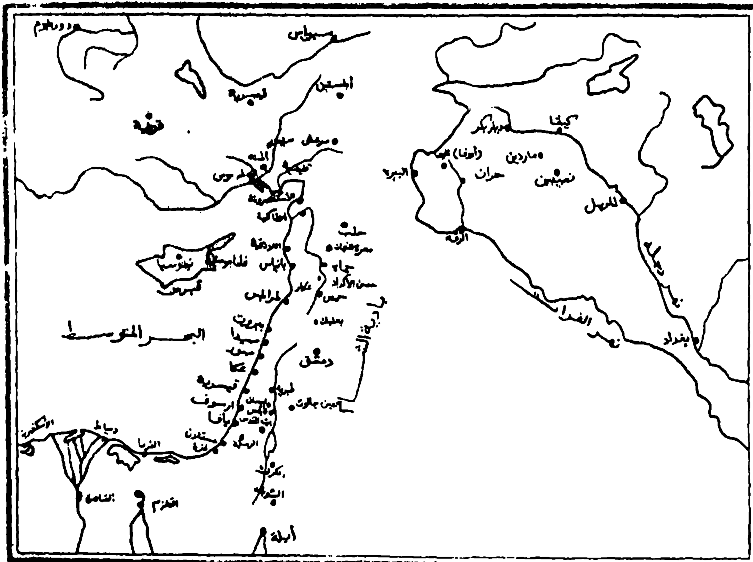
Precis de l'Histiore d'Egypte, t. II (Le Caire 1322).



الهند في عصر دولة سلاطين المماليك بدلهي



دلتا النيل أثناء حملة لويس التاسع



الشام وآسيا الصغرى والعراق في عصر دولة المماليك

فهرس الموضوعات

الفصل الأول

المماليك الأتراك والصقالبة فى المجمع الإسلامى

الفصل الثانى

المماليك فى مصر منذ الدولة الطولونية حتى بداية الدولة الأيوبية

(٢٤٥ - ٥٦٤هـ / ٨٦٨ - ١١٩٢م)

الفصل الثالث

الدولة الأيوبية ومماليكها

الفصل الرابع

انتقال السلطنة إلى المماليك البحرية الصالحية

الفصل الخامس

خطر المغول أو التتار على الدولة المملوكية

الفصل السادس

تدعيم أركان الدولة المملوكية في مصر والشام

الفصل السابع

دولة بنى قلاوون فى مصر والشام

المنصور سيف الدين قلاوون (٦٧٨- ٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م)

الملاحق:

كتابة كمبيوتر بالليزر وطباعة أوفست وتجليد
بمكتبة ومطبعة الاشعاع
بالمعمورة البلد - ت : ٥٦٠٠٤٧٩ - اسكندرية